

تَفْسِيرُ الْمَرْأِغِيِّ

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الرابع

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الرابع

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الطعام: كل ما يطعم ويتناول للغذاء كما قال « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ » وقالت عائشة رضى الله عنها « ما لنا طعام إلا الأسودان :

التمر والماء» وكثر استعماله في الخبز كما قالوا: أكل الطعام مأدوماً، وفي الثبر، ومنه حديث أبي سعيد «كنا نخرج زكاة الفطر صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير» والحل من حل الشيء ضد حرم، وإسرائيل لقب نبي الله يعقوب، ومعناه الأمير الجاهد مع الله ثم شاع إطلاقه على جميع ذريته كما تدل على ذلك الأسفار المنسوبة إلى موسى، والفريية الكذب، والافتراء اختلاق الكذب، والحنيف المائل عن الباطل إلى الحق، وبكة من أسماء مكة (أبدلت ميمها باء) وهذا كثير الاستعمال في الكلام، قالوا: هذا دائم ودائب، والآيات: الدلائل والعلامات، والحج (بكسر الحاء وفتحها وبهما قرئ) القصد.

المعنى الجملي

كانت الآيات من أول السورة إلى هنا في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، مع إثبات وحدانية الله تعالى، وتبع ذلك محاجة أهل الكتاب ودحض شبههم وتفنيد ما استحدثوه في دينهم من بدع وتقاليد لا نص عليها في كتابهم، أما هذه الآيات فقد جاءت لدفع شبهتين من شبهات اليهود:

(١) أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم، فكيف تأكل لحوم الإبل والبأنها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم؟ فأنت قد استحللت ما كان محرماً عليه، فأنت بمصدق له، ولا بموافق له في الدين، وليس لك أن تقول إنك أولى الناس به، فرد الله عليهم بأن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل، ولإبراهيم من قبله، ثم حرم عليهم بعض الطيبات عقوبة لهم.

(٢) أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعنوا في نبوته، وقالوا إن بيت المقدس أفضل من الكعبة، وأحق بالاستقبال، فهو قد وضع قبلها وهو أرض الحشر، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه ويصلون إليه، فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا، ولما تحولت عن بيت المقدس، وعظمت مكاناً آخر.

وخالفت من تقدمك من الأنبياء ، فرد الله سبحانه شبهتهم ، بأن أول بيت بني للعبادة هو البيت الحرام بناه إبراهيم وولده إسماعيل للعبادة .

الإيضاح

أجاب الله سبحانه عن أولى الشبهتين بقوله :

(كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) أى إن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ، ولإبراهيم من قبله ، ثم حرم عليهم بعض الطيبات فى التوراة عقوبة لهم وتأديباً كما يدل على ذلك قوله : « فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » الآية .

والمراد بإسرائيل الشعب كله كما هو شائع فى الاستعمال عندهم لا يعقوب فقط ، كما أن المراد بتحريم الشعب ذلك على نفسه أنه اجترح من السيئات ، وارتكب من الموبقات ما كان سبباً فى هذا التحريم كما ترشد إلى ذلك الآية التى أسلفناها .

وخلاصة هذا الجواب — أن الأصل فى الأطعمة الحل ، وما كان تحريم ما حرم على إسرائيل إلا تأديباً لهم على جرائم ومخالفات وقعت منهم ، وكانت سبباً فيما نالهم من التحريم لها ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأمته لم يجترحوا هذه السيئات فلا تحرم عليهم هذه الطيبات .

ومعنى قوله : من قبل أن تنزل التوراة ، أنه قبل نزول التوراة كان حلالاً لبني إسرائيل كل أنواع المطعومات ، أما بعد نزولها ، فقد حرم عليهم أنواع كثيرة بسبب الذنوب التى اقترفوها ، وقد بينتها التوراة ، وبينت أسباب التحريم وعمله .

(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فى دعواكم ، لا تخافون أن تكذبكم نصوصها ، فالحكم بيننا وبينكم كتابكم الناطق بصحة ما يقول القرآن ، فلو جئتم به لكان مؤيداً ما نقول من أن تحريم ما حرم ما كان إلا للتأديب والزجر وقد جاء فى سفر التثنية : قال موسى حين أخذ عليكم العهد بحفظ الشريعة (إنكم شعب

غليظ الرقبة يقاوم الرب) وقد روى أنهم لم يجرعوا على الإتيان بها ، وفلجت حجة القرآن .

وفي هذا أكبر دليل على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ هو قد علم أن ما في التوراة يدل على كذبهم ، وهو لم يقرأها ولا قرأ غيرها من كتب الأولين ، فهذا العلم لم يكن إلا بوحى من الله .

(فن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) أى فمن اخترع الكذب على الله وزعم أن التحريم كان على الأنبياء السابقين وأممهم قبل نزول التوراة — بعد أن ظهرت له الحجة بأن التحريم إنما كان بسبب ما ارتكب الشعب من الذنوب والخطايا ، وبعد أن طولب المدعون بالإتيان بالتوراة وتلاوتها ، فامتنعوا لئلا يظهر كذبهم ، وأن الله لم يحرم شيئاً قبل نزولها — فأولئك هم الظالمون لأنفسهم المستحقون لعذاب الله ، لأنهم قد حولوا الحق عن وجهه ، ووضعوا حكم الله فى غير موضعه ، فضأوا وأضلوا أشياعهم بإصرارهم على الباطل ، وعدم تصديقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(قل صدق الله) فيما أنبأنى به من أن سائر الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل، وأنها إنما حُرمت على اليهود جزاء أفعالهم القبيحة ، وبذا قامت عليكم الحجة ، وثبت أنى مبلغ عنه ، إذ ما كان فى استطاعتي لولا الوحي أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون عن أنبيائكم .

(فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً) أى وإذا قد استبان لكم أن ما يدعوكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم هو من ملة إبراهيم ، فعليكم أن تتبعوه فى استباحة أكل لحوم الإبل وألبانها ، وملته حنيفية سمحاء لا إفراط فيها ولا تفريط .

(وما كان من المشركين) الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ، أو يعبدون سواه ، كما فعله العرب من عبادة الأوثان ، وفعله اليهود من ادّعائهم أن عزيزاً ابن الله ، وفعله النصراني من اعتقادهم أن المسيح ابن الله .

وخالصة هذا — أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم في جزئيات الأحكام وكلياتها ، فأحل ما أحله هو من أكل لحوم الإبل وألبانها ، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله ، وما كان إبراهيم صلوات الله عليه إلا على هذا الدين .

ثم أجاب عن الشبهة الثانية فقال :

(إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) أى إن البيت الذى نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع معبداً للناس ، بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام للعبادة ، ثم بنى المسجد الأقصى بعد ذلك بعدة قرون ، بناه سليمان عليه السلام سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد فكان جعله قبله أولى ، وبذا يكون النبي صلى الله عليه وسلم على ملة إبراهيم ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهما .

والخلاصة — أن أول بيوت العبادة الصحيحة التى بناها الأنبياء هو البيت الحرام ، فليس في الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما يؤثر من توارىخهم ، ويتبع هذا أولية الشرف والتعظيم .

(مباركا وهدى للعالمين) تطلق البركة على معنيين: أحدهما النمو والزيادة ، وثانيهما البقاء والدوام كما يقال تبارك الله .

والبركة والهداية من فضائله الحسية والمعنوية .

أما الأولى فهي أنه قد أفيض عليه من بركات الأرض وثمرات كل شئ مع كونه بواد غير ذى زرع كما قال تعالى : « يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » فترى الأقوات والثمار في مكة كثيرة جيدة ، وأقل ثمنها من كثير من البلاد ذوات الخيرات الوفيرة كمصر والشام .

وأما الثانية فلأن القلوب تهوى إليه ، فتأتى الناس مشاة وركبانا من كل فج عميق لأداء المناسك الدينية من الحج والعمرة ، ويولون وجوههم شطره في صلاتهم

وربما لا تمضي ساعة من ليل أو نهار إلا وهناك ناس يتوجهون إليه ، ولا شك أن هذه الهداية من أشرف أنواع الهدايات .

وكل هذا بركة دعوة إبراهيم صلوات الله عليه « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

(فيه آيات بينات مقام إبراهيم) أى فيه دلائل واضحات أحدها مقام إبراهيم (موضع قيامه للصلاة والعبادة) وقد عرف ذلك العرب وغيرهم بالنقل المتواتر .

وإبراهيم أبو الأنبياء الذين بقى في الأرض أثرهم ، وجعلت النبوة والملك فيهم ، فأى دليل أبين من هذا على كون ذلك البيت من أول بيوت العبادة المعروفة .

(ومن دخله كان آمناً) أى وأمن من دخله ، والعرب جميعاً قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه ، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء ، وأمن أن يسفك دمه أو تستباح حرمانه مادام فيه ، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن واختلاف المنازع والأهواء ، وقد أقر الإسلام هذا ، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . ومن ثم قال أبو حنيفة رحمه الله : من وجب قتله في الحل بقصاص أوردته أوزنا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج منه .

وفتح مكة بالسيف كان لضرورة تطهير البيت من الشرك ، وتخصيصه للعبادة ، فقد حلت للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار لم تحل لأحد قبله ، ولن تحل لأحد بعده كما جاء في الحديث .

على أن حل مكة وما يتبعها من أرباضها للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار أمر زائد على أمن البيت ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستحل البيت ساعة ولا مادونها ، بل كان مناديه ينادى : من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلق بابَه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

وقد أخبر أبو سفيان النبي صلى الله عليه وسلم بقول سعد بن عبادَةَ الأنصاريّ حامل اللواء له في الطريق : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، فقال صلى الله عليه وسلم « كذب سعد ، هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » وما فعله الحجاج من رمى البيت بالمنجنيق ، فهو فعل السياسة التي قد تحمل صاحبها على مخالفة ما يعتقد حرمة ، ويقع به في الظلم والإلحاد ، إذ هو وجنده لم يكونوا معتقدين حلّ ما فعلوا .

(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) أى ويجب الحج على المستطيع من هذه الأمة ، وفي هذا تعظيم للبيت أيما تعظيم ، وما زال الناس من عهد إبراهيم إلى عهد محمد صلوات الله عليهما يحجون البيت عملاً بسنة إبراهيم ، جروا على هذا جيلاً بعد جيل لم يمنعهم من ذلك شركهم ولا عبادتهم للأوثان والأصنام ، فهي آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى إبراهيم .

واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه كما قال تعالى : « فَبَلِّغْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » وقال : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » وتختلف الاستطاعة باختلاف الأشخاص ، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه ، وكل مكلف أدرى بنفسه في ذلك .

وقد اختلف في تفسيرها ، فقال بعضهم إنها القدرة على الزاد والراحلة مع أمن الطريق ، وقال بعض : إنها صحة البدن والقدرة على المشي ، وقال آخرون هي صحة البدن وزوال الخوف من عدو أو سبع مع القدرة على المال الذي يشتري منه الزاد والراحلة ، وقضاء جميع الديون والودائع ودفع النفقة التي تكفي لمن تجب عليه نفقته

حتى العودة من الحج . وخلاصة ذلك - أن هذا الإيجاب مشروط بالاستطاعة وهي تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان .

(ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) المراد بالكفر هنا جحود كون هذا البيت أول بيت وضعه إبراهيم للعبادة بعد أن قامت الأدلة على ذلك ، وعدم الإذعان لما فرضه الله من حجه والتوجه إليه بالعبادة .

وفسر بعضهم الكفر بترك الحج فस्कأنه قال ومن لم يحج فإن الله غنى عن العالمين ، وعبر عنه بذلك تغليظا وتشديدا على تاركة ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا » وروى عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبة له : « أيها الناس ، إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ، ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا » وأثر عن عمر أنه قال : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له جدّة (سعة) ولم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين .

ولهذه الأدلة قال كثير من الفقهاء : إن الحج واجب على الفور ، وقال آخرون : إنه واجب على التراخي .

وهذه الجملة تأكيد لما سبق من الوجوب ، فإنه بدأ الآية بأن قال : والله على الناس ، فأفاد أن ذلك ما كان لجرّ نفع ولا لدفع ضرر ، بل كان للعزة الإلهية ، ولتكبرياء الربوبية ، وختمها بهذه الجملة المؤكدة لذلك ، ببيان أن فاعل ذلك مستأهل للنعمة برضا الله عنه ، وأن تاركة يسخط عليه سخطا عظيما .

وحسب البيت شرفا أنه حرم آمن ومثابة للناس ومبارك وهدى للعالمين ، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرمة وفضله ، من أنه لا يسفك فيه دم ، ولا يعضد شجره ، ولا يختلى خلاه (لا يقطع نباته) وأن قصده مكفر للذنوب مباح للخطايا ، وأن العبادة التي تؤدي فيه لا تؤدي في غيره ، وأن استلام الحجر

الأسود فيه رمز إلى مبايعة الله تعالى على إقامة دينه والإخلاص له ، وأن الصلاة فيه بمائة ألف ضعف في غيره .

وكتب الأحاديث والسيرة مليئة ببيان فضله ، ومشيدة بذكره .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ (٩٩)

شرح المفردات

آيات الله هي الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والشهيد العالم بالشيء المطلع عليه ، وتصدون من صدده أصده صدا أي صرفته ، والسبيل يذكر ويؤنث وهو الطريق ، وتبعونها من بغاه يبغيه أي طلبه ، والعوج (بكسر العين) الميل عن الاستواء في الأمور المعنوية كالدين والقول (وبفتحها) في المحسوسات كالخائط والقناة والشجرة ؛ والمراد به هنا الزيف والتحريف .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما جاء في التوراة والإنجيل من البشارة بمقدمه ، ثم ذكر شبهات القوم وكر عليها بالحجة ، ونقضها بما ليس بعده زيادة لمستزيد - أردف ذلك بخطابهم بالكلام اللين ، وبدأه بعنوان كونهم أهل الكتاب مما يوجب الإيمان به وبما يصدق به ؛ مبالغة في تقبيح حالهم في تكذيبهم له ، إذ هم قد فعلوا ذلك على علم .

أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : مرّ شاس بن قيس - وكان عظيم الكفر شديد الطعن والحرد على المسامين - على نفر من أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون فيه ، فغاضه مارأى من جماعهم وألقتهم وصالح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان منهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملائ بنى قتيلة (الأوس والخزرج) بهذه البلاد ، والله مالت معهم إذا اجتمع ملئهم بها من قرار : فأمر فتى شابا من اليهود — وكان معه — فقال اعمد إليهم فاجلس معهم وذكركم يوم بُعث ، وأنشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار ففعل (وكان يوم بعث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر للأوس على الخزرج) فقيل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفخروا حتى تواتب رجالان من الحى على الركب (أوس بن قبيطى أحد بنى حارثة ابن الحارث من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج) فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله ردناها جذعة (شابة فتية ، يعنون الحرب) وغضب الفريقان وقالوا قد فعلنا ، السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة (هى الحرة وهى أرض مستوية بظاهر المدينة) فخرجوا إليها ، وتجاوب الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التى كانوا عليها في الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدوئى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً .

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطلقاً الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع .

وأنزل الله فيه (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) إلى آخر الآيتين .

السابقين ، وأنزل عز وجل في أوس بن قيطى وجبار بن صخر ومن كان معهما) .
يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب — إلى قوله —
لعلكم تهتدون) .

الإيضاح

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون ؟) أى لأى
سبب تكفرون بتلك الآيات والله مطمع على أعمالكم ، لا تخفى عليه خافية من أمركم
وهو مجازيكم بها ؟ وذلك مما يوجب عليكم ألا تجترؤا على الكفر بآياته .
ولا يخفى ما فى هذا من التوبيخ والإيماء إلى تعجزهم عن إقامة العذر على كفرهم ،
كأنه قيل هاتوا عذركم إن كان ذلك فى مكنتم .

(قل يا أهل الكتاب لم تصدقوا عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ؟)
أى لأى سبب تصرفون من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبعه عن الإيمان الذى
يرقى عقل المؤمن بما فيه من طلب النظر فى الكون ، ويرقى روحه بتزكيتها بالأخلاق
الطيبة ، والأعمال الصالحة ، وتكذبون بذلك كفرا وعنادا ، وكبرا وحسدا ، وتلقون
الشبهات الباطلة فى قلوب الضعفاء من المسلمين بغيا وكيدا للنبي صلى الله عليه وسلم ،
تبغون لأهل دين الله ولئن هو على سبيل الحق عوجا وضلالا ، وزيغا عن الاستقامة
على الهدى والحجة ، وأنتم عارفون بتقدم البشارة به ، عالمون بصدق نبوته ، ومن كان
كذلك فلا يليق به الإصرار على الباطل والضللال والإضلال .

(وما الله بغافل عما تعملون) من هذا الصد وغيره من الأعمال ، فمجازيكم عليه ،
وغير خاف ما فى هذا من تهديد ووعيد ، كما يقول الرجل لعبده وقد أنكر
عليه اعوجاج أخلاقه : لا يخفى على ما أنت عليه ، وما أنا بغافل عن أمرك .

وإنما ختم هذه الآية بنفى الغفلة ، لأن صدمهم عن الإسلام كان بضرب
من المكر والكيد ووجوه الخيل ، وختم الآية السابقة بقوله والله شهيد ؛ لأن العمل
الذى فيها وهو الكفر ظاهر مشهود ،

وكرر الخطاب بيا أهل الكتاب ؛ لأن المقصد التوبيخ على ألطف الوجوه ، وهذا أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريق الضلال والإضلال ، وأدل على النصح لهم ، والإشفاق عليهم .
والآية الأولى لكفهم عن الضلال ، والثانية لكفهم عن الإضلال .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

شرح المفردات

اعتصم بالشئ إذا تمسك به ، فنع نفسه من الوقوع في الهلاك كما قال تعالى حكاية عن زليخا «وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» والتقاء التقوى كالنؤدة من اتأد ، والحق من حق الشئ بمعنى وجب وثبت ، والأصل اتقاء حقا ، وحبل الله كتابه من اعتصم به كان مستمسكا بأقوى سبب ، متحرزا من السقوط في قعر جهنم ، وشفا الحفرة طرفها ، وبه يضرب المثل في القرب من الهلاك ، فيقال أشفى على الهلاك ، أى وصل إلى شفاه .

المعنى الجملى

بعد أن وُجِّعَ سبحانه أهل الكتاب على كفرهم وصدهم عن سبيل الله ، وأقام الحجج عليهم وأزال شبهاتهم — خاطب المؤمنين محذراً لهم من إغوائهم وإضلالهم ، مبيناً لهم أن مثل هؤلاء لا ينبغي أن يطاعوا ، ولا أن يسمع لهم قول ، فهم دعاة الفتنة وحالو خطبها ، ثم أمرهم بعد ذلك ببقواه والتمسك بحبله المتين ، ثم بنذكر نعمته عليهم ، وفعل الإنسان إما عن رهبة وإما عن رغبة ، والرهبة مقدمة على الرغبة ، وقد أشار إلى الأولى بقوله : (اتقوا الله حق تقاته) ، وإلى الثانية بقوله : (واذكروا نعمة الله عليكم) .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) أى إنكم أيها المؤمنون إذا أصغيتم إلى ما يلقى إليكم هؤلاء اليهود مما يشير الفتنة ، ولتم لهم في القول ، واستجبت لما يدعونكم إليه — ردوكم إلى الكفر بعد الإيمان كما قال تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » والكفر يوجب الهلاك في الدنيا والدين ، أما في الدنيا فبوقوع العداوة والبغضاء ، وهيجان الفتنة المؤدى إلى سفك الدماء ، وأما في الدين فلا حاجة إلى بيانه .

(وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟) أى من أين يتطرق إليكم الكفر ، والحال أن القرآن يتلى عليكم على لسان رسوله غضا طرياً وبين أظهركم فرسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ، ويبين لكم ما أنزل إليكم ، ولكم في سنته خير أسوة تغذى إيمانكم ، وتنير قلوبكم ، فلا ينبغي لمشكم أن تلتفتوا إلى قولهم ، بل الواجب عليكم أن ترجعوا عند كل شبهة تسمعونها من

هؤلاء اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يكشف عنها ، ويزيل ما علق بقلوبكم منها .

(ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) أى ومن يستمسك بدين الله وكتابه ورسوله ، فقد حصل له الهدى إلى الصراط المستقيم لا محالة ، كما تقول إذا جئت فلاناً فقد أفلحت ، إذ هو حينئذ لا تخفى عليه الممالك ، ولا تروج لديه الشبهات قال قتادة : ذكر فى الآية أمرين يمنعان من الوقوع فى الكفر : أحدهما تلاوة كتاب الله ، وثانيهما كون الرسول فيهم ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد مضى إلى رحمة الله ورضوانه ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أى يجب عليكم تقواه حقاً ، بأن تقوموا بالواجبات وتجتنبوا المنهيات ، ونحو الآية قوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى بالغوا فى تقواه جهد المستطاع .

وعن ابن مسعود أنه قال : تقوى الله أن يطاع فلا يعصى ، ويُشكر فلا يكفر ، ويُذكر فلا يُنسى .

وعن ابن عباس أنه قال : هى أن يُجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأمهاتهم .

(ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى ولا تموتن إلا ونفوسكم مخصصة لله ، لا تجعلون شركة لسواه أى لا تكوننَّ على حال سوى الإسلام إذا أدرككم الموت . والخلاصة — استمروا على الإسلام ، وحافظوا على أداء الواجبات ، وترك المنهيات حتى الموت .

وقد جاء هذا فى مقابلة قوله : (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) .

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) أى تمسكوا بكتاب الله وعهده الذى عهد به إليكم ، وفيه أمركم بالألفة والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله ، والالتناء إلى أمره .

وقد جعل الدين في سلطانه على النفوس ، وتصرفه فيها على حسب نواميسه وأصوله ، وما يترتب على ذلك من جريان الأعمال على حسب هديه - كأنه حبل متين يأخذ به الآخذ فيأمن السقوط في الهاوية ، كأن الآخذين به قوم على كثر من ارتفاع من الأرض يخشى عليهم السقوط منه ، فيأخذون بحبل موثق يجمعون به قوتهم . فينجون من السقوط .

وفي الحديث « القرآن حبل الله المتين ، لا تنقض عجائبه ، ولا يخاق على كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم » وجاء في معنى الآية قوله تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » فحبل الله في هذه الآية هو صراطه المستقيم ، كما أن أنواع التفرق هي السبل التي نهى عنها فيها .

ومن السبل المفرقة في الدين إحداث الشيع والمذاهب كما قل : « إِنَّ الدِّينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » ومنها العصبية الجنسية كما بين الأوس والخزرج كما تقدم ذلك ، وقد روى أبو داود عن مطعم بن جبير (ليس منأمن دعا إلى عصبية) .

وقد سار على هذا النهج أهل أوربا في العصر الحديث ، فاعتصموا بالعصبية الجنسية كما كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية وسرى ذلك إلى بعض البلاد الإسلامية ، فحاول أهلها أن يجمعوا في المسلمين جنسيات وطنية . فدعا الترك إلى العصبية التركية ، والمصريون إلى الجنسية المصرية ، والعراقيون إلى الجنسية العراقية ، ظن منهم أن ذلك مما ينهض بالوطن ، وليس الأمر كما يظنون ، فإن الوطن لا يرق إلا باتحاد كل المقيمين فيه لإحيائه ، لا في فرقهم ووقوع الشحناء والبغضاء بينهم ، فالدين يأمر باتحاد كل قوم تضمهم أرض واحدة ، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم ، ويأمر بالاعتصام بحبل الله المتين بين جميع الأقوام .

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته

إخواناً) أى واذكروا أيها المؤمنون النعمة التى أنعم الله عليكم بها حين كنتم أعداء يقتل بعضكم بعضاً ، ويأكل كل قوتكم ضعيفكم ، فجاء الإسلام فألف بينكم وجمع جمعكم ، وجعلكم إخواناً ، حتى قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم ، وكان بعضهم يؤثر غيره على نفسه وهو فى خصاصة وحاجة إليه ، وأطفأ الحروب التى تطاولت بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة ، وأنقذهم مما هو أدهى وأمر وهو عذاب الآخرة .

(وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) أى وكنتم بوثنيتكم وشرككم بالله ، كنتم على طرف حفرة يوشك أن ينهار بكم فى النار ، فليس بين الشرك والهلاك فى النار إلا الموت ، والموت أقرب غائب ينتظر ، فأنقذكم الإسلام منها .

وفى هذه الآيات جماع المنن التى أنعم بها عليهم ، فقد أخرجهم بالإسلام من الشرك ومخازيه ، وألف بين قلوبهم حتى صاروا سادة البشر ، حين كانوا يعملون بكتابه ، وأنقذهم بذلك من النار ، فسعدوا بالحسنين .

فانظر إلى آيات الله ، ودلائل قدرته ، كيف حول قوما متخاذلين تملأ قلوبهم الإحن والعداوات ، ويتربص كل منهما بالآخر ريب المنون - إلى جماعات متصافية القلوب ، مليئة بالحب والإخلاص ، وجهتهم جميعاً واحدة ، هى حكم الله ورفعة دينه ، ونشره بين البشر .

(كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) أى كما بين لكم ربكم فى هذه الآيات ما يضممه لكم اليهود من غشكم ، وأمره إياكم بما أمركم به ، ونهيه لكم عما نهاكم عنه ، والحال التى كنتم عليها فى الجاهلية ، وما صرتم إليه فى الإسلام ، ليعترفكم فى كل ذلك مواقع نعمه - كذلك يبين سائر حججه فى تنزيله على لسان رسوله ، ليعدكم للاهتمام الدائم ، حتى لا تعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان .
والاختلاف الذى يقع بين البشر ضربان :

(١) ضرب لا يسلم منه الناس ، ولا يمكن الاحتراس منه ، وهو الخلاف

فى الرأى والفهم ، وهو مما فطر عليه البشر ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ
مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » إذ أن العقول والأفهام ليست متساوية ، فالأسرة
الواحدة تختلف أفهام أفرادها فى الشئ الواحد ، كما يختلف جهنم له ، وميهم إليه .
وهذا ضرب لاضرر فيه .

(٢) ضرب جدت الشرائع فى هدمه ومحوه ، وهو تحكيم الرأى والهوى
فى أمور الدين وشئون الحياة .

وهاك مثلاً يتضح لك به ما تقدم قد اختلف الأئمة المجتهدون فى فهم كثير
من نصوص الدين من كتاب وسنة ، وما كان فى ذلك من حرج ، فهالك نشأ
فى المدينة ورأى ما كان عليه أهلها من صلاح وسلامة قلب ، فقال : إن عمل أهلها
أصل من أصول الدين ، لأنهم لقرب عهدهم من النبى صلى الله عليه وسلم لا يفتنون
على غير ما مضت عليه السنة فى العمل ، وأبو حنيفة نشأ فى العراق وأهلها أهل شقاق
ونفاق ، فلم يجعل عملهم ولا عمل غيرهم حجة ، ولو اجتمع هذان الإمامان لعذر كل
منهما صاحبه فيما رأى ، لأنه بذل جهده فى بيان وجه الحق مع الإخلاص لله ،
وإرادة الخير والطاعة لأمره ، ولكن جاءت بعد هؤلاء فرق من المسلمين قبلتهم فى نقل
عنهم ، ولم تقلدهم فى سيرتهم ، وحكموا الرأى والهوى فى الدين ، وفرقوا شيعاً ، كل
فريق يتعصب لرأى فيما وقع من أوجه الخلاف ، ويعادى الخالف له حتى حدث
من ذلك ما ترى ، وما ذاك إلا لأن الحق لم يكن هو مطالب المتعصبين ، فليس من
المعقول أن أبا حنيفة أصاب فى كل ما خالف فيه غيره من الأئمة ، وأن الشافعى
ومالكا أخطأ فى جميع ما خالفا فيه أبا حنيفة .

وإذا فكيف يمضى نحو أربعة عشر قرناً ولا يستبين لفقهاء مذهبه وجه
الصواب فى بعض المسائل الخلافية ، فيرجعون بعض آراء المذاهب الأخرى على
مذهبه فى تلك المسائل ، ويرجعون إلى الصواب فيها .

وهذا الضرب من الخلاف وهو تحكيم رأى والهوى كان مصدر شقاء أمم كثيرة فهوت بعد رفعتها ، وذلت بعد عزتها ، وضعفت بعد قوتها .

وقد حدث مثل هذا في الفرق الإسلامية في علم الكلام ، فإن أبدى أحدهم رأياً في مسألة بادر مخالفه إلى الرد عليه ، وتفنيد مذهبه وتضليله ، ويقابله الآخر بمثل صنيعه ، ولو حاول كل منهما محادثة الآخر ، والاطلاع على أدلته ، ووزنها بميزان الإنصاف والحق لما حدث مثل هذا الخلاف ، بل اقتنع كل واحد منهما بما رأى مخالفه .

والمسلم ما دام محافظاً على نصوص دينه لا يخل بواحد منها ، مع احترامه لرسوله المفسر لكتابه لا يخرج من جماعة المسلمين لمخالفته سواه .

فإذا تحكم الرأى والهوى ولعن بعضهم بعضاً ، وكفر بعضهم بعضاً ، فقد باء بها من قالها كما ورد في الحديث .

وكذلك الحال في الاختلاف في المعاملة في المسائل السياسية والدينية ، لا ينبغي أن يكون مفرقاً بين جماعة المؤمنين ، بل عليهم أن يرجعوا في النزاع إلى حكم الله وآراء أولى العلم منهم ، وبذلك تنقّي غائلة الخلاف ، وتكون في وفاق ، ونصير ممن يستمعون القول فيمتبعون أحسنه .

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

شرح المفردات

الأمة الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ، ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص ، والخير ما فيه صلاح الناس في الدين والدنيا ، والمعروف ما استحسنته الشرع والعقل ، والمنكر ضده ، وابتضاض الوجوه عبارة عن المسرة ، واسودادها عبارة عن المساةة ، وعلى هذا جاء قوله : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » بالحق أى بالأمر الذى له ثبوت وتحقق ولا مجال فيه للشبهات ، والظلم لغة وعرفا وضع الشيء في غير موضعه ، إما بنقصان أو بزيادة ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله سبحانه المؤمنين فيما ساف بتكميل أنفسهم وتركيتها مما يشوبها من الأدناس والأرجاس ، بالعمل بتقوى الله ، والمحافظة على إخلاص الوجه له حتى الممات ، والاعتصام بحبل الله المتين بكون باتباع كتابه ، والجرى على سنة رسوله ، إذا اختلفت الأهواء ، وتضاربت الآراء .

أمرهم هنا بتكميل غيرهم من أفراد الأمة ، وحشهم على اتباع أوامر الشريعة ، وترك نواهيها ، تثبيتاً لهم جميعاً على مراعاة ما فيها من الأحكام ، والمحافظة على ما فيها من الشرائع والنواميس ، وأن يكون في نفوس أفرادها من حب الخير والحدب على ما فيه المصلحة لمجموعها ، ما يكون لحب الفرد لمصلحته . وبذا تكون بينهم رابطة تجمعهم في طلاب الخير لهم جميعاً ، حتى تكون الأمة كأنها جسد واحد كما ورد

في الحديث « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسبي والسهر » رواه مسلم .
 وروى البخاري وغيره حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .
 والحافظ لوحدة الأمة ، ومناطق بقاء جامعتها — أمر بعض أفرادها بعضاً بالاستمسك بالخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الإيضاح

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) أى ولتكن منكم طائفة متميزة تقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والخطاب بهذا هم المؤمنون كافة فيهم مكلفون بأن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة ، وذلك بأن يكون لكل فرد منهم إرادة وعمل في إيجادها ، ومراقبة سيرها على حسب الاستطاعة ، حتى إذا رأوا منها خطأ أو انحرافاً أرجعوها إلى الصواب .
 وقد كان المسلمون في الصدر الأول على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة ، فقد خطب عمر على المنبر وكان مما قال : إذا رأيتم في أعوجاجاً فقوموه ، فقام أحد رعاة الإبل وقال : لو رأيته فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا .

وكان الخاصة من الصحابة متكاتفين في أداء هذا الواجب ، يشعر كل منهم بما يشعر الآخر من الحاجة إلى نشر لواء الإسلام وحفظه ، ومقاومة كل من يمس شيئاً من عقائده وآدابه ، وحكمه ومصالح أهله ، وكان سائر المسلمين تبعاً لهم .
 ويجب فيمن يقوم بهذه الدعوة شروط ، ليؤدي وظيفته خير الأداء ، ويكون مثلاً صالحاً يحتذى به في علمه وعمله :

(١) أن يكون عالماً بالقرآن والسنة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم .

(٢) أن يكون عالماً بحال من توجه إليهم الدعوة في شئونهم واستعدادهم وطباعهم وأخلاقهم ، أى معرفة أحوالهم الاجتماعية .

(٣) أن يكون عالماً بلغة الأمة التى يراد دعوتها ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة بتعلم العبرية لحاجته إلى محاوراة اليهود الذين كانوا يجاورونه ، ومعرفة حقيقة حالهم .

(٤) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم ، وبذلك يتييسر له معرفة ما فيها من باطل ، فإن الإنسان إن لم يتبين له بطلان ما هو عليه ، لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره وإن دعاه إليه .

وعلى الجملة فلا يقوم بهذه الدعوة إلا خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام ، وحكمة التشريع وفقهه ، وهم الذين أشار إليهم الكتاب الكريم بقوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » .

وهؤلاء يقومون بتطبيق أحكام الله تعالى على مصالح العباد فى كل زمان ومكان على مقدار علمهم فى المساجد والمعابد والمنتديات العامة ، وفى المحافل عند سنوح الفرصة . فإذا هم فعلوا ذلك كثر فى الأمة الخير ، ونذر فيها وقوع الشر ، واثلت قلوب أهلها ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، وسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .

وأمة هذه حالها تسود غيرها من الأمم باجتماع كلمتها ، واتفاق أهوائها ، إذ لا مطمح لها إلا رفعة شأن دينها ، وعزة أبنائها ، وسيادتها العالم كله .

ولئن يتم ذلك إلا إذا أعد أهلها للأمر عدته ، وكبوا أنفسهم بالمعارف والعلوم التى تحتاج إليها الأمم التى تبغى السعادة والرقى ، وتخلقوا بفاضل الأخلاق ، وحيد الصفات ، حتى يكونوا مثلاً علياً تحتذى ، ويشار إليها بالبنان . وإن ما أودع فى ديننا من هذا ، وما خلفه لنا السلف الصالح من الكنوز والثروة العلمية ، فيه غنيّة

لمن يريد الخير والفلاح ، وقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن خير الناس فقال : أمرهم بالمعروف ، ونهواهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصاهم للرحم » .
وعنه أنه قال : « واندى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم » .
وعن على كرم الله وجهه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومن غضب لله غضب الله له .

و بعد أن أمر سبحانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بين ما يجب أن تكون عليه الأمة الداعية ، الأمرة الناهية ، من وحدة المقصد ، واتحاد الغرض . لأن الذين سبقوهم من الأمم لم يفلحوا لاختلاف نزعاتهم ، وتفرق أهوائهم ، لأن كلا منهم يذهب إلى تأييد رأيه ، وإرضاء هواه .

أما المتفقون في المقصد ، فاختلافهم في الرأي لا يضيرهم ، بل ينفعهم إذ هو أمر طبعى لا بد منه لتحصيله وتبين وجوه الصواب فيه ، ومن ثم قال تعالى :

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) أى ولا تكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً ، تذهب كل شعبة منها مذهباً يخالف مذهب الآخر ، وتنصر مذهبها وتدعو إليه ، وتخطئ ما سواه ، ولذا تعادوا واقتتلوا .

ولو كان فيهم أمة تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعتصم بحبل الله ، وتتجه إلى غاية واحدة ، لما تفرقوا ولا اختلفوا فيه ، ولما تعددت مذاهبهم في أصوله وفروعه ، وما قاتل بعضهم بعضاً — فلا تكونوا مثلهم فيحل بكم ما حل بهم .

(وأولئك لهم عذاب عظيم) وهذا العذاب يشمل خسران الدنيا ، وخسران الآخرة ، أما في الدنيا فلأن بأسهم يكون بينهم شديداً ، فيشقى بعضهم ببعض ، ويتلون بالأمم التي تطمع في الضعفاء ، وتذيقهم الخزي والنكال ، وأما في الآخرة فعذاب الله أشد وأبقى .

وهذا الوعيد في الآية يقابل الوعد في الآية قبلها وهو قوله (وأولئك هم المفلحون) فالفلاح فيها يشمل الفوز بخيرى الدنيا والآخرة .

(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) أى واذكروا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه من حسن العاقبة ، وتسود وجوه لما ترى من سوء العاقبة ، وما يحل بها من النكال والوبال .

ونحو الآية قوله : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَيْرَةٌ ، تَرَهَقُهُمْ قَبْرَةٌ » وقوله : « وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا » وقوله : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » وفي الحديث « إن أمتي يحشرون عراً محجلين من آثار الوضوء » .

واستعمال البياض في السرور والسود في الحزن عرف شائع لدى كل ناطق بالضاد ، ولا سيما وصف الكاذب بسواد الوجه كما قال شاعرهم :

* فتعجبوا لسواد وجه الكاذب *

والخلاصة — أن هؤلاء المختلفين المتفرقين لهم عذاب عظيم في هذا اليوم كما تظاهرت على ذلك الآيات والأحاديث ، كما يكون لهم مثل ذلك في الدنيا ، إذ هم لاختلاف مقاصدهم لا يتناصرون ولا يتعاونون ، ولا يأنسون بالأعمال التي فيها شرف الملة ، وعز الأمة ، فتسود وجوههم بالنل والكآبة حين يجنون ثمار أعمالهم ، وعواقب تفرقهم واختلافهم ، بقهر العاصب لهم ، وانتزاعه السلطة من أيديهم ، والتاريخ والمشهد شاهدان صدق على هذا .

أما المتفقون الذين اعتصموا واتفقوا على الأعمال النافعة لخير الأمة وعزها ، وأصبح كل واحد منهم عوناً للآخر ، وناصراً له ، فأولئك تبيض وجوههم وتتألأأ بهجة وسروراً حين تظهر لهم آثار اتفاقهم واعتصامهم ، بوجود السلطان والعزة والشرف ، وارتفاع المكانة بين الأمم .

ثم فصل سبحانه أحوال الفريقين فقال :

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) أى وأما الذين تفرقوا واختلفوا فاسودت وجوههم فيقال لهم هذا القول فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فلا بد أن يوجد فى الناس من يقول للأمة التى وقع فيها هذا الاختلاف — مثل هذا القول تغليظاً لها لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين ، وأما فى الآخرة فيؤنبخهم الله تعالى بمثل هذا السؤال .

وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين فى الدين من الكفار والمشركين كما جاء فى قوله : « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » .

كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقية من الكفر ، لأن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، وهو ذو شعب كثيرة من أجتها تحرى العدل ، واجتناب الظلم ، فمن استرسل فى الظلم كان كافراً كما قال تعالى : « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . وكذلك من ترك الاتحاد والوفاق والاعتصام بحبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان .

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى وأما الذين ابيضت وجوههم باتحاد الكلمة ، وعدم التفرق فيكونون فى الدنيا خالدين فى النعمة ما داموا على تلك الحال ، وخلودهم فى الرحمة فى الآخرة أظهر .

(تلك آيات الله نتاوها عليك بالحق) أى هذه الآيات نتلوها عليك مقررّة . ما هو الحق الذى لا مجال للشبهة فيه ، فلا عذر لمن ذهب فى الدين مذاهب شتى ، واتبع سنن السابقين ، وجعل القرآن عضين .

فعلينا أن نستمسك بما به أمر ووعد عليه بالفوز والنجاح ، ونترك ما عنه نهى

وأوعده عليه بالعذاب الأليم ، حتى نكون أمة متفقة المقاصد ، متحدة في الدين فنجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة .

(وما الله يريد ظلماً للعالمين) أى إن كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه فإنما يريد به هدايتهم إلى ما يكمل فطرتهم ، ويتم به نظام جماعتهم ، فإذا هم فسقوا عن أمره حل بهم البلاء وكانوا هم الظالمين لأنفسهم ، بتفرقهم واختلافهم ، إلى نحو ذلك من الذنوب التى تفسد نظم المجتمع وتجعل أهله فى شقاء .

ولا يحل عذاب بأمة إلا بذنب فشا فيها فزحزحها عن الصراط المستقيم كما قال : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » . ثم ذكر ما هو كالبهرهان لنفى الظلم عنه تعالى فقال :

(والله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور) أى إنه تعالى مالك العباد والمتصرف فى شؤونهم على حسب سننه الحكيمة التى لا تغير فيها ولا تبدل كما قال : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » وليس من أسباب ملكه شىء ناقص يحتاج إلى تمام فيتممه بظلم غيره . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولأن الظلم يناقى الحكمة والكمال فى النظام وفى التشريع .

ومن حمل عبده أو دوابه ما لا تطيق يقال إنه ظلمها ، ومن نقص امرأ حقها فقد ظلمه قال تعالى : « كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُ أَكْثَرُهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا » . وعلى الجملة — فانظلم الذى ينفى عنه تعالى عن نفسه هو ما ينافى مصلحة العباد وهدايتهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وبعبارة أخرى هو ما يخالف النظام والإحكام .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدْنَى ، وَإِنْ

يَقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُواكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ
 أَيَّمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ
 وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

شرح المفردات

كنتم : أى وجدتم وخلقتم ، أخرجت : أى أظهرت حتى تميزت وعرفت ، والأذى
 الضرر اليسير ، يولوكم الأذبار أى ينهبكم ، والذلة هى الذل الذى يحدث فى النفوس من
 فقد السلطة ، وضربها عليهم هو إلصاقها بهم وظهور أثرها فيهم ، كما يكون من
 ضرب السكة بما ينقش فيها ، وثقفوا وجدوا ، والحبل العهد ، وباءوا أى لبثوا وحلوا
 فيه من البوء وهو المكان ، ومنه تبوأ فلان منزل كذا وبوآته إياه ، والاعتداء
 تجاوز الحد .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بالاعتصام بحبله ، وذكرهم بنعمته عليهم ، بتأليف قلوبهم
 بأخوة الإسلام ، وحذّره من أن يكونوا مثل أهل الكتاب فى التمرّد والعصيان ،
 وتوعد على ذلك بالعذاب الأليم ، واستطرد بين ذلك بذكر من يبيض وجهه ومن
 يسود ، وبذكر شئ من أحوال الآخرة .

أردف ذلك بذكر فضل المتأخين فى دينه ، المعتصمين بحبله ، ليكون هذا باعثاً
 لهم على الانقياد والطاعة ، إذ كونهم خير الأمم مما يقوى داعيتهم فى ألا يفوتوا على
 أنفسهم هذه المزية ، وإنما يكون ذلك بالحفاظة على اتباع الأوامر وترك النواهي .

الإيضاح

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) أى أتمم خير أمة فى الوجود الآن ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون إيماناً صادقاً يظهر أثره فى نفوسكم ، فيزعمكم عن الشر ، ويصرفكم إلى الخير ، وغيركم من الأمم قد غلب عليهم الشر والفساد ، فلا يأمرن بالمعروف ، ولا ينهون عن المنكر ، ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً .

وهذا الوصف يصدق على الذين خطبوا به أولاً وهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين كانوا معه وقت التنزيل ، فهم الذين كانوا أعداء ، فألف بين قلوبهم ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ، وكانوا يأمرن بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يخاف ضعيفهم قويهم ، ولا يهاب صغيرهم كبيرهم ، وملك الإيمان قلوبهم ومشاعرهم ، فكانوا مسخرين لأغراضه فى جميع أحوالهم .

وهذا الإيمان هو الذى قال الله فى أهله « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » وقال فيهم أيضاً « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما تركتهما إلا باستبداد الملوك والأمراء من بنى أمية ومن حدا حذوهم .

وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية عبد الملك بن مرزبان حين قال على المنبر : من قال لى اتق الله ضربت عنقه .

وما زال الشر يزدد ، والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل ما لها من مزية فى دينها ودنياها بعد الإيمان ، وهى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومما سلف تعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبب الفضيلة ، كما تقول محمد كريم ، يطعم الناس ويكسوهم ، ويعني بشئونهم .

وهذه الصفات وإن شاركتها فيها سائر الأمم ، فهي لم تكن فيها على الوجه الذي لهذه الأمة ، فالأمر بالمعروف كان فيها على أكده وجوهه وهو القتال إذا دعت إليه الحاجة ، وقد يحصل بالقلب واللسان ، ولكن أقوا ما كان بالقتال لأنه إلقاء للنفس في خطر الهلاك .

وأعظم المعروفات الدين الحق ، والإيمان بالتوحيد والنبوة ، وأنكر المنكرات الكفر بالله ، ومن ثم كان فرض الجهاد في الدين يحمل الإنسان أعظم المضار لا يصل غيره إلى أعظم المنافع ، وتخليصه من أعظم الشرور ، لهذا كان عبادة من العبادات ، بل كان أجلها وأعظمها ، وهو في ديننا أقوى منه في سائر الأديان .

لاجرم كان ذلك موجبا لفضل هذه الأمة على سائر الأمم ، وهذا ما عناه ابن عباس بقوله في تفسير هذه الآية أي تأمروهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويقولوا بما أنزل الله ، وتقاتلونهم عليه ، ولا إله إلا الله أعظم المعروف ، والتكذيب أنكر المنكرات .

والخلاصة — أن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة ، فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية ، ومن ثم أكد الأمر بهذه الفريضة في آيات هذه السورة بما لم يعرف له نظير في الكتب السابقة .

وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر ، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأنهما سياج الإيمان وحفظه ، فكان تقديمهما في الذكر موافقا للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدما عليه .

(ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) أي ولو آمنوا إيمانا صحيحا يستولى على النفوس ، ويمك أزممة القلوب ، فيكون مصدر الفضائل والأخلاق الحسنة ، كما يؤمنون — لكان ذلك خيرا لهم مما يدعونهم من إيمان لا يزع النفوس عن

الشرور ، ولا يبعدها عن الرذائل ، إذ هو لم يؤت ثمرات الإيمان الصحيح الذى يحبه الله ورسوله ، ولا كان أثرا من آثاره الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر .

وبهذا تعلم أن الإيمان المنفى عنهم إيمان خاص له تلك الآثار التى تقدمت ، لا الإيمان الذى يدعيه كل من له دين وكتاب ، كما أنه إنما نفاه عن أكثر أفراد الأمة ، وأنهم هم الذين فسقوا وخرجوا عن حقيقة الدين ، ولم يبق عندهم إلا بعض الرسوم والتقاليد الظاهرة — لا عن جميعها ، إذ لا تخلو أمة ذات دين سماوى من هذا الإيمان ، ومن ثم قال :

(منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) أى منهم المؤمنون المخلصون فى عقائدهم وأعمالهم كعبد الله بن سلام ورهطه من اليهود ، والنجاشى ورهطه من النصارى ، وأكثرهم فاسقون عن دينهم متمردون فى الكفر .

وما من دين إلا يوجد فيه الغالون والمعتدلون والمفرطون المائنون إلى الفسوق والعصيان .

ويكثر الاستمسك بالدين فى أوائل ظهوره ، كما يكثر الفسق بعد طول الأمد عليه ، كما قال تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَكَفَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

ولم يحكم الدين على أمة حكما عاما بالفسق والضلال ، بل تارة يعبر بانكثير ، وأخرى بالأكثر كقوله فى بنى إسرائيل « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَبِيلًا » وقوله فى النصارى واليهود « مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ » .

وعلى الجملة فالقرآن إذا عرض لوصف الأمم وبيان عقائدها وأخلاقيها ، وزن ذلك بميزان دقيق يتحرى فيه ذكر الحقيقة مجردة عن كل مغالاة أو مبالغة بما لم يعهد مثله فى كتاب آخر .

فلو تصفحنا الأحكام التي حكم بها على أهل الكتاب ، وعرضناها على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم لقالوا إنها الحق الصراح .

(لن يضروكم إلا أذى) أى إن هؤلاء الفاسقين لا يقدرّون على إيقاع الضرر بكم بل غاية جهدهم أن يؤذوكم بالهجو القبيح ، والطعن في الدين ، وإلقاء الشبهات وتحريف النصوص ، والخنوص في النبي صلى الله عليه وسلم .

(وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) أى وإن يقابلوكم في ميدان القتال ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء ، والمنهزم من شأنه أن يحول ظهره إلى جهة مقاتله ويستدبره في هربه منه ، فيكون قفاه إلى وجهه من انهزم منه .

(ثم لا ينصرون) أى ثم إنهم لا ينصرون عليكم أبداً ماداموا على فسقهم ، ودمتم على خير يتكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وؤمنون بالله .

وفي الآية ثلاث بشارات من أخبار الغيب تحققت كلها ، وقد صدق الله وعده .

ومما سبق تعلم أن هذا الحكم إنما يثبت لهم إذا حافظوا على نصر الدين بنصر دينه كما قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » وكما قال في وصف المؤمنين المجاهدين « الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ » .

(ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أى إنهم ألزمو الذلة فلا خلاص لهم منها ، فخالهم معهم أنهم أذلاء مهضومو الحقوق رغم أنوفهم ، إلا بعهد من الله وهو ما قرّرتة الشريعة إذا دخلوا في حكمها من المساواة في الحقوق والقضاء وتحريم الإيذاء ، وعهد من الناس وهو ما تقتضيه المشاركة في المعيشة ، من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم في بعض الأمور ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحسن معاملتهم ويقترض منهم ، وكذلك الخلفاء الراشدون .

والخلاصة — أن هؤلاء لا عزة لهم في أنفسهم ، لأن السلطان والملك قد فقدوا

منهم ، وإنما تأثيهم العزة من غيرهم بهذين العهدين ، العهد الذى قرره الله . والعهد الذى تواطأ عليه الناس .

(وباءوا بغضب من الله) أى وصاروا مستحقين غضب الله مستوجبين سخطه ، وأحاطت بهم المسكنة والصغار . فيهم تابعون لغيرهم يؤدون ما يضرب عليهم من المال وادعين ساكنين .

وهذا الوصف صادق على اليهود إلى اليوم فى كل بقاع الأرض .

وقد ارتفع الذل عنهم فى بلاد الإسلام بحبل من الله وهو ما ذكرناه فيما سلف من وجوب معاملتهم بالمساواة واحترام دماهم وأعراضهم وأموالهم والتزام حمايتهم والذود عنهم بعد إنقاذهم من ظلم حكامهم السابقين . وبحبل من الناس كما تقدم بيانه .

وأما ارتفاع المسكنة بأن يكون لهم ملك وسلطان يوما ما ، فالقرآن ينفيه عنهم ، لأنه لم يستثن من ذلك شيئا ، كما استثنى فى الذلة ، فاقضى بقاء ذلك عليهم إلى الأبد لكنهم يقولون إنهم مبشرون بظهور مسيح (مسيا) فيهم ومعناه ذو الملك والشرعية ، والنصارى يقولون : إن هذا الموعود به هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، والمراد بالملك الملك الروحانى .

والشاهد أنهم متفرقون فى أقطار الأرض على قناتهم ، منصرفون عن فنون الحرب وأعمالها ، بعيدون عن الزراعة ومتعلقاتها ، لعنايتهم بجمع المال من أيسر سبله ، وأكثرها نماء ، وأقلها تعباً وعناء . وهو الربا .

وقد ذكر الله سبب ذلك وعلمته فقال :

(ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق) أى ذلك الذى ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم للغضب الإلهى بسبب كفرهم ، وقتلهم النبيين بغير حق تعطيلهم إياه شريعته .

وفى النص على أن ذلك بغير حق مع أنه لن يكون إلا كذلك تشنيع عليهم ،

وإنبات لأن ذلك حدث عن عمد لا عن خطأ ، ثم أشار إلى سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع فقال :

(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى أنه ما جرأهم على ذلك إلا سبق المعاصى ، واعتداؤهم على حدود الله ، والاستمرار على الصغائر يفضى إلى الوقوع فى الكبائر . فمن جعلها ديدناً له واتخذها عادة وصل به ذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء المرشدين . وقتل الأنبياء وإن كان لم يصدر من اليهود الذين كانوا فى عصر التنزيل ، بل كان من أسلافهم ، لكنهم لما كانوا راضين به مصوِّبين من نسب إليهم ، إذ صار خلقاً لهم يتوارثه الخلف عن السلف ، والأبناء عن الآباء . والأمم متكافئة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيهم ، وإن ظهر بعض آثاره فى زمن دون آخر .

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، يُؤْتُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

شرح المفردات

يقال فلان وفلان سواء أى متساويان ، ويستعمل للواحد والمثنى والجمع فيقال هما سواء وهم سواء ، وقائمة أى مستقيمة عادلة من قولك أتمت العود ققام أى استقام ، والتلاوة القراءة وأصلها الإتياع ، فكأنها إتياع اللفظ اللفظ ، وآيات الله هى القرآن ، والآناء الساعات واحدها أنى كعصا أو أنى كطى أو إنو كجرو ، ويسجدون أى يصلون ، والمسارة فى الخير فرط الرغبة فيه ، فلن يكفروه أى يمنعوا ثوابه .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه أهل الكتاب فيما تقدم بذم الصفات ، وقبيح الأعمال وذكر الجزاء الذى استحقوه بسوء عملهم ، أعقبه ببيان أنهم ليسوا جميعاً على تلك الشاكلة ، بل فيهم من هو متعفف بحميد الخلال وجميل الصفات .

الإيضاح

(ليسوا سواء) أى ليس أهل الكتاب متساوين فى تلك الصفات التبيحة ، بل منهم المؤمنون وأكثرتهم الفاسقون ، وهذه الجملة كاللأ كيد لتلك .

وبعد أن وصف الفاسقين وذكر سوء عملهم بين وصف المؤمنين ومدحهم بثمانية أوصاف كل منها منقبة ومفخرة يستحق فاعلها الثواب عليها .

١ - (من أهل الكتاب أمة فائمة ! أى منهم جماعة مستقيمة على الحق ، متبعة للعدل ، لا تنظم أحداً ، ولا تخالف أمر الدين ، وكان من تمام الكلام أن يقال ومنهم أمة مذمومة ، إلا أن العرب قد تذكر أحد الضدين وتستغنى به عن ذكر الآخر كما قال الشاعر :

دعاني إليها القلب إنى لأمرها مطيع فما أدرى أرشد طلائعها
يريد أم غى .

وهذه الجملة مدينة لعدم التساوى مزيلة لإيهامه .

والمراد بهذه الأمة جماعة من اليهود أسلموا كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأُسَيد بن عبيد وأضرابهم كما رواه ابن جرير عن ابن عباس ، وقال فى تفسير الآية : الأمة القائمة أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . وروى عن قتادة أنه كان يقول فى الآية : ليس كل القوم هلك ، قد كان لله فيهم بقية .

وهذه الآية حجة على أن دين الله واحد على السنة جميع الأنبياء ، وأن من أخذه مذعناً ، وعمل به مخلصاً ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر فهو من الصالحين . كما أن فيها استتالة لأهل الكتاب ، وتقديراً للعدل الإلهي ، وقطعاً لاحتجاج من يعرفون الإيمان والإخلاص ، إذ لولا هذا النص لكان لهم أن يقولوا : لو كان هذا القرآن من عند الله لما ساوانا بغيرنا من الفاسقين .

واستقامة بعضهم على الحق من دينهم لا ينافي ضياع بعض كتبهم ، وتحريف بعضهم لما في أيديهم منها ، ألا ترى أن من يحفظ بعض الأحاديث ويعمل بما علم ، ويستمسك به مخلصاً فيه — يقال إنه قائم بالسنة عامل بالحديث .

٣،٢ — (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) أى يتلون القرآن بالليل وهم يصلون متعبدين ، وخص السجود بالذكر من بين أركان الصلاة لدلالته على كمال الخضوع والخشوع .

٥،٤ — (يؤمنون بالله واليوم الآخر) أى يؤمنون إيمان إذعان بهما على الوجه المقبول عند الله ، ومن ثمرات ذلك الخشية والخضوع والاستعداد لذلك اليوم ، لا إيماناً لاحظ لصاحبه منه إلا الغرور والدعوى ، كما هو حال سائر اليهود ، إذ يؤمنون بالله واليوم الآخر ، لكنه إيمان هو والعدم سواء ، لأنهم يقولون عزير ابن الله ، ويكفرون ببعض الرسل ويصفون اليوم الآخر بخلاف صفته .

ولما كان كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته ، والخير للعمل به ، وكان أفضل الأعمال الصلاة ، وأفضل الأذكار ذكر الله ، وأفضل العوالم معرفة المبدأ والمعاد — وصفهم الله بقوله : (يتنون آيات الله) للدلالة على أنهم يعملون صالح الأعمال ، وبقوله : (يؤمنون بالله) للإشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم .

٦ — (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أى أنهم بعد أن كملوا أنفسهم علماً وعملاً كما تقدم ، يسعون في تكميل غيرهم إما بإرشادهم إلى ما ينبغى بأمرهم بالمعروف ، أو بمنعهم عما لا ينبغى بالنهي عن المنكر .

وفى هذا تعريض باليهود المداهنين الصادّين عن سبيل الله .

٧— (ويسارعون فى الخيرات) أى يعملون صالح الأعمال راغبين فيها غير متشاكليين ، علماً منهم بجلالة موقعها ، وحسن عاقبتها ، وإنما يتباطأ الذين فى قلوبهم مرض كما وصف الله المنافقين بقوله : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ » .

وهذه الصفة جماع الفضائل الدينية والخلقية ، وفى ذكرها تعريض باليهود الذين يتشاكلون عن ذلك .

وعبر بالسرعة ولم يعبر بالعجلة ، لأن الأولى التقدم فيما ينبغى تقديمه وهى محمودة ، وضدها الإبطاء ، والثانية التقدم فيما لا ينبغى أن يتقدم فيه ، ومن ثم قال عليه السلام « العجلة من الشيطان ، والتأنى من الرحمن » : وضدها الأناة وهى محمودة .

٨— (وأولئك من الصالحين) أى وهؤلاء الذين اتصفوا بجليل الصفات من الذين صلحت أحوالهم ، وحسنت أعمالهم ، فرضيهم ربهم ، وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا فيمن أسلم منهم : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره .

والوصف بالصالح هو غاية المدح . ونهاية الشرف والفضل ، فقد مدح الله به أكبر الأنبياء كإسماعيل وإدريس وذى الكفل فقال : « وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ » وقال حكاية عن سليمان : « وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

ولأنه ضد الفساد وهو ما لا ينبغى فى العقائد والأفعال ، فهو حصول ما ينبغى فى كل منهما ، وذلك منتهى الكمال ورفعة القدر وعلو الشأن .

(وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) أى وما يفعلوا من الطاعات فلن يحرموا ثوابه ولن يستر عنهم كأنه غير موجود .

ولما سمى الله إنايته للمحسنين شكراً فى قوله : « فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »

وسمى نفسه شاكرًا في قوله : « فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » حسن أن يعبر عن عدم الإثابة بالكفر .

وهذه الجملة جاءت ردا على اليهود الذين قالوا لمن أسلم منهم : أنتم خسرتم بسبب هذا الإيمان ، وإشارة إلى أنهم فازوا بالسعادة العظمى ، والدرجات العليا .

وفيها تعظيم لهم نيزيل من صدورهم أثر كلام أولئك الأوغاد .

(والله عليم بالمتقين) فهو يجزى العاملين على حسب ما يعلم من أحوالهم ، وما تنطوى عليه سرائرهم .

فمن كان إيمانه صحيحا واثقا بالله فاز بالسعادة .

وهذا كالدليل على ما قبله ، لأن عدم الإثابة إما للسهو والنسيان ، وإما للجهل وذلك ممتنع في حقه ، لأنه عليم بكل شيء ، وإما للعجز أو البخل أو الحاجة ، وذلك محال عليه ، لأنه خالق جميع الكائنات ، وهو القادر على كل شيء .
ولما انتفى كل هذا كان المنع من الجزاء محالا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

شرح المفردات

تغنى أى تجزى وتنفع ، ومثل الشيء مثله وشبهه ، والصر (بالكسر) والصرة البرد الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه في سلف أحوال الكافرين ، وما يحيق بهم من العقاب ، وأحوال المؤمنين وما أعد لهم من الثواب ، جامعاً بين الزجر والترغيب ، والوعيد والوعيد ، ثم وصف من آمن من الكفار بتلك الخلال الحسنة والمفاخر التي عددها لهم — أتبع ذلك بوعيد الكفار وتئيسهم بأنهم لن يجدوا يوم القيامة ما يدفع عنهم عذابه ، ثم أردفه ببيان أن ما ينفقونه في هذه الحياة الدنيا في لذاتهم وجاههم وتأيد كلمتهم لا يفيدهم شيئاً كزرع أصابته ريح فيها صرّ فأهلكته ، فلم يستفد أصحابه منه شيئاً .

الإيضاح

(إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) أى إن الذين كفروا من أهل الكتاب ومشركى مكة وغيرهم ممن كانوا يعيرون النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه بالفقر ، ويقولون : لو كان محمد على الحق ما تركه ربه في هذا الفقر الشديد . ويتفاخرون بكثرة الأموال والأولاد كما حكى الله عنهم « نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » لن نفعهم هذه الأموال والأولاد يوم القيامة ، واقتصر على ذكرهما ، لأنهما من أعظم النعم ، ومن كان يرتع في بجموحة هذه النعم فقلمما يوجه نظره إلى طلب الحق ، أو يصغى إلى الداعى إليه ، ومن ثم تراه يتخبط في ظلام دامس حتى يتردى في الهاوية ، ويقع في المهالك ، ولا ينفعه مال ولا ولد « يَوْمَ تَذْهَبُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ » ، يوم يوضع الميزان ويحاسب كل امرئ على النقيير والقطمير .

ونحو الآية قوله : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » وقوله : « فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ » وقوله : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى » .

(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى أولئك الملازمون للنار لا ينفكون عنها ، لأن ظلمة أرواحهم ، وفساد عقائدهم ، وسوء أعمالهم ، اقتضت خلودهم فى تلك الهاوية المظلمة المستعرة التى وقودها الناس والحجارة ، قد أعدت لكل من جحد بآيات ربه ، وأعرض عن دعوة أنبيائه ورسله ، ولم يصنع إلا لداعى الهوى والشهوات . وبعد أن أبان أن أموالهم لا تغنى عنهم شيئاً ، ذكر أن ما ينفقونه من المال فى سبيل الخير لا يجديهم ليزيل ما رجا علق بالبال من أنهم ينفعون به وضرب لذلك مثلاً فقال :

(مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) أى إن ما ينفقونه فى اللذات ، ونشر الصيت ، واكتساب الشهرة ، وتأيد الكلمة ، فيصدّهم عن سبيل الله ، ويفسد عقولهم وأخلاقهم التى هى عماد المنافع كمثل ريح باردة أصابت حرث قوم فأهلكته .

وخلاصة ذلك — أن حالهم فيما ينفقون وإن كان فى الخير كحال الريح الشديدة البرد التى تهلك الزرع ، فهؤلاء لا يستفيدون من نفقتهم شيئاً ، كما أن أصحاب ذلك الزرع كذلك .

فهم إذا أنفقوا أموالهم فى بناء الحصون والقلاع لصد العدو ، وإقامة القناطر لحفظ المياه وأمن الطريق ، وفى الإحسان إلى الضعفاء واليتامى وذوى الحاجات ، ورجوا من ذلك الثواب الجزيل ، ثم قدموا إلى الآخرة ورأوا كفرهم قد أبطل آثار ذلك الخير ، كانوا كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعاً كثيراً ، فأصابته ريح فأحرقته ، فلا يبقى له إلا الحسرة والندامة ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا سَمَّوْا مِنْ عَمَلٍ جَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً » وقوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً » .

وجامع هذا كله قوله : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » .

ومما سلف تعلم أن هذا المثل ضرب لخيبتهم فى الآخرة ، وليس بالبعيد أن يكون أيضاً مثلاً لخيبتهم فى الدنيا .

ذاك أنهم أفقوا الأموال الكثيرة فى جمع العساكر ، وتحملوا المشاق ، ثم انقلب الأمر عليهم ، فأظهر الله الإسلام وقواه ، فلم يبق للكفار من ذلك الإنفاق إلا الخيبة والحسرة .

وقد جعل الله هذا الحرث لقوم ظلموا أنفسهم ، لإفادة أن المنفقين لا يستفيدون منه شيئاً ، إذ حرث الكافرين الظالمين هو الذى يذهب بلا منفعة فى الدنيا ولا فى الآخرة .

أما حرث المسلم المؤمن فهو وإن ذهب حساً فهو لا يذهب معنى ، لما فيه من الثواب بالصبر على ما يصيبه من النكبات والأحزان .

والخلاصة — أن الجوائح قد تنزل بأموال الناس من حرث ونسل عقوبة لهم على ذنوب اقترفوها ، إذ لا يستنكر على القادر الحكيم الذى وضع السنن وربط الأسباب بمسبباتها فى عالم الحس ، أن يوفق بينها وبين سننه الخفية فى إقامة ميزان القسط بين الناس ، لهدايتهم إلى مابه كما لهم من طريق العلوم الحسية التى تستفاد من النظر والتجربة ، ومن طريق الإيمان بالغيب الذى يرشد إليه الوحي الإلهى .

ونحن نسمى ما يترتب عليه حدوث الشئ سبباً له ، وما يلبس السبب من النفع لبعض والضرر لآخرين حكمة له ، وكل ذلك مقصود للفاعل الحكيم .

(وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمهم الله بعدم انتفاعهم بنفقاتهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم بإنفاق الأموال فى السبل التى تؤدى إلى الخيبة والحسران على النهج الذى سنه الله فى أعمال الإنسان .

والآية نزلت فيما كان ينفقه أهل مكة ، أو ينفقه اليهود فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ومقاومته ، لأنهم هم الذين اختاروا ذلك لأنفسهم ، ولم يضرؤا النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ، بل كان ذلك سبب سيادته عليهم ، وتمكنه منهم .

وقيل إنها نزلت فيما كان ينفقه المنافقون في بعض طرق البر رياءً وسمعة أو تقية .
وقيل إن المثل ينطبق على الكافرين الذين ينفقون أموالهم في طرق البر رغبة
في الخير ، لأن شرط الثواب على تلك الأعمال الإيمان ، وقد ظلموا أنفسهم بترك
النظر في الدلائل بعد ما ظهرت ، أو بالجحود بعد النظر وإقامة الحجة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَآأَنْتُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ
وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا الْقَوْمُ قَالَُوا آمَنَّا ، وَإِذَا
خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأُتَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسْمُرْهُمْ ، وَإِنْ
تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

شرح المفردات

بطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره ، مأخوذة من بطانة الثوب للوجه
الذى يلي البدن ، ويسمى الوجه الظاهر ظهارة ، وهى تستعمل للواحد والجمع مذكراً
ومؤنثاً ، ومن دونكم أى من غيركم ، ويألونكم من ألا فى الأمر يألو إذا قصر فيه ،
ويقال لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهداً أى لا أمتنع نصحاً ، ولا أمتصك
جهداً ، والخبال نقصان ، ومنه رجل مخبول ومخبل ومختبل إذا كان ناقص العقل ،
والفساد ، ومنه قوله تعالى : « لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا » أى فساداً

وضرراً ، ووددت كذا أى أحببته ، والعنت المشقة ، والبغضاء شدة البغض كالضراء
 شدة الضر ، والكتاب هنا المراد به جنس الكتب كما يقال كثر الدرهم فى أيدي
 الناس ، وعض الأنامل يراد به شدة الغيظ أحياناً ، كما يراد به الندم أحياناً أخرى ،
 وذات الصدور الخواطر القائمة بالقلب ، والدواعى التى تدعو إلى الأفعال ، أو الصوارف
 التى تدفعها عنه ، ولمس أصله ما كان باليد كاللمس ، ثم سمي كل ما يصل إلى الشئ
 مساً ، فقالوا من التعب والنصب قال تعالى : « وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » وقال :
 « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ » والحسنة المنفعة حسية كانت أو معنوية كصحة
 البدن والفوز بالغنيمة ، وأعظمها انتشار الإسلام وحصول الألفة بين المسلمين والسيئة
 الفقر والهزيمة وحصول التفرقة بين الأقارب ، من ساء يسوء بمعنى قبح فهو سىء
 والأشئ سيئة قال تعالى : « سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » والسكيد الاحتيال لإيقاع غيرك
 فى مكروه ، والحيط بأشئ هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، ويراد به فى حق الله
 العلم بدقائقه وتفصيل أجزائه ، فلا يعزب عنه شئ منه ، قال تعالى : « وَاللَّهُ مِنْ
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ » وقال : « وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » .

المعنى الجملى

كانت الآيات السالفة حجاجاً مع أهل الكتاب والمشركين ، ولزامهم بالحجة ،
 وبيناً لأحوال المؤمنين ، وتذكيراً لهم بما يكون من سوء العاقبة يوم القيامة ، يوم
 تبيض وجوه وتسود وجوه .

والكلام فى هذه الآيات تحذير للمؤمنين من مخالطة الكافرين مخالطة تدعو إلى
 الإباحة بالأسرار ، والاطلاع على شئون المسلمين ، مما تقضى المصلحة بكتماؤه ، وعدم
 معرفة الأعداء له .

ومما دعا إلى هذا النهى أنه كانت بين المؤمنين وغيرهم صلات خاصة تدعو إلى
 الإباحة بالأسرار إليهم كالنسب والمصاهرة والرضاعة والعهد والمخالفة — إلى أن من

طبيعة المؤمن أن يبنى أمره على السر والأمانة والصدق ، ولا يبحث عن عيوب غيره . ولكن لما كان همّ المناصبين من أهل الكتاب والمشرّكين إطفاء نور الدعوة ، وإبطال ما جاء به الإسلام ، والمسلمون لم يكن لهم غرض إلا نشر هذه الدعوة . بسائر الوجوه التي يرونها كفيلة بإعلاء كلمة الدين — اختلف المقصدان ، وافترق الغرضان ، فلم يكن من الحزم أن يفضي الإنسان بسره إلى عدوه ، ويطلعه على خططه التي يدبرها للفوز ببعيته على أكمل الوجوه وأحكمها ، وأقربها للوصول إلى الغرض ، ومن ثمّ حذر الله المؤمنين من اطلاع أعدائهم على أسرارهم ، لما في ذلك من تعريض مصلحة الملة للخبال والفساد .

أخرج ابن إسحق وغيره عن ابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والخلف في الجاهلية فأنزل الله فيهم هذه الآية ينهاهم عن مبايعتهم خوف الفتنة .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالاً ، ودّوا ما عنتم قد بددت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر) أى لا تتخذوا أيها المؤمنون الكافرين كاليهود والمنافقين أولياء وخواص لكم دون المؤمنين ، إذا كانوا على تلك الأوصاف التي ذكرت في هذه الآية :

(١) أنهم لا يألونكم خبالاً أى لا يقصرون في مضرّكم وإفساد الأمر عليكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

(٢) أن يتمنوا ضرّكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر .

(٣) أن يبدوا البغضاء بأفواههم ، ويظهروا تكذيب نبيكم وكتابكم ، وينسبواكم إلى الحق والجهل ، ومن اعتقد حق غيره وجهله لا يحبه .

(٤) أن يكون الذى يظهر على لسانهم من علامات الحقد أقل مما في قلوبهم منه .

فهذه الأوصاف شروط فى النهى عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين ، فإذا اعتراها تغير وتبدل كما وقع من اليهود ، فبعد أن كانوا فى صدر الإسلام أشد الناس عداوة للذين آمنوا - انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين فى فتوح الأندلس ، وكما وقع من القبط إذ صاروا عوناً للمسلمين على الروم فى فتح مصر - فلا يمانع حينئذ من اتخاذهم أولياء و بطانة للمسلمين فقد جعل عمر بن الخطاب رجال دواوينه من الروم ، وجرى الخلفاء من بعده على ذلك ، إلى أن نقل عبد الملك بن مروان الدواوين من الرومية إلى العربية .

وعلى هذه السنة جرى العباسيون وغيرهم من مائكة المسلمين فى نوط أعمال الدولة باليهود والنصارى حتى العصر الحاضر ، فإن كثيراً من سفراء الدولة العثمانية ووكلائها من النصارى ،

ومع كل هذا يرمينا الأجانب بالتعصب ، ويقولون : إن الإسلام لا تساهل فيه وهذا النهى المقيد بتلك الأوصاف شبيه بالنهى عن اتخاذ الكفار أنصاراً وأولياء فى قوله : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

(قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) أى قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحة التى يتميز بها الولى من العدو ، ومن يصح أن يتخذ بطانة ، ومن لا يصح أن يتخذ خيائته ، وسوء عاقبة مبايعته ، إن كنتم تدركون حقائق هذه الآيات التى تفرق بين الأعداء والأولياء ، وتعلمون قدر مواضع الله وحسن عواقبها .

ثم ذكر نوعاً آخر من التحذير عن مخالطة الكافرين واتخاذهم بطانة ، وفيه تنبيه لهم على خطئهم فى ذلك . وقد ضمنه أمورا ثلاثة كل منها يستدعى الكف عن مخالطتهم .

(١) (هاتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) إى إنكم تحبون هؤلاء الكفار الذين هم أشد الناس عداوة لكم ، ولا يقصرون فى إفساد أمركم ، وتمنى عنكم ويظهرون لكم العداوة والغش ويتربصون بكم ريب المنون ، فكيف بكم توادونهم وتواصلونهم .
وحب المؤمنين هم وهم على تلك الشاكلة من أقوى البراهين على أن هذا الدين دين رحمة وتساهل ، لا يمكن أن يتصور ما هو أعظم منه فى ذلك .

(٢) (وتؤمنون بالكتاب كله) أى إنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من الكتب ، سواء منها ما نزل عليكم وما نزل عليهم ، فليس فى نفوسكم جحد لبعض الكتب الإلهية ، ولا للنبين الذين جاءوا بها ، حتى يحملكم ذلك على بغض أهل الكتاب - أما هم فيجحدون بعض الكتب وينكرون بعض النبين .
وخلاصة هذا - أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابتهم وكتابكم ، فما بالك لو كنتم لا تؤمنون بكتابتهم ، كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أخرى ببغضهم ، ومع هذا تحبونهم ولا يحبونكم .

قال ابن جرير : فى الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين ، أعنى المؤمنين والكافرين ، ورحمة أهل الإيمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم ، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان .

قال قتادة : فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى إليه ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضرأه (أفناه وأهلكه) اه
وفى هذا توبيخ للمؤمنين بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَ كَذِبًا وَيَنْهَوْنَ عَنِ اللَّهِ وَمَا يُؤْمِنُ بِهِ خَافُونَ »
(٣) (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أى وإذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألانوا لهم القول حذرا على أنفسهم منهم ، فقالوا آمنا وصدقنا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا هم صاروا فى خلاء حيث لا يراهم المؤمنون أظهروا شدة العداوة والغليظ منهم ،

حتى ليبلغ الأمر إلى عض الأنامل كما يفعل أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على قوات مطوبه .

وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، وصالح ذات بينهم ، ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلا إلى التشفى منهم ، فاضطروا إلى مداراتهم .

(قل موتوا بغيظكم) هذا دعاء عليهم بازدياد الغيظ حتى يهلكوا ، كقولهم : دم بعز ، وبت قرير عين ونحو ذلك ، والمراد بذلك ازدياد قوة الإسلام وعز أهله . وفي هذا عبرة للمسلمين لعينهم يتذكرون ، فيعلموا أن ما حل بهم من الأرزاء ما كان إلا بزوال هذا الاجتماع ، والتفرق بعد الاعتصام .

(إن الله عليم بذات الصدور) فيعلم ما تنطوى عليه صدوركم من البغضاء والحقد والحسد ، ولا يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم ، وما يبديه بعضكم لبعض من تدبير المكيد ونصب الحيل للمؤمنين ، وما تنطوى عليه صدور المؤمنين من حب الخير والنصح لكم ، ويجازى كلا على ما قدم من خير أو شر ، واعتقد من إيمان أو كفر . (إن تمسك حسنة تسوهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) أى إذا نالكم خير كانتصركم على أعدائكم المقاومين لدعوتكم ، ودخول الناس في دين الله أفواجا أحزنهم ذلك وعز عليهم .

وإن نالكم مساءة كالإخفاق في حرب ، أو إصابة عدو لكم ، أو حدوث اختلاف بين جماعتكم فرحوا بذلك .

قال قتادة في بيان ذلك : فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهوراً على عدوهم ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً ، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذاك ، وأعجبوا به وابتهجوا ، وهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحداثته ، وأوطأ محلته ، وأبطل حجته ، وأظهر عورته ، وذلك قضاء الله فيمن مضى منهم ، وفيمن بقى إلى يوم القيامة .

(وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) أى وإن تصبروا على مشاق التكليف ، فتمثلوا الأوامر ، وتتقوا كل ما نهيتهم عنه وحظر عليكم — ومن ذلك اتخاذ الكافرين بطانة — فلا يضركم كيدهم ، لأنكم قد وفيتهم لله بعهد العبودية ، فهو يفي لكم بحق الربوبية . ويحفظكم من الآفات والخافات كما قال سبحانه : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فاجتهد في اكتساب الفضائل .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الصبر في كل مقام يشق على النفس احتماله ، ولا شك أن حبس الإنسان سره عن وديده وعشيرته ، ومعاملته وقربيه مما يشق عليه ، فإن من لذات النفوس أن تقضى بما في الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به .

ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم من خلطاءهم وعشرائهم وحلفائهم لما بدا منهم من البغضاء والحسد — حسن أن يذكرهم بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم ، وباتقاء ما يجب اتقاؤه للسلامة من عواقب كيدهم .

وفي الآية عبرة للمسلمين في معاملة الأعداء ، فإن الله أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكافرين ، واتقاء شرهم ، ولم يأمرهم بمقاومة الشر بمثله ، إذ من دأب القرآن ألا يأمر إلا بالحبة والخير ، ودفع السيئة بالحسنة كما قال : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

فإن تعذر تحويل العدو إلى محب ، بدفع سيئاته بما هو أحسن منها — جاز دفع السيئة بمثله من غير بغى ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع بني النضير ، فإنه حالفهم ووادهم ففكشوا العهد وخانوا وأعانوا عليه عدوه من قريش وسائر العرب ، وحاولوا قتله ، فلم يكن هناك وسيلة لعلاجهم إلا قتالهم وإجلائهم من ديارهم .

(إن الله بما يعملون محيط) أى إنه تعالى عالم بعمل الفريقين ، ومحيط بأسباب ما يصدر من كل منهما ، ومقدماته ، ونتائجها وغاياتها ، فهو الذى يعتمد على إرشاده

فى معاملة أحدهما للآخر ، ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه ما يعلمه ذلك المحيط بعمله ، وعمل من يناهضه ، ويناصبه العداوة ، فهداية الله للمؤمنين خير وسيلة للوصول إلى أغراضهم ومآربهم .

وهذه الجملة كاملة لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح .
وخلاصة المعنى — إن الله قد دلّكم على ما ينجيكم من كيد أعدائكم ، فعليك أن تمتثلوا وتعموا أنه محيط بأعمالهم ، وهو القادر على أن يمنهم مما يريدون بكم ، فثقوا به ، وتوكلوا عليه .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَرِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَى كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرَى لَكُمْ ، وَلِتُطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

شرح المفردات

غدا خرج غدوة — والغدوة والغداة ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس —
وتبوء أى تهىء وتسوى ، والمقاعد واحدها مقعد مكان التعود والمراد المواطن
والمواقف ، والهلم حديث النفس وتوجهها إلى الشيء ، والطائفتان الجماعتان وهما
بنو ساسمة و بنو حارثة من الأنصار أن تقشلا : أى تضعفا وتجبنا ، وليهما أى ناصرهما ،
والتوكل من وكل فلان أمره إلى فلان إذا اعتمد عليه فى كفايته ولم يتوله بنفسه ،
والأذلة واحدهم ذليل وهو من لامنعة له ولا قوة ، وقد كانوا قليلي العدة من السلاح
والدواب والزاد ، والكفاية سد الحاجة وفوقها الغنى ، والإمداد إعطاء الشيء حالا
بعد حال ، بلى كلمة للجواب كنعم ، لكنها لا تقع إلا بعد النفي وتفيد إثبات ما بعده ،
والفور الحال التى لا ببطء فيها ولا تراخى ، فعنى من فورهم أى من ساعتهم بلا إبطاء ،
ومسومين (بكسر الواو) من قولهم سوّم على القوم أى أغار عليهم ففدك بهم ، وقيل
من التسويم بمعنى إظهار سيماء الشيء وعلامته أى معاملين أنفسهم أو خيلهم ، وطرفا
أى طائفة وقطعة منهم ، ويكبتهم من الكبت وهو شدة الغيظ ، أو الوهن الذى
يقع فى القلب .

استطرد أدعت إليه الحاجة

من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها نزلت فى غزوة أحد ، فوجب ذكر طرف
من أخبار هذه الواقعة ليستعين به القارئ على فهمها ، ويعرف مواقع أخبارها ،
ويستيقن من حكمها وأحكامها .

ولكن عليك أن تعرف قبل هذا ، أن قریشاً اغتاضت من هجرة النبي صلى الله
عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، وحقدوا على أهلها إيوائهم للمسلمين ، وتهددوهم ،
فكان لابد من الاستعداد للدفاع ، وقد صار النبي صلى الله عليه وسلم داعية للدين ،
ورئيساً لحكومة المدينة ، وقائداً لجيشها .

هذا، وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات، بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد في التاريخ، وقد اشترك النبي صلى الله عليه وسلم في تسع منها أشهرها .

وقعة بدر

كانت قریش ترى أن محمداً وأصحابه شِرْذِمَةٌ من الثوار يجب أن تقتل ، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة في المدينة وهي على طريق التجارة إلى الشام ، فجَدَّ المسلمون في مهاجمة قوافل مكة ، ونالوا أول انتصار لهم في السنة الثانية من الهجرة في غزوة بدر - بُرْ بين مكة والمدينة كانت رجل يسمى بدرأ فسميت باسمه وكانت هذه الواقعة نصراً مؤزراً للمسلمين ، وكارثة كبرى على المشركين ، وكان لها دوى عظيم في أرجاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها .

وقعة أحد

أحد جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال

ولما خذل المشركون في وقعة بدر ورجع فلهم إلى مكة مقهورين أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان هو الرئيس بعد مقتل من قتل من صناديد قریش ، فاجتمعوا للحرب وكانوا نحو ثلاثة آلاف ، فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فرس ، وفاندهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه زوجه هند بنت عتبة ، وكان جملة النساء خمس عشرة امرأة ، ومعهن الدفوف يضربن بها ويبيكين على قتلى بدر ، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين ، وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة في شوال سنة ثلاث من الهجرة ، وكان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقام في المدينة وقتلهم بها ، ورأى باقي الصحابة الخروج لقتالهم ، فخرج في ألف من الصحابة ، إلى أن صار بين المدينة وأحد ، فأنخذل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلث الناس ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعب من أحد ، وجعل ظهره إلى الجبل ، وكان عدة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعمائة ،

فيهم مائة دارع ، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين ، وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مصعب بن عمير ، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ، ولواؤهم مع بنى عبد الدار . ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبي سفيان ومعها النسوة يضربن بالدفوف ، وهى تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار ضربا بكل بئار
وقتل حمزة قتلا شديداً ، ولما قتل مصعب بن عمير أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الراية لعلى بن أبي طالب . ولما انهزم المشركون طمعت الرماة فى الغنيمة ، وفارقوا المكان الذى أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بملازمته ، فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين ، ووقع الصراخ أن محمداً قد قتل ، وانكشف المسلمون وأصاب العدو منهم ، وكان يوم بلاء على المسلمين ، وكان عدة الشهداء من المسلمين سبعين رجلاً ، وعدة قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً ، ووصل العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصابته حجارتهم حتى وقع وأصابت رباعيته ، وشجَّ فى وجهه ، وكلمت شفته ، وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وجعل يدعوهم إلى ربهم ، فنزل قوله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » .

ودخلت حلقتان من حاق المعقر فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشجرة ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنية من ثنياته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، وامتنص مالك ابن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ، وطمع فيه المشركون وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منه كما قال « وَاللَّهِ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » وأصاب طلحة يومئذ ضربة شديدة شلت يده ، وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجذعن الأنوف ، وصلمن الأذان ، واتخذن منها قلائد ، وبقرت هند عن كبد حمزة ولاكتها ، ولم تستسفها ، وضرب أبو سفيان شدة حمزة بزج الرمح ، وصعد الجبل ، وصرخ بأعلى صوته ، الحربُ سِجال يوم بيوم بدر ، اعلُّ هُبُل (صنم بالكعبة) أى ظهر دينك .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قولوا له هو بيننا وبينكم ، ثم سار المشركون إلى مكة ، وبحث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمه حمزة فوجده مبقور البطن ، مجدوع الأنف ، مصلوم الأذن ، فقال : لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم ، ثم أمر أن يسجى عمه ببردة ، ثم صلى عليه ، فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحدا بعد واحد حتى صلى عليهم ثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بحمزة فدفن ، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ادفنوهم حيث صرعوا .

إذا علمت ما تقدم سهل عليك فهم هذه الآيات ، وما بعدها مما له صلة بهذه الواقعة الهامة في تاريخ الإسلام ، وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين ، فقد كانت نبراساً لهم في كل حروبهم وأعمالهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده - إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم لها أسوأ ، لآثار ، وأن كل ما حدث فيها إنما جر إليه الطمع في الغنيمة ، وجمع حطام الدنيا ، وهو ظل زائل وعرض مفارق .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفوهم بالعداوة ، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم ، ثم أمرهم بالصبر والتقوى وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً - ذكرهم في هذه الآيات بوقعة أحد ، وما كان فيها من كيد المنافقين ،

إِذْ أَدَّاعُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَالَةِ السُّوءِ مَا أَذَّاعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا مَعَهُمْ ، وَانْشَقُّوا عَنْهُمْ فِي الطَّرِيقِ ، وَرَجَعُوا بِثَلَاثِ الْجَيْشِ ، لِيُوقِعُوا الْفُشْلَ بَيْنَ صَفْوَتِهِمْ وَيُخَذِّلُوهُمْ أَمَامَ عَدُوِّهِمْ وَمَا كَانَ مِنْ كَيْدِ الْمُشْرِكِينَ وَتَأْلِيهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَذَلِكَ مِنْ وَاقٍ إِلَّا الصَّبْرُ حَتَّى عَنْ الْغَنِيمَةِ الَّتِي طَمَعَ فِيهَا الرَّمَاةُ فَتَرَكُوا مَوَاقِعَهُمْ ، وَإِلَّا تَقَوَّى اللَّهُ ، وَمَنْ أَمَّهُمْ دَعَاؤُهَا طَاعَةُ الرَّسُولِ فِيمَا بِهِ أَمْرٌ وَعَنْهُ نَهْيٌ ، وَذَكَرَهُمْ أَيْضًا بِمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ نَصْرِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ عَلَى قَاتِلِهِمْ ، إِذْ جَعَلُوا الصَّبْرَ جُنَّتَهُمْ ، وَتَقَوَّى اللَّهُ عُدَّتَهُمْ ، فَأَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ مَا أَصَابُوا ، وَكَانَ لَهُمُ الْفُلْجُ عَلَيْهِمْ مِمَّا لَا يَزَالُ مَكْتُوبًا فِي صَحِيفَةِ الدَّهْرِ مِثْلًا خَالِدًا لَصَدَقَ الْعَزِيمَةُ ، وَالْبَعْدُ عَنْ مَطَامِعِ هَذِهِ الْحَيَاةِ .

الإيضاح

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) أَيْ وَإِذْ كَرِهَ لَهُمْ أَيْهَا الرُّسُولُ وَقْتُ خُرُوجِكَ مِنْ بَيْتِكَ غَدْوَةً أَوْ غَدْوَةً سَحَرِ يَوْمِ السَّبْتِ سَابِعِ يَوْمٍ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثٍ لِلْهَجْرَةِ ؛ تَهَيَّأَ امْكُنَّةً لِلْقِتَالِ ، مِنْهَا مَوَاضِعٌ لِلرَّمَاةِ ، وَمَوَاضِعٌ لِلْفَرَسَانِ ، وَمَوَاضِعٌ لِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أَيْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ لَكَ فِيمَا شَاوَرْتَهُمْ فِيهِ مِنْ مَوَاضِعَ لِقَائِكَ عَدُوَّكَ وَعَدُوِّهِمْ . كَقَوْلِهِ مِنْ قَالَ : أَخْرِجْ بَنِي إِيلِيهِمْ حَتَّى نَلْقَاهُمْ فِي خَارِجِ الْمَدِينَةِ ، وَقَوْلِهِ مِنْ قَالَ : لَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ وَأَقِمْ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى يَدْخُلُوهَا عَلَيْنَا ، وَلَمَّا تَشِيرُ بِهِ أَنْتَ عَلَيْهِمْ ، عَمِيمٌ بِأَصْلَحِ تِلْكَ الْأَرَاءِ لَكَ وَلَهُمْ ، وَبَنِيَّةُ كُلِّ قَائِلٍ ؛ مَنْ خَلَصَ مِنْهُمْ فِي قَوْلِهِ وَإِنْ أَخْطَأَ فِي رَأْيِهِ كَالْقَائِلِينَ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ لَمْ يَخْلُصْ فِي قَوْلِهِ ؛ وَإِنْ كَانَ صَوَابًا كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَاقِقِينَ .

قال ابن جرير : ضرب الله مثلا أو مثلين على صدق وعده في الآية السابقة «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا» بتذكيرهم بما كان يوم أحد من

وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر (وذنوب الجماعة أو الأمة لا يكون عقابه قاصراً على من اقترفه بل يكون عاماً) وبما كان يوم بدر إذ نصرهم على قتلهم وذلتهم .
(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أى والله سميع عليم حين همت بنو سلمة من الخزرج و بنو حارثة من الأوس ؛ وكانا جناحى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن تضعفا وتجبنا عن القتال حين رأوا انخزال عبد الله بن أبى ومن معه عن رسول الله .

وهذا المهم لم يكن عزيمة ممضاة ، وإنما كانت حديث نفس ؛ وقاما تخلو النفس عند الشدة من بعض الملح ؛ فإن ساعدها صاحبها ذم ؛ وإن ردها إلى الثبات والصبر فلا بأس بما فعل ؛ ومما يدل على أن ذلك المهم لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى .
(والله وليهما) أى متولى أمورها لصدق إيمانها ؛ لذلك صرف الغسل عنهما وثبتهما ؛ فلم يجيها داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع المنافقين ؛ وكانوا نحو ثلث العسكر ؛ بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين ؛ فوثقا به وتوكلا عليه .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى إن المؤمنين ينبغي أن يدفعوا ما يعرض لهم من جزع أو مكروه بالتوكل على الله ؛ لا بحولهم وقوتهم ؛ ولا بأنصارهم وأعوانهم ، بعد أخذ الأهبة والعدة لتحقيقاً لسنن الله فى خلقه ؛ إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات ؛ وهو الخالق للسبب والمسبب ؛ والموجد للصلة بينها .

فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة كما نصر المؤمنين يوم بدر على قلة منهم فى العدد والعدد والسلاح ؛ وفى سائر عتاد الجيش ولذا قال .

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) أى إنكم إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً وينصركم ربكم كما نصركم على أعدائكم وأنتم يومئذ فى قلة من العدد وفى غير منعة من الناس ؛ حتى أظهوركم على عدوكم مع كثرة عددهم وعظيم منعتهم ؛ فأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ ؛ فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم فى ذلك اليوم .

ولا ضير في الذل إذا لم يكن عن قهر من البغاة والظالمين ، ولم يكن المؤمنون بمقهورين ولا بمستذلين من الكفار ، وإنما كانت قوتهم أول تكونها .

(فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أى فاتقوا الله ربكم بطاعته واجتناب محارمه ، لتعدوا أنفسكم لشكره ، على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ، إذ من لم يروّض نفسه بالتقوى يغلب عليه الهوى واتباع الشهوات ، فلا يرجى منه الشكر لأنعم الله بصرفها فيما خلقت لأجله من الحكم والمنافع .

(إذ تقول للمؤمنين) أى ولقد نصركم الله بيدى فى ذلك الحين الذى كنت تقول فيه لهم : ألن يكفيكم الخ .

أخرج ابن أبي شبة وابن المنذر وغيرها عن الشَّعْبِيِّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَلَغَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَنَّ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ الْحَارَبِيَّ يَرِيدُ أَنْ يَمْدَ الْمُشْرِكِينَ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - أَلَّنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يَمْدَكُمْ رَبُّكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَسْوْمِينَ ، فَبَلَغَتْهُ هَزِيمَةُ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَمْدْ أَصْحَابَهُ ، وَلَمْ يَمْدُوا بِالْخَمْسَةِ الْآلَافِ .

(أَلَّنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يَمْدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ) قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير : أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر ، وأنهم قاتلوا الكفار .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر ، وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً لا يقاتلون ولا يضرّون .

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أى بلى يكفيكم ذلك ، ثم وعدهم بالزيادة بشرط الصبر والتقوى حتا لهم عليهما وتقوية لقلوبهم .

أى إن تصبروا على لقاء العدو ومناهضتهم ، وتتقوا معصية الله ، ومخالفة نبيه

صلى الله عليه وسلم ، ويحشكم المشركون من ساعتهم هذه — يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة ، ليعجل نصركم ، ويسهل فتحكم .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا ، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم ، وقد يجوز أن يكون الله أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أن الله أمدهم ، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ، ولا خبر فنسلم لأحد الفريقين قوله :

غير أن فى القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة ، وذلك قوله : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » .

أما فى أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا ، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا وينل منهم ما نيل اه .

والإمداد بالملائكة يصح أن يكون من قبيل الإمداد بالمال الذى يزيد فى قوة القوم ، وأن يكون من الإمداد بالأشخاص الذين ينفع بهم ولو نفعا معنويا ، وذلك أن الملائكة أرواح تلبس النفوس فتتمدها بالإلهامات الصالحات التى تثبتها وتقوى عزيمتها .

(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم) قال الزجاج : وما جعل الله ذكر المدد إلا بشرى اه .

يعنى وما جعل الله ذلك القول الذى قاله الرسول لكم (ألن يكفيكم) الآية .

إلا بشرى يفرح بها روعكم ، وطمأنينة لقلوبكم التي طرقها الخوف من كثرة عدد عدوكم وعظيم استعداده .

وفي هذا إيحاء إلى أن في ذكر الإمداد غايتين .

(١) إدخال السرور في القلوب .

(٢) حصول الطمأنينة ببيان أن معونة الله ونصرته معهم ، فلا يجبنوا عن الحاربة .

(وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) العزيز هو القوى الذي لا يمتنع عليه شيء ، والحكيم هو الذي يدبر الأمور على خير السنن وأقوم الوسائل ، فيهدى لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء ، ويصرفهما عن يشاء .

والمراد — أنه يجب توكلكم على الله لا على الملائكة ، فيجب على العبد ألا يتكل على الأسباب فقط ، بل يقبل على مسبب الأسباب ، إذ هو الذي لا يعجز عن إجابة الدعوات ، فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته ، ولا المعونة إلا من فضله وكرمه .

فإن حصل الإمداد بالملائكة فليس ذلك إلا جزءاً من أسباب النصر ، وهناك أسباب أخرى كاللقاء الرعب في قلوب الأعداء ، ومعرفة المراقع ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ سلك إلى أحد أقرب الطرق وأخفاها على العدو ، وعسكر في أحسن موضع وهو الشعب (الوادي) وجعل ظهر عسكره إلى الجبل ، وجعل الرماة من ورائهم ، إلى نحو ذلك من الأسباب التي تمكنه من الظهور على عدوه ، والغلبة عليه . فلما اختل بعض هذه التدبيرات ، وفات الرماة مواضعهم لم ينتصروا .

والذي عليه أهل العلم أنه لم يحصل يوم أحد إمداد بالملائكة ولا وعد من الله بذلك ، وإنما أخبر عن رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك لأصحابه وجعل الوعد به معلّقاً على شروط ثلاثة :

(١) الصبر . (٢) التقوى . (٣) إتيان الأعداء من فورهم ، ولم تتحقق

هذه الشروط ، فلم يحصل الإمداد ، ولكن القول أفاد البشارة والطمأنينة .

وحصل الإمداد بالفعل فى وقعة بدر كما تقدم ذكره ، وسيأتى مزيد تفصيل له فى سورة الأنفال .

وربما سأل سائل عن الفارق بين اليومين فقال : لم أمد الله المؤمنين يوم بدر بملائكة يثبتون قلوبهم ، وحرهم من ذلك يوم أحد حتى أصاب العدو منهم ما أصاب ! وجوابنا عن هذا أن المؤمنين كانوا يوم بدر فى قلة وذلة من الضعف والحاجة ، فلم يكن لهم اعتماد إلا على الله ، وما وهبهم من قوة فى أبدانهم ونفوسهم ، وما أمرهم به من الثبات والذكر إذ قال : « إِذَا أَقِيمَتْ فِتْنَةٌ فَأَثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

ولم يكن فى نفوسهم تطمع إلى شىء سوى النصر ، وإقامة الدين والدفاع عن حوزته ، فكانت أرواحهم بهذا الإيمان مستعدة لقبول الإلهام من أرواح الملائكة والتقوى بالاتصال بها .

أما فى يوم أحد فقد كان بعضهم فى أول القتال قريباً من الافتتان بما كان من المنافقين ، ومن ثم همت طائفتان منهم أن تفشلا ، ولكن الله ثبتهما وباشرا القتال مع بقية المؤمنين حتى انتصروا وهزموا المشركين ، ثم خرج بعضهم عن التقوى وخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وطمعوا فى الغنيمة وتنازعوا فى الأمر ففشلوا وضعف استعداد أرواحهم ، فلم ترنق إلى الاستمداد من أرواح الملائكة ، فلم يكن لهم منهم مدد .

وحكمة ما حصل تمحيص المؤمنين كما سيأتى فى قوله (وليحص الله) الآية ، وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله تعالى فى ارتباط الأسباب بالمسببات ، ومعرفة أن هذه السنن حاكمة حتى على الرسول ، وأن قتل الرسول أو موته لا ينبغى أن يثبط الهمم ، ولا يدعو إلى الانقلاب على الأعقاب ، وأن كل ما يصيب العباد من مصائب فهو نتيجة عملهم ، وعموية طبيعية على أفعالهم ، إلى نحو ذلك من الأسرار التى ستعلمها بعد .

روى أحمد ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو يوم بدر : اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً — وما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فأنه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ، ثم التزمه من ورائه . ثم قال : يا نبي الله كفك مناشدتك لربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، وأنزل الله يومئذ « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنْتَىٰ يَمِيزُكُمْ » الآية .

(ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين) أى إن المقصود من نصركم بإمداد الملائكة أن يهلك طائفة منهم ، ويخزي طائفة أخرى ويغيظهم بالهزيمة ، فيرجعوا خائبين لا أمل لهم في نصر .

وعبر بالطرف لأنه أقرب إلى المؤمنين من الوسط ، فهو أول ما يوصل إليه من الجيش ، وقد أهلك الله من المشركين طائفة أول الحرب يوم أحد ، قدر عددهم بنحو ثمانية عشر رجلا .

وعبر بالخيبة دون اليأس ، لأن الأولى لا تكون إلا بعد توقع النصر وانتظاره ، والثانية بعده وبدونه ، وضد الخيبة الظفر ، وضد اليأس الرجاء .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها لبيان أن الأمر كله بيد الله فقال : (ليس لك من الأمر شيء) أى ليس إليك أيها الرسول من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري ، وتنتهي فيهم إلى طاعتي ، ثم أمرهم بعد ذلك ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري ، أقضى فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة أو عاجل العذاب بالقتل والنقم أو آجله بما أعددت لأهل الكفر في من العذاب في الآخرة .

(أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) أى ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكتبهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، ليس لك من الأمر شيء .

روى أحمد والبخارى والترمذي والنسائي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد : اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحرث بن هشام ،

اللهم العن سبيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية ، فنزلت هذه الآية فتأب الله عليهم كلهم .

وروى أحمد ومسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت ربايته يوم أحد ، وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفاح قوم فعلوا بنبيهم هذا وهو يدعهم إلى ربهم ، فأنزل الله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) الآية .

وإن لما حدث في وقعة أحد لحكما دينية واجتماعية وحرية يمكن أن نجعلها لك فيما يلي :

كان المؤمنون في وقعة بدر واثقين بنصر الله لنبيه وإظهار دينه ، لم يضعف إيمانهم بذلك قتلهم وضعفهم ، ولا إخراج المشركين للهاجرين من ديارهم وأموالهم ، ولما رأوا تبشير النصر ازدادوا إيمانا بأنهم المنتصرون ، وأن جندهم هم الغالبون ولكن خيل إلى الكثير منهم أن انتصر سيكون بالآيات ، وخوارق العادات ، من غير التزام السنن الإلهية التي جعلها الله في هذا الكون ، وبني عليها نظم الحياة ، وأن وجود الرسول بين ظهرانيهم ، ودعاه ربه واستغاثته إياه أشد نكالا بالعدو من اتباع السنن الظاهرة التي من أهمها التزام النظام العسكري وإطاعة القائد ، وجودة التعبئة ، وحسن الحيلة ، والتدبير في وضع الخطط الحربية ، إلى نحو أولئك .

وفاتهم أن الدين الإسلامي دين انظرة ، لا دين خوارق العادات ، وسلوك طريق المعجزات .

ولما قصرُوا في الأخذ بالأسباب يوم أحد ظهر عليهم عدوهم ، وجرح الرسول ، وإن كان هو لم يقصر ولم ينهزم ، ولكن البلاء إذا نزل لا يخص من كان السبب في وجوده كما قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وكان من هذا درس عظيم للمؤمنين لمسوه بأيديهم وعلموا أن الرسول بشر ليس له من أمر العباد شيء ، وإنما هو معلم وأسوة حسنة فيما يعلم ، والأمر كله لله يدبره بمقتضى سننه في الخلق .

هذا البيان الإلهي في تلك الموقعة التي رأوا نتائجها بأعينهم - برهان ساطع أمام الملأ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ لو كان زعيما سياسيا ، ومؤسسا لبناء مملكة يريد توطيد دعائمها بفتوحه لأطراف البلاد ، لما قال مثل هذا القول في مواطن الدفاع ، وحب النصر على الأعداء . ولا سبيل للنصر على العدو إلا بالاستعداد والحيلة ، وحسن التدبير والكياسة الحربية ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » ولا قوة إلا بالعلم والمال ، ولا مال إلا إذا انتشر العدل في الأمة وبث بين أفرادها روح التعاون والشورى في مهام الأمور كما قال : « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » .

(والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) قال ابن جرير : أى الله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما شاء ، ويقضى فيهم بما أحب ، فيتوب على من شاء من خلقه العاصين أمره ونهيه ، ثم يغفر له ، ويعاقب من شاء منهم على جرمه ، فينتقم منه ، فيهو الغفور يسترد ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه ، بفضل عليه بالعتو والصفح ، وهو الرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم اه .

وفي هذا تأديب من الله لرسوله ، وإعلام له بأن الدعاء على المشركين ولعنهم مما لم يكن ينبغى منك ، إذ الأمر كله لله ، وليس لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه ولا رأى ولا تدبير فيهما ، وإن كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، إلا من سخره الله للقيام بشيء من ذلك ، فيكون خاضعا لذلك التسخير ، لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة التي قام بها نظام الكون ونظام الاجتماع .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)
 الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ،
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ
 يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ
 مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
 الْعَامِلِينَ (١٣٦)

شرح المفردات

ضعف الشيء مثله الذي يثنيه ، فضعف الواحد واحد ، لأنه إذا أضيف إليه
 ثناه ، وإذا ضاعفت الشيء منحت إليه مثله مرة فأكثر ، وهذه المضاعفة إما في
 الزيادة فقط التي هي الربا ، وإما بالنسبة إلى رأس المال كما هو حاصل الآن فقد
 يستدين الإنسان المائة بثلاثمائة ، وانتقوا الله أي اجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه ،
 أعدت أي هيئت . والمصارعة إلى المغفرة والجنة المبادرة إلى الأسباب الموصلة إليهما من
 الأعمال الصالحة كالإقبال على الصدقات وعمل الخيرات والتوبة عن الآثام كالربا
 ونحوه ، وعرضها السموات والأرض يراد به وصفها بالسعة ، والعرب تقول دعوى
 عريضة أي واسعة عظيمة . والسراء الحال التي تسر ، والضراء الحال التي تضر ،
 وفسرها ابن عباس باليسر والعسر أي السعة والضيق ويقال كظم القربة أي ملأها
 وسد رأسها ، وكظم الباب سده ، وكظم البعير جرتة إذا ازدردتها وكف
 عن الاجترار ، ثم قالوا كظم الغيظ فهو كظم ، وكظمه الغيظ والغم أخذ

بنفسه فهو مظلوم وكظيم قال تعالى : « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » وأخذ فلان بكظم فلان إذا أخذ بمجرى نفسه ، والغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال أو المعنوية كالشرف والعرض ، فيزعجها ذلك ويحفزها على التشفى والانتقام ، والعفو عن الناس التجاوز عن ذنوبهم وترك مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك ، والإحسان هنا الإعام والتفضل على غيرك على وجه لا مذمة فيه ولا قبح ، والفحشاء القعلة الشنيعة القبح التي يتعدى أثرها إلى غيرك كالزنا والغيبة ونحوهما ، وظلم النفس هو الذنب الذى يكون مقصورا على الفاعل كشرب الخمر ونحوه ، وذكر الله عند الذنب يكون بتذكرو وعده ووعيدة ، وأمره ونهيهِ ، وعظمته وجلاله ، والاصرار الشد من الصبر ، ويراد به شرعا الاقامة على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ البطانة من اليهود وأمثالهم من المشركين بشروط ذكرها هي مثار الضرر ، ثم بين لهم أن كيدهم لا يضرهم ما اعتصموا بتقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، ثم ذكرهم بما يدل على صدق ذلك بما حدث لهم حين صدقوا الله ورسوله من الفوز والفلاح في وقعة بدر ، وبما حدث لهم حين عصوا الله وخافوا أمر القائد وهو الرسول صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد ، وكيف حل بهم الملاء ، ونزلت بهم المصائب مما لم يكونوا ينتظرون القليل منها .

نهبهم هنا عن شر عمل من أعمال اليهود ومن اقتدى بهم من المشركين وهو الربا ، مع بيان أن الربح المتوقع منه ليس هو السبب في السعادة ، بل السعادة إنما تكون في تقوى الله وامتثال أوامره ، وفي ذلك حث على بذل المال في سبيل الله كالدفاع عن الملة ، وتنفيذ من البخل والشح والسكّاب على جمع المال بكل وسيلة مستطاعة ، وشر تلك الوسائل أكل الربا أضعافا مضاعفة .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) أى لا تأكلوا الربا حال كونه أضعافا مضاعفة بتأخير أجل الدين الذى هو رأس المال ، وزيادة المال إلى ضعف ما كان كما كنتم تفعلون فى الجاهلية ، فإن الاسلام لا يبيح لكم ذلك ، لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته .

قال ابن جرير : لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة فى إسلامكم بعد إזהادكم الله ، كما كنتم تأكلونه فى جاهليتكم ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم أن الرجل منهم يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال : آخر دينك عني وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه اهـ .

وقال الرازى : كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين واجداً لذلك المال قال الدائن زدنى فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ثم إلى أجل كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : أضعافا مضاعفة اهـ .

وربا الجاهلية هو ما يسمى فى عصرنا بالربا الفاحش وهو ربح مركب ، وهذه الزيادة الفاحشة كانت بعد حلول الأجل ، ولا شئ منها فى العقد الأول كأن يعطيه المائة بمائة وعشرة أو أكثر أو أقل ، وكأنهم كانوا يكتفون فى العقد الأول بالقليل من الربح . فإذا حل الأجل ولم يقض الدين وهو فى قبضتهم اضطروه إلى قبول التضعيف فى مقابلة الإنساء ، وهذا هو ربا النسيئة ، قال ابن عباس : إن نص القرآن الحكيم تنصرف إلى ربا النسيئة الذى كان معروفا عندهم اهـ .

وعلى الجملة فالربا نوعان :

(١) ربا النسيئة وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، وهو أن يؤخر دينه

ويزيده في المال ، وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة آلافا مؤلفة ، وفي الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدم محتاج ، فهو يبذل ازيادة ليفتدى من أسر المطالبة ، ولا يزال كذلك يعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ، ويوقعه في المشقة والضرر ، فمن رحمة الله وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهده ، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم يحىء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره ، ولهذا كان من أكبر الكبائر .

(٢) ربا الفضل كأن يبيع قطعة من الحلى كسوار بأكثر من وزنها ذنانير ، أو يبيع كيلة من التمر الجيد بكيلة وحفنة من التمر الرديء مع تراضى المتبايعين ، وحاجة كل منهما إلى ما أخذه .

ومثل هذا لا يدخل في نهى القرآن ولا في وعيده ، ولكنه ثبت بالسنة فقد روى ابن عمر قوله صلى الله عليه وسلم « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل سواء بسواء ، ولا تشفوا بعضه على بعض إني أخشى عليكم الرماء - الربا - » .

وهذه الآية هي أولى الآيات نزولاً في تحريم الربا ، وآيات البقرة نزلت بعد هذه ، بل هي آخر آيات الأحكام نزولاً ، وقد يقول بعض المسلمين الآن : إنا نعيش في عصر ليس فيه دول إسلامية قوية تقيم الإسلام وتستغنى عن مخالفتها في أحكامها بل زمام العالم في أيدي أمم مادية تقبض على الثروة ، وبقية الشعوب عيال عنها ، فنجاراها في طرق الكسب - والربا من أهم أركانها - أمكنه أن يعيش معها ، وإلا كان مستعبداً لها .

أفلا تقضى ضرورة كهذه على الشعوب الإسلامية التي تتعامل مع الأوروبيين

كالشعب المصرى مثلاً أن تتعامل بالربا كى تحفظ ثروتها وتتميتها ، وحتى لا يستنزف الأجنبى ثروتها وهى مادة حياتها ؟

وجواباً عن هذا نقول :

إن المحرمات فى الإسلام ضربان :

(١) ضرب محرم لذاته لما فيه من الضرر ، ومثل هذا لا يباح إلا للضرورة كأكل الميتة وشرب الخمر والربا المستعمل الآن وهو ربا النسئة وهو متفق على تحريمه فإذا احتاج المسلم إلى الاستقراض ولم يجد من يقرضه إلا بالربا فلائهم على أخذ الربا دون معطيته ، لأن له فيه ضرورة .

(٢) ضرب محرم لغيره وهو ربا الفضل لأنه ربما كان سبباً فى ربا النسئة ، وهو يباح للضرورة والحاجة أيضاً .

والمسلم يعرف إن كان محتاجاً إلى الربا ومضطراً إليه أم لا ، فإن كان محتاجاً حل له تناوله ويكون مثله مثل أكل الميتة وشرب الخمر ونحوهما ، وإلا لم يحل ذلك ، إذ الربا يضر بإيمان المؤمنين ، وإن كان زيادة فى مال الرابى فهو فى الحقيقة نقصان ، لأن الفقراء الذين يشاهدونه يأخذ أموالهم بهذا التعامل يلعنونه ويدعون عليه ، وبذلك يسلب الله الخير من يديه ، إن عاجلاً أو آجلاً فى نفسه وماله ، وتتوجه إليه المذمة من الناس لقساوة قلبه ، وغلاظ كبده ، وقد ورد فى الأثر : إن أخذ الربا لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا حج ولا صلاة .

(واتقوا الله لعلكم تفلحون) أى اتقوا الله فيما نهيتكم عنه من الأمور التى من جماعتها الربا ، ولا تكن قلوبكم قاسية على عباده من ذوى الحاجة والبؤس ، فتحملوهم من الدين ما لا تحتمله طاقتهم ، وتستغلوا عوزهم وحاجتهم ، فتشتطوا فى الربا حتى تخربو بيوتهم وتجعلوهم من ذوى الفاقة والمترية — لعل ذلك يكون سبب فلاحكم فى دنياكم فإن الرحمة وحسن المعونة يوجدان المحبة فى القلوب ، والمحبة أساس السعادة فى الدنيا والآخرة .

(واتقوا النار التي أعدت للكافرين) أى وابتعدوا عن متابعة المرابين ، وتعاطى مايتعاطون من أكل الربا ، الذى يفضى بكم إلى دخول النار التى أعدها الله للكافرين . وفى هذا من شديد الزجر ما لا يخفى ، فإن المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء المعاصى إذا علموا أنهم متى فارقوا التقوى أدخلوا هذه النار كان انزعاجهم عن المعاصى أتم ، ومن ثم روى عن أبى حنيفة رحمه الله أنه كان يقول : إن هذه أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم ينتقوه فى اجتتاب محارمه .

(وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) أى وأطيعوا الله ورسوله فيما نهاى عنه من أكل الربا ، وما أمراه به من الصدقة ، كى ترحموا فى الدنيا بصلاح حال المجتمع وفى الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم وقد ورد فى الأثر « الراحمون يرحمهم الرحمن » رواه أبو داود والترمذى .

وفى هذا تأكيد بعد التأكيدات السالفة .

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) أى بادروا إلى العمل لما يوصلكم إلى مغفرة ذنوبكم ويدخلكم جنة واسعة المدى أعدها الله لمن اتقاه وامتنثل أوامره ، وترك نواهيه ، فاعملوا الخيرات ، وتوبوا عن الآثام كالربا ونحوه ، وتصدقوا على ذوى البؤس والفاقة . روى أن رسول هرقل ملك الروم قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل وفيه : إنك كتبت تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحانه الله فأين الليل إذا جاء النهار [يريد أنه إذا دار الفلك حصل النهار فى جانب من العالم ، والليل فى ضد ذلك الجانب ، فكذا الجنة فى جهة العلو والنار فى جهة السفلى] .

وقال أبو مسلم : إن العرض هنا ما يُعرض من الثمن فى مقابلة المبيع أى ثمنها لو بيعت كثمن السموات والأرض ، والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة خطرها ، وأنه لا يساويها شئ وإن عظم .

(أعدت للمتقين) أى هيئت لهم ، وفى الآية دليل على أن الجنة مخلوقة الآن ،

وأنها خارجة عن هذا العالم إذ أنها تدل على أن الجنة أعظم منه ، فلا يمكن أن يكون محيطا بها .

ثم وصف الله المتقين بجملة أوصاف فقال :

(١) (الذين ينفقون فى السراء) أى الذين ينفقون فى السعة والضيق ، فينفقون فى كل حال على حسبها ، ولا يتركون الإنفاق بوجه .

وأثر عن عائشة أنها تصدقت بحبة عنب ، وأثر عن بعض السلف أنه تصدق ببصلة ، وفى الحديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، وردوا السائل ولو بظلف محرق » .

وقد بدأ الله وصف المتقين بالإنفاق لأمرين :

(١) أنه جاء فى مقابلة الربا الذى نهى عنه فى الآية السابقة ، إذ أن الصدقة إعانة للمعوز المحتاج ، وإطعام له ما لا يستحقه ، والربا استغلال الغنى حاجة ذلك المعوز لأكل أمواله بلا مقابل فهى ضده .

ومن ثم لم يرد فى القرآن ذكر الربا إلا ذم وقبح ، ومدحت معه الزكاة والصدقة ، اقرأ قوله : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ » وقوله « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ »

(ب) أن الإنفاق فى حالى اليسر والعسر أدل على التقوى ، لأن المال عزيز على النفس ، فبذله فى طرق الخير والمنافع العامة التى ترضى الله يشق عليها ، أما فى السراء فلما يحدثه السرور والغنى من البطر والظغيان وشدة الطمع وبعد الأمل ، وأما فى الضراء فلأن الإنسان يرى أنه أجدر أن يأخذ لا أن يعطى ، ولكنه مع هذه الحال لا يعدم وقتا يجد فيه ما ينفقه فى سبيل الله ولو قليلا .

وحب الخير هو الذى يحرك فى الإنسان داعية البذل لإنفاق هذا العفو القليل ، فإن لم توجد تلك الداعية على حسب الفطرة فالدين ينميتها ويقويها ، إذ هو قد جاء لتعديل الأمزجة المعتاة ، وإصلاح الفطر المعوجة .

وقد أرشدنا هدى الدين إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمة في ذاتها مهما ألح عليها الفقر وأن تتعود الإحسان بقدر الطاقة لتسمو عن الرذائل التي قد تجرّها إليها الحاجة ، فنبعد بقدر الإمكان عن ذل السؤال ومد الأيدي إلى الناس لطلب الاحسان وإراقة ماء الوجه أمام بيوت الأغنياء ، لما في ذلك من الذلة والصغاروهي مالا يرضاها مؤمن لنفسه يعتقد أن الأرزاق في قبضة الله وهو الذى يعطى ويمنع ، وقد جعل لكسب المال أوجها كثيرة يستطيع المرء أن يسعى إليها ليحصل عليه ، وقد وردت أحاديث كثيرة في الحظ على اكتساب المال من كل طريق حلال ، والبعد عن ذل السؤال .

إلا أن بذل القليل من الأفراد والجماعات إذا اجتمع صار كثيرا ، ومن ثم كانت الأمم الراقية تقيم مشروعاتها النافعة للأمة في الزراعة أو الصناعة أو في بناء الملاجى والمستشفيات بالتبرعات القليلة التي تؤخذ من أفرادها ، وبذا تقدمت في سائر فنون المدنية والحضارة .

ولذا حث الله على بذل الخير ولو قليلا بقوله : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ فِيمَا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يَكْثِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا »

ومن هذا ترى أن الله جعل من أهم علامات التقوى بذل المال ، كما أن الشح به علامة عدم التقوى ، والتقوى هى السبيل الموصل إلى الجنة .

فانظر إلى أهل السراء الذين يقبضون أيديهم عن بذل المعونة للأفراد والجماعات ويكنزون في صناديقهم القناطير المقلطة من الذهب والفضة ، هل تغنيهم صلاتهم وصومهم شيئا مع هذا الشح البادى على وجوههم ؟ فما هى إلا حركات وأعمال ، مرنوا عليها دون أن يكون لها الأثر النافع في نفوسهم ، إذ الصلاة التى يقبلها الله ، والصوم الذى يرضاه الله هو ما ينهى عن الفحشاء والمنكر ، وأى منكر أشد من الضن بالمال حين الحاجة إليه لنفع أمة أو فرد .

ولو جاد المسلمون بأموالهم عند الحاجة إلى البذل لكان لنا شأن آخر بين أرباب الديانات الأخرى ، ولكننا من ذوى العزة والمكانة بينها .
ولكننا صرنا إلى ماترى ، عسى الله أن يغير من نفوس المسلمين ، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم باتباع أوامر كتابهم ، واجتناب نواهيه ، ففي ذلك السعادة لهم فى الدنيا والأخرى .

(٢) (والكاظمين الغيظ) أى المسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ، ومن أجاب داعى الغيظ وتوجه بعزيمة إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ، ولا يكتفى بالحق ، بل يتجاوزه إلى البغى ، ومن ثم كان من التقوى كظمه وقد أثر عن عائشة رضى الله عنها أن خادما لها غاظها فقالت : لله در التقوى ما تركت لندى غيظ شفاء .

وقال عليه السلام « ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة موجهة يجرعها صاحبها بصبر وحسن عزاء ، ومن جرعة غيظ كظمها » وقال « ليس الشديد بالصرعة لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » .

وخلاصة ذلك - هم الذين يكظمون غيظهم عن الإمضاء والنفاذ ، ويردونه فى أجوافهم ، وهذا كقوله فى الآية الأخرى « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » .

(٣) (والعافين عن الناس) أى الذين يتجاوزون عن ذنوب الناس ويتركون مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك ، وتلك منزلة من ضبط النفس وملك زمامها قل من يصل إليها ، وهى أرقى من كظم الغيظ ، إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضعينة .
أخرج الطبرانى عن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات ، فليعف عن ظالمه ، ويعط من حرمة ، ويصل من قطعه » .

وفى الآية إيماء إلى حسن موقع عفوه عليه السلام عن الرماة ، وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره ، وإرشاد له إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين

بما فعلوه بحمزة رضى الله عنه حتى قال حين رآه قد مثل به : لأمثلن بسبعين منهم .
(٤) (والله يحب المحسنين) أى والله يحب الذين يتفضلون على عباده البائسين
ويواسونهم ببعض ما أنعم الله به عليهم شكرا له على جزيل نعمائه .

أخرج البيهقي أن جارية لعلى بن الحسين رضى الله عنهما جعلت تسكب عليه
الماء ليتبها للصلاة ، فسقط الإبريق من يدها فشججه ، فرفع رأسه فقالت : إن الله
يقول (والكاظمين الغيظ) فقال لها قد كظمت غيظى ، قالت (والعافين عن
الناس) قال قد عفا الله عنك ، قالت (والله يحب المحسنين) قال اذهبي فأنت حرة
لوجه الله تعالى .

والإحسان إلى غيرك إما بإيصال النفع إليه ، وهو الذى عناه الله بقوله (الذين
ينفقون فى السراء والضراء) ويدخل فيه إنفاق العلم بتعليم الجاهلين وهداية الضالين ،
وإنفاق المال فى وجوه الخير والعبادات ، قال صلى الله عليه وسلم « السخى قريب
من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من
الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار » .

وإما بدفع الضر عنه إما فى الدنيا بآلا يقابل الإساءة بإساءة أخرى وهو ما عناه
الله بقوله (والكاظمين الغيظ) قال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو يقدر
على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا » وإما فى الآخرة بأن يعفو عماله عند الناس
من التبعات والحقوق ، وهذا هو المراد بقوله (والعافين عن الناس) ومن ثم كانت
هذه الآية جامعة لوجوه الإحسان إلى غيرك .

وقد ذكر الله الجزاء على الإحسان بقوله (والله يحب المحسنين) إذ محبة الله
للعبد أعظم درجات الثواب .

(٥) (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)
أى والذين إذا فعلوا من القبيح ما يتعدى أثره إلى غيره كالغيبة ونحوها ، أو فعلوا ذنباً
يكون مقصوراً عليهم كشرب الخمر ونحوه — ذكروا عند ذلك وعد الله ووعيده ،

وعظمته وجلاله ، فرجعوا إليه تعالى طالبين مغفرته ، راجين رحمته ، علماً منهم أنه لا يغفر الذنوب سواه ، فهو الفعال لما يشاء بمقتضى حكمته وعلمه الواسع .
 (ومن يغفر الذنوب إلا الله) جملة جاءت معترضة بين ما قبلها وما بعدها ،
 تصويهاً لفعل التائبين ، وتطبيعاً لقلوبهم ، وبشارة لهم بسعة الرحمة وقرب المغفرة ،
 وإعلاء لقدركم بأنهم علموا أن لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه . وأن من كرمه
 أن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأن العبد إذا التجأ إليه ، وتنصل عن
 الذنب بأقصى ما يقدر عليه غفاهه وتجاوز عن ذنوبه وإن جلت ، فإن غفوه أجل
 وكرمه أعظم ، كما أن فيها تحريضاً للعباد على التوبة وحثاً لهم عليها ، وتحذيراً من
 اليأس والقنوط .

(ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أى ولم يقيموا على القبيح من غير استغفار
 ورجوع بالتوبة ، وقد قال عليه السلام « لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع
 الإصرار » يريد صلى الله عليه وسلم أن الصغيرة مع الإصرار كبيرة ، وقوله : وهم يعلمون
 أى بقبحه والنهى عنه والوعيد عنه ، والفائدة من ذكر هذا بيان أنه إذا لم يعلم بقبحه
 يعذر فى فعله .

والمؤمن المتقى لا يصير على الذنب وهو يعلم نهى الله عنه ووعد به عليه ، إذ يعلم أن
 الذنب فسوق وخروج عن نظام الفطرة السليمة ، واعتداء على حقوق الشريعة .
 فالآية تومئ إلى أن المتقين الذين أعد الله لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه
 صغيراً كان أو كبيراً ، لأن ذكره الله يمنعه أن يقيم على الذنب ، إذ الإصرار على
 الصغائر يجعلها كبائر ، ورب كبيرة أصابها المؤمن بجهالة ، وبادر إلى التوبة منها
 فكانت مذكرة له بضعفه البشرى ، ودليلاً على أن للغضب سلطاناً عليه — تكون
 دون صغيرة يقتربها مستهيناً بها مصرّاً عليها مستأنساً بها ، فتزول من نفسه هية
 الشريعة ، ويتجرأ بعد ذلك على ارتكاب الكبائر فيكون من الهالكين وقد رووا
 حديث « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » وقد ضعفه المحدثون ،

إلى أنه ليس المراد من الاستغفار الاستغفار باللسان ، وأنه كاف في التوبة ، وأن تحريك اللسان بكلمة أستغفر الله مرة أو عدة مرات يرفع إثم الذنب ، بل الاستغفار فيه هو التوبة النصوح التي عرفت معناها في قوله : « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » لا كون اللفظ كفارة للذنب .

(أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى إن أولئك المتقين الذين وصفوا بما تقدم من الصفات — لهم أمن من العقاب ، ولهم ثواب عظيم عند ربهم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

(ونعم أجر العاملين) أى إن هذا الجزاء إنما هو على تلك الأعمال التي منها ما هو نافع للأمة كما نفاق المال في وجوهه ، ومنها ما هو إصلاح لنفس العامل ، فهو أجر للعمل وجزاء عليه ، ويتفاوت الناس في التقوى على حسب ذلك .

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ
(١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)
إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا
بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)

شرح المفردات

خلت مضت ، السنن واحدها سنة وهى الطريقة المعتبرة والسيرة المتبعة ، من قولهم سنّ الماء إذا والى صبه ، شبهت به السنة لتوالى أجزائها على نهج واحد ، بيان أى إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، هدى أى زيادة بصيرة

وإرشاد إلى طريق الدين القويم ، والموعظة ما يلين القلب ويدعو إلى التمسك بما فيه طاعة ، الوهن الضعف في العمل وفي الرأي وفي الأمر ، والحزن ألم يعرض للنفس إذا فقدت ما تحب ، والقرح (بالضم والفتح) عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسم ، وقيل هو بالفتح الأثر والضم الألم ، والأيام واحدها يوم وهو الزمن المعروف والمراد بالأيام هنا أزمانه الفوز والفقر ، نداولها نصرها فنديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء كما وقع ذلك في يومى بدر وأحد ، وأصل المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر . والشهداء واحد هم شهيد وهو قتل المعركة ، وقيل واحد هم شاهد ، والتمحيص التخليص من كل عيب ، ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه ، ومحص الله الثائبين من الذنوب طهرهم منها ، والمحق النقصان ، ومنه الحاق لآخر الشهر ، وفي الأساس محق الشيء محاه وذهب به .

المعنى الجملى

كان الكلام فى سابق الآيات فى قضية أحد وأهم أحداثها ، ثم ذكرهم بوقعة بدر وما كتب لهم فيها من النصر على قلة عددهم وعُددهم .
وفى هذه الآيات وما بعدها يذكرهم بسنن الله فى خلقته ، وأن من سار على نهجها أدى به ذلك إلى السعادة ، ومن حاد عنها ضل وكانت عاقبته الشقاء والبوار ، وأن الحق لا بد أن ينتصر على الباطل مهما كانت له أول الأمر من صولة ، كما وعد الله بذلك على ألسنة رساله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » .

الإيضاح

(قد خلت من قبلكم سنن) أى إن أمر البشر فى اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل ، وما يلابس ذلك من الحرب والطعان والنزال والملك

والسيادة يجرى على طرق قوية وقواعد ثابتة اقتضتها الحكمة والمصلحة العامة .

وقد جاء ذكر السنن الإلهية في مواضع من الكتاب الكريم كقوله : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » وقوله : في سياق دعوة الإسلام « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا » .

والمراد بذلك أن مشيئة الله في خلقه تسير على سنن حكيمة من سار عليها ظفر وإن كان ملحداً أو وثنيا ، ومن تنكبها خسرو وإن كان صديقاً أو نبيا ، وعلى هذا فلا عجب أن ينهزم المسلمون في وقعة أحد ، وأن يصل المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيشجوا رأسه ، ويكسروا سنه ، ويُرْدُوهُ في حفرة .

والمسلمون الصادقون أولى الناس بمعرفة تلك السنن في الأمم وأجدر الناس بأن يسيروا على هديها . لذلك لم يلبث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن ثابوا إلى رشدهم يومئذ ورجعوا إلى الدفاع عن نبيهم وثبتوا حتى انجلى المشركون عنهم ولم ينالوا ما كانوا يقصدون .

والخلاصة — أن النظر في أحوال من تقدمكم من الصالحين والمكذبين يهديكم إلى الطريق المستقيم ، فإن أتم سلككم سبيل الصالحين فعاقبتكم كماقبتهم ، وإن سلكتم سبيل المكذبين فخالكم كخالهم .

وفي الآية تذكير لمن خالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وإرشاد لهم إلى أنهم بين عاملى خوف ورجاء ، فهي على أنها بشارة لهم بالنصر على عدوهم إنذار بسوء العاقبة إذا هم حادوا عن سننه ، وساروا في طريق الضالين ممن قبلهم ، وعلى الجملة فالآية خبر وتشريع وتتضمن وعداً ووعيداً وأمرًا ونهيًا .

وقد جرت سنة الله بأن للمشاهدة في تثبيت الحقائق ما ليس للقول وحده ،

إذ القول قد ينسى ويقل الاعتبار به ، من قبل هذا أرشدكم إلى الاعتبار وقياس ما في أنفسهم على ما كان لدى غيرهم من قبلهم ومن ثم قال :

(فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى سيروا في الأرض وتأملوا فيما حل بالأمم قبلكم ليحصل لكم العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ، وتسترشدوا بذلك إلى أن المصارعة قد وقعت بين الحق والباطل في الأمم السالفة ، وانتهى أمرها إلى غلبة أهل الحق لأهل الباطل ، وانتصارهم عليهم ما تمسكوا بالصبر والتقوى ، ويدخل في ذلك اتباع ما أمر الله به من الاستعداد للحرب وإعداد العدة لقتال العدو كما أمر الله به في قوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَقْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وجرى ذلك على سنن مستقيمة وأسباب مطردة لاتغير فيها ولا تبدل .

والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم - نعم العون على معرفة تلك السنن والاعتبار بها ، وقد نستفيد هذه الفائدة بالنظر في كتب التاريخ التي دونها من ساروا في الأرض ، ورأوا آثار الذين خلوا ، فتحصل لنا العظة والعبرة ، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون في الأرض بأنفسهم ، ويرون الآثار بأعينهم تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

(هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) أى هذا الذى تقدم بيان للناس كافة وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة ، فالإرشاد عام للناس وحجة على المؤمن والكافر ، التقى منهم والفاجر ،

وذلك يدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة بنحو قولهم لو كان محمد رسولا حقا لما غلب في وقعة أحد ، فهذا الهدى والبيان يرشد إلى أن سنن الله حاكمة على الأنبياء والرسل كما هي حاكمة على سائر خلقه ، فما من قائد يخالفه جنده ، ويتركون حماية الثغر الذى يؤتون من قبله ، ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم ،

والعدو مشرف عليهم ، إلا كان جيشه عرضة للانكسار إذا كر العدو عليه - قطع خط الرجعة - ولا سيما إذا كان بعد فشل وتنازع ، ومن ثم كان هذا البيان لجميع الناس ، كل على قدر استعدادده للفهم وقبول الحجة .

وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة ، فلا أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقائق ، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع ، فيستقيمون ويسيرون على النهج السوى ، ويتجنبون نتائج الإهمال التي تظهر لهم مضرة عاقبتها ، فالمؤمن حقا هو الذى يهتدى بهدى الكتاب ويسترشد بمواعظه كما قال : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » فالقرآن يهديننا فى مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نروز أنفسنا ، ونعرف كنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا ، ففسير على سنن الله فى طلبه وفى حفظه ، وأن نعرف كذلك حال خصمنا ونضع الميزان بيننا وبينه ، وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين .

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) أى لا تضعفوا عن القتال وما يتبعه من التدبير بسبب ما أصابكم من الجروح والفشل فى يوم أحد ، ولا تحزنوا على من فقد منكم فى هذا اليوم ، وكيف يلحقكم الوهن والحزن وأنتم الأعلون ، فقد مضت سنة الله أن يجعل العاقبة للمتقين الذين لا يحيدون عن سنته ، بل ينصرون من ينصره و يقيمون العدل ، فهم أجدر بذلك من الكافرين الذين يقتاتلون لحض البغى والانتقام ، أو للطمع فيما فى أيدي الناس .

فهمة الكافر على قدر ما يرمى إليه من غرض خسيس ، ولا كذلك همة المؤمن الذى يرمى إلى إقامة صرح العدل فى الدنيا والسعادة الباقية فى الآخرة - إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره ، وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسنته فى نظم الاجتماع . حتى صار ذلك الإيمان وصفا ثابتا لكم حاكما على نفوسكم وأعمالكم . وإنما نهى عن الجزن على ما فات ، لأن ذلك مما يفقد الإنسان شيئا من

عزيمته ، وبالعكس صلته بما يحب من مال أو متاع أو صديق تكسبه قوة وتوجد في نفسه سرورا ، والمراد من النهى عن مثل ذلك معالجة النفس بالعمل ولو تكلفا وخلاصة ذلك - الأمر بأخذ الأهبة وإعداد العدة مع العزيمة الصادقة والحزم والتوكل على الله حتى يظفروا بما طلبوا ويستعصوا مما خسروا .

وقوله وأتم الأعلان تبشير بما يكون في المستقبل من النصر لهم ، فإن من اخترق الإيمان الصحيح فؤاده ، وتمكن من سويداء قلبه يكون على يقين من العاقبة ، بعد مراعاة السنن والأسباب المطردة للظفر والفلاح (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أى إن كان السلاح قد عضكم وعمل فيكم يوم أحد فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم في ذلك اليوم ، فقد قتل منهم مثل ما قتل منكم فلم يكونوا غابيين .
والخلاصة - أنه لا يسوغ لكم التقاعد عن الجهاد ، وليس لكم العذر فيه لأجل أن مسكم قرح ، فإن أعداءكم قد مسهم مثله قبلكم وهم على باطلهم لم يفتروا في الحرب ولم يهنوا ، فأنتم أجدر بصدق العزيمة لمعرفتكم بحسن العاقبة ، وتمسككم بالحق .

(وتلك الأيام نداؤها بين الناس) أى إن مداولة الأيام سنة من سنن الله في المجتمع البشرى ، فرة تكون الدولة لمبطل ، وأخرى للمحق ، ولكن العاقبة دائما لمن اتبع الحق .

وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح ورعاها حق رعايتها كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطيع من القوة .

فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم الأحكام حتى تظفروا وتفوزوا ، ولا يكن ما أصابكم من الفشل مضعفا لمزائكم ، فإن الدنيا دول .
فيوما لنا ويوما علينا ويوما نساء ويوما نسر

ومن أمثال العرب : الحرب سجال ، روى أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ، ثم قال أين ابن أبي كبشة ؟ - يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم وأبو كبشة زوج حليلة السعدية وهو أبوه من الرضاع - أين ابن أبي قحافة ؟ - أبو بكر - أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وهذان عمر ، فقال أبو سفيان يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال ، فقال عمر رضى الله عنه : لا سواء ، قتلتنا فى الجنة وقتلناكم فى النار ، فقال إنكم تزعمون ذلك ، فقد خبنا إذن وخسرنا .

(وليعلم الله الذين آمنوا) أى وتلك الأيام نداولها بين الناس ، ليقوم بذلك العدل ، ويستقر النظام ، ويعلم الناظر فى السنن العامة ، والباحث فى الحكم الإلهية أنه لا محاباة فى هذه المداولة ، وليعلم الله الذين آمنوا منكم ، لأن الجهاد الاجتماعى الذى يدال به قوم على قوم مما يطهر النفوس ويتميز به الإيمان الصحيح من غيره .

والمراد من قوله (وليعلم الله) أى وليظهر علمه بذلك للناس بظهور ما يعلم لهم ، إذ علم الله بالأشياء ثابت فى الأزل ، فإذا وقعت حصل تغير فى ذلك المعلوم ، فصار حالاً بعد أن كان مستقبلاً ، فهو كقوله : « لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » أى ليعلم الناس ذلك ويميزوه .

والخلاصة - أن المراد من مثل هذه العبارة (ليعلم) - ليثبت ويتحقق صدق إيمان الذين آمنوا ، لأنه متى ثبت وتحقق كان الله عالماً به على أنه حقيقة ثابتة ، إذ علم الله لا يكون إلا مطابقاً للواقع ، فما لا يعلمه الله تعالى لا يكون له حقيقة ثابتة . (ويتخذ منكم شهداء) أى وليكرم ناساً منكم بالشهادة والقتل فى سبيل الله . ذاك أن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر ، وكانوا يتمنون لقاء العدو ، وأن يكون لهم يوم كذلك اليوم يقتلون فيه ويلتمسون الشهادة .

والقرآن ملىء بتعظيم حال الشهداء قال تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » وقال تعالى : « فَأَوَائِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

ومن ثم كان من جملة فوائد هذه المداولة حصول هذا المنصب العظيم لبعض المؤمنين .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها لبيان أن الشهداء يكونون ممن أخلصوا في إيمانهم وأعمالهم ، ولم يظالموا أنفسهم بمخالفة أوامر الله ونواهيه ، والخروج عن سننه في خلقه فقال :

(والله لا يجب الظالمين) أى إن الله لا يصطفى للشهادة الظالمين ماداموا على ظلمهم ، وفى ذلك بشارة للمتقين بحبة الله لهم ، وإنذار للمقصرين بأنه لا يحبهم الله ، وتعريض لأعدائهم المشركين بأن الله لا يحبهم ، لأنهم ظلموا أنفسهم وسفوهوا بعبادة المخلوقات ، وظالموا سواهم بالفساد فى الأرض ، والبنى على الناس وهضم حقوقهم ، ومن المعلوم أن الظلم لا تدوم له سلطة ، ولا تثبت له دولة ، بل تكون دولته سريعة الزوال ، قريبة الانحلال .

(ولیمحص الله الذين آمنوا) أى ونداول الأيام ليمتيز المؤمنون الصادقون من المنافقين ، وتظهر نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها ، فتصير تبرأ خالصاً لا كدورة فيه ، فإن الإنسان كثيراً ما يشتبه عليه أمر نفسه ، ولا تتجلى له حقيقتها إلا بالتجارب الكثيرة ، والامتحان بالشدائد العظيمة ، فهى التى تمحصها وتنقى خبثها وزغليها ، كما أن تمحيص الذهب يميز بهرجه من خالصة .

فالمعتقد فى دين أنه الحق قد يخيل إليه وقت الرخاء أنه سهل عليه بذل ماله ونفسه فى سبيل الله ليرفع راية ذلك الدين ويدفع عنه كيد المعتدين ، فإذا جاء البأس ظهر له من نفسه غير ما كان يتصور ، انظر إلى الذين خالفوا أمر النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وطعموا فى الغنيمة ، وإلى الذين انهزموا وولوا الأدبار ، كيف محصهم الله

بتلك الشدائد فعملوا أن المسلم ما خلق للهو واللعب ، ولا للكسل والتواكل ، ولا لنيل الظفر ونيل السيادة بخوارق العادات ، وتبديل سنن الله في المخلوقات ، بل خلق ليكون أكثر الناس جدا في العمل ، وأعظمهم تفانيا في أداء الواجب اتباعا للتواميس والسنن التي وضعها الله في الخليقة .

وقد تجلى أثر هذا التمحيص في الغزوات التي تلت هذه الواقعة ، ففي غزوة (حراء الأسد) أمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يتبع المشركين فيها إلا من شهد القتال بأحد فامتثل المؤمنون أمره بقلوب مطمئنة ، وعزائم صادقة ، وهم على ما هم عليه من الجراح المبرحة ، والقلوب المنكسرة .

(ويمحق الكافرين) أى يجعل اليأس يسطو على قلوبهم ، وفقد الرجاء يذهب بعزائمهم ، فلا يبقى لديهم شجاعة ولا بأس ، ولا قُلْ ولا كُثْرٌ من عزة النفس ، فيكون وجودهم كالأعدم لا فائدة فيه ، ولا أثر له ، فالكافرون المبطون لا يثبت لهم حال مع المؤمنين الصادقين ، وإنما يظهرون إذا لم يوجد من أهل الحق والعدل من ينازعهم ويقاوم باطلهم .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا

لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ
(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا
وَتُبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا
الَّذِي نَادَوْا وَحُسْنِ ثَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

شرح المفردات

الجهاد احتمال المشقة ومكافحة الشدائد ، فيشمل :

- (١) الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته .
- (٢) جهاد النفس الذي سماه السائف (الجهاد الأكبر) ومن ذلك مجاهد الإنسان لشهواته خصوصاً في سن الشباب .
- (٣) المجاهدة بالمال لأعمال الخير النافعة للأمة والدين .
- (٤) المجاهدة بمدافعة الباطل ونصرة الحق .

تمنون الموت أى تتمنون الشهادة فى سبيل الله ، أن تنقوه أى تشاهدوا أهواله
وتذوقوا مرارة كأسه ، رأيتموه أى رأيتم أسبابه من ملاقاته الشجعان بعدتهم وأسلحتهم
وكرمهم وفرهم ومصاولتهم للفرسان ، وأنتم تنظرون ، أى تعابنون وترونه رؤية لا خفاء
فيها كما تقول رأيته وليس بعينى علة ، انقلبتم على أعقابكم أى رجعتكم كفاراً بعد إيمانكم ،
ويقال لكل من عاد إلى ما كان عليه : رجع وراءه وانقلب على عقبيه ، ونكص
على عقبيه .

والمؤجل ذو الأجل ، والأجل المدة المضروبة لشيء كما قال : « وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا
الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا » ومنه الدين المؤجل الذى ضرب له أجل ومدة يؤدى فى نهايتها ،
وكأين كلمة تفيد أن ما دخلت عليه كثير ، والريون الجماعات الكثيرة واحدهم ربى
وهو الجماعة ، والوهن ضعف يلحق القلب ، والضعف اختلال قوة الجسم ، والاستكانة

الخنوع والاستسلام للخصم ليفعل ما يريد ، والصبر احتمال الشدائد ومعاونة المكاره ، والإسراف في كل شيء مجاوزة الحد فيه كما قال : « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » وثبت أقدامنا أى حين جهاد أعدائك بتقوية قلوبنا وإزالة الخواطر الفاسدة من صدورنا .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث مع من شهد أحداً من المؤمنين ، فقد أرشدهم الله في الآيات السالفة إلى أنه لا ينبغي لهم أن يحزوا أو يضعفوا ، وأن ما أصابهم من الحنة والبلاء جار على سنن الله في خليقته من مداولة الأيام بين الناس ، وفيه تمحيص لأهل الحق فإن الشدائد محك الأخلاق ، وفيه هدى وإرشاد وتسلية للمؤمنين حتى يتربوا على الصفات التي ينالون بها الفوز والظفر في جميع أعمالهم .
وهنا أبان لهم أن سبيل السعادة في الآخرة منوط بالصبر والجهاد في سبيل الله ، كما أن طريق السعادة في الدنيا يكون بإقامة الحق وسلوك طريق الإنصاف والعدل بين الناس ، فسنة الله هنا كسننته هناك .

الإيضاح

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)
أى هل جريتم على تلك السنن ؟ هل تدبرتم تلك الحكم ؟ أم ظننتم أنكم تدخلون الجنة وأنتم لم تقوموا بالجهاد في سبيله حق القيام ، ولم تتمكن صفة الصبر من نفوسكم تمام التمكن ، ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد التحلى بهما .
وإنكم لو قمت بذلك لعلمه الله تعالى منكم وجازاكم عليه بالنصر والفوز في هذه الغزوة كما يجازيكم في الآخرة بدخول الجنة .
وقال أبو مسلم الأصفهاني في (أم حسبتم) إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذى يأتي للتبكي .

وتلخيصه — لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد وهو كقوله :
« أَلَمْ أَحَسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتِرَ كَوَانٌ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » .

وعادة العرب أن يأتوا بهذا الجنس من الاستفهام تأكيداً ، فلما قال ولا تهنوا ولا تحزنوا ، كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك واقع كما تؤمرون ، أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة ولا صبر .

وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى لما أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة وأوجب الصبر على تحمل متاعبه ، وبين وجوه المصالح فيه في الدين والدنيا كان من البعيد أن يظن الإنسان أنه يصل إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة اه بتصرف .

وجهاد النفس على أداء حقوق الله وحقوق العباد مما يشق عليها احتمالها ويحتاج إلى مجاهدتها وترويضها حتى تذلل ويسهل عليها أداء تلك الحقوق ، وربما فضل هذا الجهاد جهاد الأعداء في ميدان القتال وخوض غمار الوغى ؛ وأصعب من هذا وأشق دعوة الأمة إلى خير لها في دينها ودنياها ، أو بث فكرة صالحة تغير بعض أخلاقها وعاداتها ، أو مقاومة بدعة فاشية بين أفرادها فإنها تجد مقاومة من الخاصة ، بله العامة ، فتراهم يرفعون راية العصيان في وجه الداعي ، ويشاكسون بكل الوسائل ، ولا سيما إذا تعلق بتغيير بعض عادات مرتوا عليها جيلاً بعد جيل ، ووجدوا من أشباه العلماء من يؤازرهم ويناصرهم في باطلهم .

وكثيراً ما يحدث للداعي التلف والهلاك ، أو ثلم العرض ، أو الإخراج من حظيرة الدين .

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) هذا خطاب لمن شهد من المسلمين وقعة أحد .

ذاك أن كثيراً من الصحابة وبعضهم لم يشهد بدرًا — كانوا يلحون في الخروج إلى أحد حيث عسكر المشركون ليكون لهم يوم كيوم بدر ، ويتمنون أن يلقوا الأعداء ويصيبوا من الخير مثل ما أصاب أهل بدر .

فلما كان يوم أحد ولّى منهم من ولّى فعاتبهم الله على ذلك .

روى عن الحسن أنه قال : بلغنى أن رجلاً من أصحاب النّبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : لئن لقينا مع النّبي صلى الله عليه وسلم لنفعلنّ ولنفعلنّ فابتلوا بذلك ، فلا والله ما كلهم صدق فأُنزل الله عز وجل (ولقد كنتم تمنون الموت) الآية .
ومعنى قوله فقد رأيتموه — أنكم شاهدتم أسبابه من ملاقاته الشجعان بعدّتهم وأسلحتهم وكرّهم وفرهم ، مشاهدة لا خفاء فيها ولا شبهة ، وكان لها الأثر العميق فى نفوسكم .

ومعنى تمنى الموت تمنى الشهادة فى سبيل الله والقتال لنصرة الحق ولو ذهبته نفسه دونه .

وصفوة القول — لقد كنتم تمنون الموت قبل أن تلاقوا القوم فى الميدان ، فهأنتم أولاء قد رأيتم ما كنتم تمنونه ، وأنتم تنظرون إليه لاتغفلون عنه ، فما بالكم دهشتم عند ما وقع الموت فيكم ، وما بالكم تحزنون وتضعفون عند لقاء ما كنتم تحبون وتمنون ، ومن تمنى الشئ وسعى إليه لا ينبغي أن يحزنه لقاءه ويسوءه .

وفى الآية الكريمة تنبيه لكل مؤمن إلى اتقاء الغرور بحديث النفس والتمنى والتشهى ، وهدية إلى اختبار نفسه بالعمل الشاق وعدم الثقة منها بما دون الجهاد والصبر على المكاره فى سبيل الحق ، حتى يأمن الدعوى الخادعة التى يتوهم فيها أنه صادق فيما يدعى مع الغفلة أو الجهل بعجزه عنه .

وكثيرا ما يتصور بعض الناس أنه يحب ملته ووطنه ويفكر فى خدمتهما ويتمنى لو يتاح له أن يساهم فى تلك الخدمة بنفسه أو بماله ، حتى إذا احتيج إليه وجد من نفسه الضعف ، فأعرض عن العمل قبل الشروع ، أو بعد أن ذاق مرارته وكابد مشقته .
ولكن المؤمن حقا من وصل الأمر به إلى حد اليقين فيما يعتقد أنه حق ، وذلك يستدعى العمل مهما كان شاقا ، والجهاد مهما كان عسيرا ، والصبر على المكاره ، وإيثار الحق على الباطل .

وقد كان فيمن خطبوا بهذه الآية جماعة ممن كانوا فى المرتبة العليا من صدق الجهاد والصبر على المكاره ، وأولئك هم المجاهدون الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ثبات الجبال الراسيات ، وهم نحو ثلاثين رجلا ، لكنه جعل الخطاب عاما ليكون الإرشاد والنصح عاما للجميع ، فيتهم ذوو المراتب العالية أنفسهم بالتقصير ، فيزدادوا كمالا على كمالهم ، ويرعوى المقصرون وينزعوا عن خداع أنفسهم لهم ، وهذا من التمهيص العظيم الذى له أجل العواقب فى تهذيب الأنفس ، وقد ظهر أثر ذلك فى نفوس أولئك القوم فيما بعد ، وراهم تربية كانت بها عزائمهم ماضية ، وهمهم صادقة ، فلم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا فيما حاولوه من جسم الأمور .

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟) أى إن محمدا ليس إلا بشر قد مضت الرسل قبله فماتوا وقتل بعضهم كركريا ويحيى ، ولم يكتب لأحد منهم الخلد .

أفإن مات كما مات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين ، أو قتل كما قتل زكريا ويحيى . تنقلبوا على أعقابكم راجعين عما كنتم عليه ؟ والرسول ليس مقصودا لذاته ، بل المقصود ما أرسل به من الهداية التى يجب على الناس أن يتبعوها .

قال أنس بن النضر فى الساعة التى زاغت فيها الأبصار والبصائر ، وبلغت القلوب فيها الحناجر ، وحين فشا فى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، وقال بعض ضعفاء المؤمنين لبيت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى فياخذ لنا أمانة من أبى سفيان ، وقال ناس من أهل النفاق إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول (إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه) ثم قال (اللهم إنى أعتذر إليك مما قال هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل رضى الله عنه) .

وأما المؤمنون الصادقون الموقنون فمنهم من ثبت معه ، ومنهم من كان بعيدا

عنه فرجع إليه كأي بكر وعلى وطلحة وأبي دُجانة الذي جعل نفسه ترسا دونه ، فكان يقع عليه النبُّل وهو لا يتحرك .

والخلاصة - أن قتل محمد صلى الله عليه وسلم لا يوجب ضعفا في دينه لأمرين :
(أ) أن محمداً بشر كسائر الأنبياء ، وهؤلاء قد ماتوا أو قتلوا .

(ب) أن الحاجة إلى الرسول هي تبليغ الدين فإذا تم له ذلك فقد حصل الغرض ولا يلزم من قتله فساد دينه .

وفي الآية هداية وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب أو عدم استمرارها ذا صلة بوجود القائد بحيث إذا قتل انهزم الجيش ، أو استسلم للأعداء ، بل يجب أن تكون المصالح العامة جارية على نظام ثابت لا يزلزله فقد الرؤساء ، وعلى هذا تجري الحكومات والحروب في عصرنا الحاضر .

ومن توابع هذا النظام أن تعد الأمة لكل أمر عده ، فتوجد لكل عمل رجالا كثيرين ، حتى إذا فقدت معلما أو مرشدا أو قائدا أو حاكما أو رئيسا أو زعيما وجدت الكثير ممن يقوم مقامه ويؤدي لها من الخدمة ما كان يؤديه ، وحينئذ يتنافس أفرادها ويحفظون عزائمهم للوصول إلى ما يمكن أن يصل إليه كسب البشر ، وينال كل منه بقدر استعداده وسعيه وتوفيق الله له .

(ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) أى ومن يرجع عن جهاده ومكافحته الأعداء فلن يضر الله شيئا بما فعل ، بل يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ، وحرمانها من الثواب ، فالله قد وعد بنصر من ينصره ويعز دينه ويجعل كلمته هي العليا ، وهو لا محالة منجز وعده .

ولا يحول دون ذلك ارتداد بعض الضعفاء والمناققين على أعقابهم ، فهو سيثبت المؤمنين ويحصيهم حتى يكونوا كالنهر الخالص ، فيقيموا دينه ، وينشروا دعوته ، ويرفعوا شأنه ، وتنشر على الخافقين رأيتُه ، وهو الذى بيده الخلق والأمر وهو القادر على كل شيء .

(وسيجزى الله الشاكرين) له نعمه عليهم بالإيمان والهداية إلى أقوم السبل .
وفى الآية إرشاد إلى أن المصائب التى تحل بالإنسان لا مدخل لها فى كونه على
حق أو باطل ، فكثيرا ما يبتلى صاحب الحق بالمصائب والزاياء ، وصاحب الباطل
بالنعم والعطايا .

وفيهما إيماء إلى أنا لا نعتمد فى معرفة الحق والخير على وجود المعلم بحيث نتركهما
عند موته ، بل نسير على منهاجيهما حين وجوده و بعد موته .

والخلاصة - أن الله أوجب علينا أن نستضيء بالنور الذى جاء به الرسول صلى
الله عليه وسلم ، أما ما يصيب جسمه من جرح أو ألم ، وما يعرض له من حياة
أو موت ، فلا مدخل له فى صحة دعوته ، ولا فى إضعاف النور الذى جاء به ،
فإنما هو بشر مثلكم خاضع لسنن الله كخضوعكم .

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا) أى ليس من شأن
النفوس ولا من سنة الله فيها أن تموت بغير إذنه تعالى ومشيئته التى بها يجرى نظام
الحياة وترتبط فيها الأسباب بالمسببات .

وقوله كتابا مؤجلا أى أثبتته الله مقرونا بأجل معين لا يتغير ، ومؤقتا بوقت
لا يتقدم ولا يتأخر ، فكثير من الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات
الحروب ، أو يتعرضون لعدوى الأمراض ، أو يتصدون لأفاعيل الطبيعة ، وهم مع
ذلك لا يصابون بالأذى ، فالشجاع المقدم قد يسلم فى الحرب ، ويقتل الجبان
المتخلف ، ويفتك المرض بالشاب القوى ، ويترك الضعيف الهزيل ، وتقتل عوامل
الأجواء الكهل المستوى ، وتتجاوز الشيخ الضعيف ، فتلأ أعمار آجال ، وللا آجال
أقذار لا تخطوها ، والأقذار هى السنن التى عليها تقوم نظم العالم وإن خفيت على
بعض الناس ، وإذا كان محيانا ومماتنا بإذن الله فلا محل للخوف والجهن ولا عذر
فى الوهن والضعف ، وما ينسب إلى على قوله :

أَيَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَوْتِ أَفَرَّ يَوْمٌ لَا يَقْدِرُ أَمْ يَوْمٌ قُدِرَ

يوم لا يقدر لا أربهه ومن المقدور لا ينجو الحذر
وفي الآية تحريض على الجهاد وتشجيع على لقاء العدو ، فإنه إذا كان الأجل
محتوما ومؤقتاً بميقات ، وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المعارك واقتحم
المهالك فلا محل إذا للخوف والحذر — إلى ما فيها من الإشارة إلى كلاءة الله وحفظه
لرسوله مع غلبة العدو له والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهزة للمختلس ، فلم يبق
سبب من أسباب الهلاك إلا قد حصل ، ولكن لما كان الله حافظاً وناصرًا له لم يضره
شئ ، وفيها إشارة إلى أن قومه قد قصرُوا في الذب عنه .

(ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) أى من
قصد بعمله حظ الدنيا أعطاه الله شيئاً من ثوابها ، ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظاً
من ثوابها .

وفي معنى الآية الحديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ...
وفيها تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ، فتركوا موقعهم الذى أمرهم النبي
صلى الله عليه وسلم بلزومه ، وكأنه يقول لهم إن كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم
ذلك ، وما عليكم إلا أن تسلكوا سبيله ، ولكن ليس هذا هو الذى يدعوكم إليه
محمد صلى الله عليه وسلم ، بل يدعوكم إلى خير ترون حظاً منه في الدنيا والمعمل عليه
ما في الآخرة .

فأتم بين أمرين : إما إرادة الدنيا ، وإما إرادة الآخرة ، ولكل منهما سنن
تتبع ، وطرق تسلك ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ
نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ نَصِيبٍ » .

ومن هدى الإسلام أن يطلب المرء بعمله خيري الدنيا والآخرة معاً ويقول :
(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) والله يعطيه كل ما يطلب أو بعضه على
حسب سنن الله وتدييره لنظم الحياة .

وعلى الإنسان أن يعلم أن له طورين :

(١) طور عاجل قصير وهو طور الحياة الدنيا .

(٢) طور آجل أبدي وهو طور الحياة الآخرة .

وسعادته فى كل من الطورين مرتبطة بإرادته وما توجهه إليه من العمل ، فاندس إنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد ، يقوم يحاربون حبا فى الربح والكسب ، أو ضراوة بالفتك والقتل ، فإذا غلبوا أفسدوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، وقوم يحاربون دفاعا عن الحق وإقامة لقوانين العدل ، فإذا غلبوا عمروا الأرض وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فهل يستوى الفريقان وهما فى المقصد مفترقان ؟

كذلك يطلب الرجل الربح والكسب أحيانا بكل وسيلة مستطاعة طلبا لذاته ، والحصول على شهواته ، فيغلو فى الطمع ، ويمعن فى الحيل ، ولا يبالي أمن الحرام أكل أم من الحلال ؟ يأكل الربا أضعافا مضاعفة ، فيجمع القناطير المقنطرة ، وهو مع ذلك يمنع المدعون ، ولا يحض على طعام المسكين ، ولو سئل البذل فى المصالح العامة كان أشد الناس بخلا وأقبحهم كفا ، بينما يطلب آخر الكسب طلبا للتجمل وحبا للكرامة فى قومه وعشيرته ، فيقتصد فى الطلب ، ويتحرى الربح الحلال ، ويلتزم الصدق والأمانة ، ويتبعد عن الفسوق والخيانة ، وهو مع هذا ينفق مما أفاء الله به عليه ، فيواسى البائسين ، ويساعد المعوزين ، وتكون له اليد الطولى فى الأعمال النافعة لأمتة ، فيشيد لها المدارس والمعابد ، والملاجئ والمستشفيات ، فهل ينظر الناس إلى هذين نظرة متساوية ، وهل هما فى القرب عند الله بمنزلة واحدة ، أو يفضل أحدهما الآخر بحسن القصد والإرادة والميل إلى الخير وحب المصلحة العامة .

وقصارى القول — أن أقدار الرجال تتفاوت وتختلف باختلاف إراداتهم ، فبينما تتسع دائرة وجود الشخص على حسب كبر إرادته وسعة مقصده ، فتحيط بالكرة الأرضية ، بل فوق ذلك بما يكون له من الكرامة فى العالم العلوى — إذا

بآخر تضيق دائرة وجوده إذا هو أخذ إلى الشهوات ، وركن إلى اللذات ، فيكون حظه من عمله كحظ الحشرات ، يأكل ويشرب ويبغى على الضعيف ويخاف من القوى .

والله قد جعل عطاءه للناس معلقا على إرادتهم ، ولا يقدر مثل هذا إلا القليل منهم .
(وسنجزى الشاكرين) الذين يعرفون أنعم الله عليهم ويستعملونها فيما يرق بهم إلى مراقى السكال ، فيعملون صالح الأعمال التي ترفع نفوسهم ، وتنفع أمتهم كأئس ابن النضر وأمثاله الذين جاهدوا وصبروا مع النبي صلى الله عليه وسلم بما كان لهم من الإرادة القوية التي كانت السبب في انجلاء المشركين عن المسلمين .

وبعد أن ضرب الله تعالى لهم المثل في أنفسهم بأنهم كانوا قبل الموقعة يتحرقون شوقا إلى لقاء العدو ، ثم أصابهم ما أصابهم عند لقاءه — ضرب لهم المثل بغيرهم من أتباع الأنبياء السالفين ورتبهم الذين لم يلحقهم وهن ولا ضعف بعد قتل أنبيائهم ، بل صبروا واحتملوا الإيذاء حتى تغلب الحق على الباطل .

وفي هذا من شديد التوبيخ لأولئك المنهزمين الذين لم يستنوا بسنة الرابانيين المجاهدين مع الرسل صلوات الله عليهم ، مع أنهم أجدر بذلك منهم إذ كانوا خير أمة أخرجت للناس فقال :

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) أى إن كثيرا من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير ممن آمن بهم واعتقد أنهم هداة ومعلمون لا أرباب معبودون ، فما وهنوا لما أصاب بعضهم من جرح أو قتل حتى ولو كان المقتول هو نبيهم نفسه ، لأنهم يقاتلون في سبيل الله لا في سبيل نبيهم ، علما منهم بأن النبي ما هو إلا مبلغ عن ربه وهاد لأمته « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » وما ضعفوا عن جهاد عدوهم ، ولا استكانوا ولا خضعوا له ، ولا ولوا الأدبار ، بل ثبتوا بعد قتل نبيهم كما ثبتوا معه في حال الحياة ، إذ هم على يقين من ربهم في أن الجهاد

فى السبيل التى يرضاها من تقرير العدل فى الأرض وحماية الحق وما يتبع ذلك ويلزمه .

والخلاصة — عليكم أن تعتبروا بحال أولئك الربيين وتصبروا كما صبروا ، فإن دين الله واحد . وسنته فى خلقه واحدة ، ومن ثم طلب إليكم أن تعرفوا عاقبة من سبقكم من الأمم ، وتقتدوا بعمل الصادقين الصابرين منهم ، وتقولوا مثل قول أولئك الربيين .

وبعد أن بين سبحانه مفاخر أفعالهم أردفها بمحاسن أقوالهم فقال :

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) أى إن هؤلاء الربيين لم يكن لهم من قول عند اشتداد الخطوب ونزول السكوارث إلا الدعاء لربهم بأن يغفر لهم بجهادهم ما كانوا الكوا به من الذنوب ، وتجاوزوا فيه حدود الشرائع ، وأن يثبت أقدامهم على الصراط القويم الذى هداهم إليه حتى لا ترحزهم الفتن ولا يعروهم الفشل والوهن حين مقابلة الأعداء ، وأن ينصرهم على القوم الكافرين الذين يمحذون الآيات ، ويعتدون على أهل الحق ، فلا يكتفونهم من إقامة ميزان القسط ، فما النصر إلا من عند الله يؤتیه من يشاء بمقتضى السنن التى هدى إليها خلقه ، وألهمها عباده .

وفى هذا إيماء إلى أن الذنوب والإسراف فى الأمور من عوامل الخذلان ، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح ، ومن ثم سألوا ربهم أن يحو من نفوسهم أثر الذنوب ، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تزل الأقدام . وقد قدموا طلب المغفرة من الذنوب على طلب النصر ليكون الدعاء فى حيز القبول ، فإن الدعاء المقرون بالخضوع والطاعة الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة . وفى طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التى دل عليها قوله : (ربيون كثير) إعلام بأنهم لا يعولون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحانى من الله بثبات الأقدام والتمسك بأهداب الحق .

كما أن في ذكر قولهم هذا دون ذكر ما فيه جزع وخور — تعريضاً بأولئك المهزمين من المسلمين يوم أحد .

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا) بالنصر على الأعداء ، والظفر بالغنيمة ، والسيادة في الأرض ، والكرامة والعزة وحسن الأحداث والذكر الحسن ، وقد سمي ذلك ثواباً لأنه جزاء على الطاعة ، وامتنال أوامر الله .

(وحسن ثواب الآخرة) بنيل رضوان الله ورحمته ، والقرب منه في دار الكرامة . وقد فسر بقوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وقوله في الخبر « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وما حصلوا على ذلك إلا بما قدموا من صالح العمل الذي كان له أحسن الأثر في نفوسهم فارتقت به إلى حظيرة القدس ، وتخصيص الحسن بهذا الثواب إيذان بفضل ، وأنه المعتقد به عند الله ، وأنه ثواب لا يشوبه أذى ، فهو ليس كثواب الدنيا عرضة للأذى والمنقصات .

وإنما جمع لهم بين الثوابين ، لأنهم أرادوا بعملهم هاتين السعادتين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، كما هو شأن المؤمن « وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً » .

وهذه الآية وأشباهها حجة على الغالين في الزهد الذين يتخرجون عن الاستمتاع بشيء من لذات الدنيا ، ويعدون ذلك منافياً للتقوى ، ومبعداً عن رضوان الله .
(والله يحب المحسنين) لأنهم هم الذين يقيمون سننه في أرضه ، ويظهرون بأنفسهم وأعمالهم أنهم جديرون بخلافة الله فيها ولا تكون أعمالهم إلا بما يرضى الله ، فهي من الله والله .

وقد جاء في الآية الترتيب هكذا - التوفيق على الطاعة ، ثم الثواب عليها ، ثم المدح على ذلك إذ سماهم محسنين ، ليكون في ذلك توجيه للعبد ليعلم أن كل ذلك بعنايته تعالى وفضله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)
سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ
بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

شرح المفردات

المراد بالذين كفروا أبو سفيان لأنه كان شجرة الفتن ، وقال آخرون المراد عبد الله بن أبيّ وأتباعه من المنافقين الذين ألقوا الشبهات في قلوب الضعفة من المؤمنين ، وقالوا لو كان محمد رسول الله ما وقعت هذه الواقعة ، وإنما هو رجل كسائر الناس يوم له ويوم عليه ، فارجعوا إلى دينكم الذى كنتم عليه ، يردوكم على أعقابكم أى يرجعوك إلى الكفر بعد الإيمان ، خاسرين أى لاستبدالكم ذلة الكفر بعزة الإسلام ، والانتقاد للأعداء الذى هو أشق شئ على النفوس ، ولحرمانكم من الثواب والوقوع في العذاب . والمولى الناصر والمعين والرعب شدة الخوف التى تملأ القاب ، والسلطان الحجة والبرهان وأصله القوة ، وسمى البرهان سلطاناً لقوته على دفع الباطل ، والمثوى المكان الذى يكون مقر الإنسان وماواه من قولهم ثوى يشوى ثويًا إذا أقام .

المعنى الجملى

بعد أن رغب الله المؤمنين في الافتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان ما لهم من الفضل وعظيم الأثر وحسن العاقبة .

نهامهم عن متابعة الكفار ببيان سوء مغبتها في دينهم ودينامهم ، والخطاب موجه إلى كل من سمع من المؤمنين مقالة أولئك القائلين من المنافقين - ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم ، فإن الكفار لما أرجفوا أن النبي قد قتل دعا المنافقون بعض ضعفة المسامحين إلى الكفر فنهاهم الله عن الانتفات إلى كلامهم .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) أى إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم فتقبلوا رأيهم وتنتصحوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون - يحملوكم على الردة بعد الإيمان والكفر بالله وآياته ويرجعوكم عن إيمانكم ودينكم الذى هداكم الله له خاسرين للدنيا والآخرة ، أما خسران الأولى فبخضوعكم لسلطانهم وذللتكم بينهم وحرمانكم من السعادة والملك والتمكين فى الأرض كما وعد الله المؤمنين الصادقين « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » .

وأما خسران الثانية فما يصيبكم من العذاب الأبدى فى النار وبئس القرار .
(بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) أى لا تفكروا فى ولاية أبى سفيان وشيعته ، ولا عبد الله بن أبى وحزبه ، ولا تأبهوا لإغوائهم فإنهم لا يستطيعون لكم نصرا ، وإنما الله هو الذى ينصركم بعنايته التى وعدكم بها فى قوله : « فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » فقد جرت سنته أن يتولى الصالحين ويخذل الكافرين كما قال : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ، ذَلِكَ بَيِّنٌ لِلَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » .

(سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) أى إنه سبحانه سيحكم فى أعدائكم الكافرين سنته ويلقى فى قلوبهم الرعب بسبب إشارا بهم بالله أصناما ومعبودات لم يقيم برهان من عقل ولا نقل على ما زعموا من

ألوهيتها ، وكونها واسطة بين الله وخلقه ، وإنما قلدوا في ذلك آباءهم الذين ضلوا من قبل ، ومن ثم كانوا عرضة لاضطراب القلب ، واتباع خطوات الوهم ، فهم يعدون الوسواس أسبابا ، والمواجس مؤثرات وعللا ، ويرجون الخير مما لا يرجى منه الخير ، ويخافون مما لا يخاف منه الضير .

وفي الآية إيماء إلى بطلان الشرك ، وسوء أثره في النفوس ، إذ طبيعته تورث انقلاوب الرعب ، باعتقاد أن لبعض المخلوقات تأثيرا غيبيا وراء السنن الإلهية ، والأسباب العادية ، فالمشركون الذين جاهدوا الحق ، وآثروا مقارعة الداعى ومن استجاب له بالسيف ، بغيا وعدوانا — يرتابون فيما هم فيه ويتزلزلون إذا شاهدوا الذين دعوهم ثابتن مطمئنين ، ولا يزال ارتيابهم يزيد حتى تمتلئ قلوبهم رعبا .

والخلاصة — أن طبيعة المشركين إذا قاوموكم أيها المؤمنون ، أن تكون نفوسهم مضطربة ، وقلوبهم ممتلئة رعبا وهلعا منكم فلا تخافوهم ، ولا تبالوا بقول من يدعوكم إلى مولاتهم والالتجاء إليهم .

وبعد أن بين أحوال هؤلاء المشركين في الدنيا من وقوع الخوف والهلع في قلوبهم — ذكر أحوالهم في الآخرة فقال :

(ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) أى إن مسكنهم النار بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود ومعاندة الحق ومقاومة أهله ، وظلمهم للناس بسوء المعاملة . وفي التعبير بالمشوى المنبى عن المكث الطويل دليل على الخلود فيها .

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُمُ بِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا اللَّهَ وَتَأْخُذُوا بِمَوَاقِدِ الْوَعْدِ وَأَنْ تَقُولُوا حَقَّ قَوْلُ اللَّهِ وَتَتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ،

وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ
وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ ، فَأَثَابَكُمْ غَمًّا
بِغَمٍّ لَكِنِّي لَآتَخِزُونَا عَلَى مَا فَأَتَكُمُ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى
طَائِفَةً مِّنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ،
يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ
مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا . قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ
الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ
يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا
اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

شرح المفردات

يَحْسُونَهُمْ: أى تستأصلونهم بالقتل من قولهم: جراد محسوس: إذا قتله البرد، وسنة
حسوس: إذا أتت على كل شيء، فكان القتال أبطل حسه بالقتل كما يقال بطنه
أصاب بطنه، ورأسه أصاب رأسه، بإذنه أى بعونه وتأييده، فشلت أى ضعفت،
فى الأمر أى أمر الحرب، صرفكم عنهم أى كفكم عنهم حتى تحولت الحال من الغلبة
إلى ضدها، ليبتليكم أى ليختبركم، والمراد ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر،

عفا عنكم أى تاب عليكم ، تصعدون أى تذهبون فى الأرض وتبعدون ، يقال أصدنا من مكة إلى المدينة أى ذهبنا ، ولا تلون على أحد أى لا تلتفتون إلى أحد من شدة الحرب ، يقال فلان لا يلوى على شىء أى لا يعطف عليه ولا يبالي به ، فى أخراكم أى فى آخركم يقال جئت فى آخر الناس ، وفى أخراهم ، وفى أخرياتهم ، فأثابكم أى جازاكم ، الغم : ألم أو ضيق فى الصدر يكون من الأمر الذى يسوء الإنسان ولا يدرى الخرج منه ، والأمنة الأمن وهو ضد الخوف ، يغشى : يغطى ويستتر ، يقال غشيه النعاس أو النوم أى غطاه كما يلقى الستر على الشىء ، لبرز : أى لخرج لسبب من الأسباب ، إلى مضاجعهم : أى مصارعهم التى قدر قتلهم فيها ، وذات الصدور السرائر ، والجمعان جمع للمؤمنين وجمع المشركين ، استزفهم أى أوقعهم فى الزلل والخطيئة ، ببعض ما كسبوا أى بسبب بعض الذنوب التى افترقوها ، فمنعوا من التأييد الإلهى .

المعنى الجملى

روى ابن جرير عن السدى قال : لما برز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأحد أمر الرماة فقاموا بأصل الجبل فى وجوه خيل المشركين وقال لهم : لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم ، فإننا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، ثم إن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال : يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يُعجلنا بسيفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيفنا إلى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة ، أو يعجلنى بسيفه إلى النار ؟ فقام إليه على بن أبى طالب فقال : والذى نفسى بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار ، أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة ، فضر به على ففقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال : أنشدك الله والرحم يابن عم فتركه ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أصحاب على له : ما منعك أن تجهز عليه ؟ قال : إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته فاستحييت منه ، ثم شد الزبير بن العوام والمقداد

ابن الأسود على المشركين فهزمهم ، وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهزموا
أبا سفيان ، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل فرمته الرماة
فانقمع .

ثم لما نظر الرماة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جوف عسكر
المشركين ينتهبونه بادروا الغنيمة ، فقال بعضهم : لا نترك أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر .

فلما رأى خالد قلة الرماة صاح في خيله ، ثم حمل على أصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم ، فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل تنادوا ، فشدوا على المسلمين فهزموهم
وقتلوا منهم نحو سبعين .

ونستخلص من هذه الرواية أمرين :

(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الرماة ألا يبرحوا مكانهم ، وأنه قال لهم
لأنزال غالبين ما ثبتتم مكانكم .

(٢) أن الذي عصى أمره من الرماة عامتهم ، أما الذين بلغ الإيمان قرارة
نفوسهم فقد ثبتوا .

وروى الواحدى عن محمد بن كعب قال : لما رجع رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد - قال ناس من أصحابه ، من أين
أصابنا هذا ، وقد وعدنا الله تعالى النصر؟ فأنزل الله (ولقد صدقكم الله وعده) الآية .

الإيضاح

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) أى ولقد وفى لكم ربكم بوعده
الذى وعدكم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من النصر على العدو حين
تقتلون قتلا ذريعا بتيسير الله ومعونته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدهم
النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره .

(حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ماتحبون) أى صدقكم الله وعده حتى ضعفت في الرأى والعمل ، فلم تقفوا على حبس أنفسكم عن الغنيمة ، وتنازعتم ، فقال بعضكم : ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون؟ وقال آخرون : لا نخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعصيت رسولكم وقائدكم بترك أكثر الرماة للمكان الذى أقامهم فيه يحمون ظهور المقاتلة بنضح المشركين بالنبل ، من بعد ما أراكم ماتحبون من النصر والظفر ، فصبرتم على الضراء ولم تصبروا على السراء .

وصفوة القول — أن الله نصركم على عدوكم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع وعصيان أمر قائدكم صلى الله عليه وسلم ، فانتهى النصر ، لأن الله تعالى إنما وعدكم النصر بشرط التقوى والصبر على الطاعة .

وفى قوله من بعد ما أراكم ماتحبون — تنبيه إلى عظم المعصية ، لأنه كان من حقهم حين رأوا إكرام الله لهم بإنجاز الوعد أن يمتنعوا عن عصيانه فلما أقدموا عليه لاجرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم .

(منكم من يريد الدنيا) وهم الذين تركوا مقعدهم الذى أقعدهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب من أحد وذهبوا وراء الغنيمة .

(ومنكم من يريد الآخرة) وهم الذين ثبتوا من الرماة مع قائدكم عبد الله بن جبير وهم نحو عشرة وكان الرماة قبلاً نحو خمسين ، والذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثون رجلاً .

(ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) أى ثم كفكم عنهم حتى تحولت الحال من النصر إلى ضدها ، ليعاملكم معاملة من يمتحن ، ليستبين أمركم وثباتكم على الإيمان .

والخلاصة — أن الله صدقكم وعده ، فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حسن واستئصال ، ثم صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم ، وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك أى ليكون ذلك ابتلاء واختباراً لكم يحصكم به ، ويميز الصادقين من المنافقين .

(ولقد عفا عنكم) بذلك التخييص الذي محأ أثر الذنب من نفوسكم حتى صرتم كأنكم لم تفشوا ، وقد استبان أثر هذا العفو فيما بعد ، كما حدث في وقعة (حراء الأسد) .

(والله ذو فضل على المؤمنين) أى والله ذو فضل وطول على أهل الإيمان به ورسوله ، فيعفو عن كثير مما يستوجبون به العقوبة من الذنوب ، ولا يذرم على ما هم عليه من تقصير يهبط بنفوس بعض ، وضعف يلم بأخرين ، بل يحص ما في صدورهم حتى يكونوا من المخلصين الطائعين الخبئين .

(إذ تصعدون ولا تعون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) أى صرفكم عنهم حين أصعدتم وذهبتهم منهزمين ، لا تلتفتون من شدة الدهشة التي عرتكم ، والذعر الذي فجأكم .

وبينا أنتم في هذه الحال إذا بالرسول يدعوكم من وراءكم وينادى ، هلم إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكره فله الجنة ، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون ، وقد كان لكم أسوة بالرسول ، فتقتدون به في الصبر والثبات .

(فأنا بكم غما بغم) قال في الأساس : إنه لفي غمة من أمره : إذا لم يهتد للخروج منه . ومنه قوله تعالى : «لَا يَسْكُنُ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً» والغم الأول ما حصل للصحابه رضوان الله عليهم بالهزيمة والقتل ، والغم الثانى للرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره ، أى إنكم لما أذقتم الرسول غما بسبب عصيانكم أمره ، أذاقكم الله غم الانهزام وقتل الأحباب .

والخلاصة — أنه أذاقكم هذا عوض هذا .

وقد يكون المعنى — جازاكم غما متصلا بغم من الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الجرح والقتل وظفر المشركين بكم حتى صرتم من شدة الدهش يضرب بعضهم بعضا ، وقد فانتكم الغنيمة التي طعمتم فيها .

(لكي لا تحزنوا على ما فاتكم) أى لأجل أن تمرنوا على تجرع الغوم ،

وتتعودوا احتمال الشدائد ، فلا تحزنوا فيما بعد على ما يفوت من المنافع والمغانم .
(ولا ما أصابكم) أى ولا تحزنوا على ما أصابكم من المضار ، إذ التربية إنما تكون بالعمل والمران الذى يكمل به الإيمان وتثبت الفضائل .

(والله خبير بما تعملون) فهو عالم بجميع أعمالكم ومقاصدكم ، والدواعى التى حفزتكم عليها ، وفادر على مجازاتكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .
وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن الإقدام على المعصية .

(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا) أى ثم وهبكم من بعد الغم الذى اعتراكم أمانا ، أزال عنكم الخوف الذى كان بكم ، حتى نعستم وغلبكم النوم ، لتستردوا ما فقدتم من القوة بما أصابكم من القرح وما عرض لكم من الضعف .

والنوم نعمة كبرى لمن يصاب بمثل تلك المصائب ، وعناية من الله ينخص بها بعض عباده فى مثل تلك المحن ليخفف وقعها على النفوس .

وعن أبى طلحة رضى الله عنه غشينا النعاس ونحن فى مصافنا . فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه ، وما من أحد إلا يميل تحت حجبته (ترسه) .

وعن الزبير رضى الله عنه ، لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد علينا الخوف ، فأرسل الله عيننا النوم ، والله إني لأسمع معتب بن قشير والنعاس يغشاني ، ما أسمعهم إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا .
(يغشى طائفة منكم) قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الأنصار الذين كانوا على بصيرة فى إيمانهم .

(وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يقال هنى الشيء أى كان من همى وقصدى أى وجاعة من المناققين كهبد الله بن أبى ومعتب بن قشير ومن لف لفهم ، قد شغلوا بأنفسهم عن الرسول والدفاع عن الدين .

وخلاصة هذا — أن المؤمنين بعد انتهاء الموقعة صاروا فريقين :

(١) فريق ذكروا ما أصابهم فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم ، وذكروا وعد الله بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم ، ووثقوا بوعد ربهم ، وأيقنوا أنهم إن غلبوا هذه المرة بسبب ما أصابهم من الفشل والتنازع وعصيان الرسول ، فإن الله سينصرهم بعد ، فأنزل الله عليهم النعاس أمنة حتى يستردوا ما فقدوا من قوة ، ويذهب عنهم ما عرض لهم من ضعف .

(٢) فريق أذهلهم الخوف حتى صاروا مشغولين عن كل ماسواهم ، إذ الوثوق بوعد الله ووعد رسوله لم يصل إلى قرارة نفوسهم ، لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم ، لاجرم عظم الخوف لديهم وحق عليهم ما وصفهم الله به من قوله : (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) غير الحق أى غير الظن الحق الذى يجب أن يظنوه ، إذ كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد نبيا حقا ما ساط الله عليه الكفار وهذا مقال لا يقوله إلا أهل الشرك بالله ،

(يقولون هل لنا من الأمر من شيء ؟) أى يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار : هل لنا من النصر والفتح والظفر نصيب ؟ يعنون أنه ليس لهم من ذلك شيء ، لأن الله سبحانه وتعالى لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهم قد فهموا أن النصر وحقية الدين متلازمان ، فما حدث فى ذلك اليوم دليل على أن هذا الدين ليس بحق ، وهذا خطأ كبير ، فإن نصر الله رساله لا يمنع أن تكون الحرب سجالا ولكن العاقبة للمتقين .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها .

(قل إن الأمر كله لله) أى إن كل أمر يجرى فيه على حسب سننه تعالى فى الخليقة ، وعلى وفق النظم التى وضعها ، وربط فيها الأسباب بالمسببات . ومن ذلك نصر من ينصره من المؤمنين كما وعد بذلك فى قوله : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقوله : « وَإِنْ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » . (يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك) أى يضمرون فى أنفسهم مالا يستطيعون

إعلانه لك ، فهم يظهرون أنهم يسألون مسترشدين طالبين النصر بقولهم (هل لنا من الأمر من شيء) ويبطنون الإنكار والتكذيب .

(يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) أى يقولون لو كان أمر النصر والظفر بأيدينا كما ادعى محمد أن الأمر كله لله ولأوليائه ، وأنهم الغالبون لما غلبنا قط ، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة .

وهذا منهم تقرير لرأيهم واستدلال عليه بما وقع لهم ، وقد غفلوا عن أن الآجال محدودة ، والأعمار موقوتة بوقت لا تعدوه ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يحجبههم بقوله : (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتلى إلى مضاجعهم) أى لو كنتم في بيوتكم ولم تخرجوا للقتال — لخرج من بينكم من انتهت آجالهم وثبت في علم الله أنهم يقتلون إلى حيث يقتلون ويسقطون في البراز (الأرض المستوية) فتكون مصارع ومضاجع لهم .

والخلاصة أن الحذر لا يدفع القدر ، والتدبير لا يقاوم التقدير ، فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال ، وإلا انقلب علم الله جهلا ، فقتل من قتل إنما جاء لانتها آجالهم كما قدر ذلك في اللوح المحفوظ ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كله .

(وليبتلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) أى وقد فعل ذلك ليكون القتل عاقبة من انتهت آجالهم ، وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص وعدمه ، فيظهر ما انطوت عليه من ضعف وقوة ، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان ، ويظهرها حتى تصل إلى الغاية القصوى من الايقان .

وقد قيل : لا تكرهوا الفتن ، فإنها حصاد المناقنين .

(والله عليم بذات الصدور) أى عليم بالأسرار والضمائر ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وفي هذا ترغيب وتهيب ، وتنبيه إلى أن الله غنى عن الابتلاء والامتحان ،

وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كمران المؤمنين على الصبر وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين ، لأن الحقائق قد تخفى على أربابها ، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيص ولا ابتلاء ، كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه كما تقدم .

(إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) أى إن الرماة الذين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يثبتوا في أما كنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين ، ما تركوا هذه المواقع إلا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل واستجراهم لهم بالوسوسة ، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص فيها الإنسان سهلت استيلاء الشيطان على نفسه ، فهم قد انحرفوا عن أما كنهم بتأول ، إذ ظنوا أنه ليس للمشركين رجعة من هزيمتهم ، فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنائم فوات منفعة ولا وقوع في ضرر ، ولكن هذا التأول كان سببا في كل ما جرى من المصائب التي من أجلها ما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذنب يجر إلى الذنب ، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة ، وعلى هذا فالزلل الذى أوقعهم فيه الشيطان هو ما كان من الهزيمة والفشل بعد توليهم عن مكانهم طمعا في الغنيمة ، وهذا التولى هو بعض ما كسبوا .

وفى هذا إيماء إلى سنة من سنن الله فى أخلاق البشر وأعمالهم ، وهى أن المصيب التى تعرض لهم فى خاصة أنفسهم أو فى شئونهم العامة ، إنما هى آثار طبيعية لبعض أعمالهم ، ولكن الله قد يعفو عن بعض الأعمال التى لا أثر لها فى النفس وليست ملكة ولا عادة لها ، بل صدرت هفوة غير متكررة ، وهى التى عنها سبحانه بقوله : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » وإليها الإشارة بقوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

فهذه المصائب والعقوبات ، سواء أكانت فى الدنيا أم فى الآخرة — آثار طبيعية للأعمال السيئة .

(ولقد عفا الله عنهم) أى إن ماصدر منهم من الذنوب فى هذا اليوم يستحق أن يعاقبوا عليه فى الدنيا والآخرة ، لكن الله عفا عن عقوبتهم الأخروية ، وجعل عقوبتهم فى الدنيا تربية وتمحيصا .

وفى هذا دفع لاستيلاء اليأس على نفوسهم ، وتحسين لظنونهم .
(إن الله غفور حلیم) أى إن الله يغفر الذنوب جميعا صغيرها وكبيرها بعد التوبة والاعتذار ، حلیم لا يعاجل بالعقوبة على الذنب .

وقد جاءت هذه الجملة كأنسب للعفو عن هؤلاء المتولين وقد كانوا أكثر المقاتلين ، فإنه لم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد إلا ثلاثة عشر رجلا ، خمسة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار ، وقد بالغ بعض المهزمين فى الفرار حتى إن بعضهم لم يرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد ثلاثة أيام ، فقال لهم لقد ذهبتم بها عريضة ، وبعضهم رجع فى ذلك اليوم واجتمعوا على الجبل كعمر بن الخطاب رضى الله عنه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ، وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى : لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا
لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ
خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

شرح المفردات

المراد بالذين كفروا هنا المنافقون كعبد الله بن أبي وأصحابه ، ضربوا فى الأرض أى سافروا فيها للتجارة والكسب ، لإخوانهم أى فى شأنهم ، والأخوة تشمل أخوة النسب وأخوة الدين والمودة ، وغرَى : واحد هم غاز وهو المقاتل فى الحرب .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف لعباده المؤمنين أن الهزيمة التى حلت بهم يوم أحد كانت بوسواس من الشيطان استزلهم به فزلوا — حذرهم هنا من مثل هذه الوسوسة التى أقسد بها الشيطان قلوب الكافرين .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) أى لا تكونوا أيها المؤمنون كأئتك المناققين الذين قالوا فى شأن إخوانهم حين سافروا فى الأرض للتجارة والكسب فماتوا ، أو كانوا غزاة فى وطنهم أو فى بلاد أخرى فقتلوا ، لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا .

وعبر عن هؤلاء المناققين بالكافرين ، لبيان أن مثل هذا لا ينبغى أن يصدر من المؤمنين ، بل إنما يصدر من الكافرين ، إذ أن من مات أو قتل فقد انتهى أمره ، فقولهم (لو كان كذا) عبث لأن ما وقع لا يرتفع ، والحسرة عليه لا تنفد ، ومن شأن المؤمنين أن يكونوا صحيحى العقل والإدراك .

إلى أن فى هذا القول جهلا بالدين وجحداً له فإن الله يقول : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا » وعقيدة القضاء والقدر لا تجعل المسلم مجبوراً على أفعاله التى تصدر منه ، فإن القضاء تعلق العلم الإلهى بالشئ ، والعلم انكشاف لا يفيد الإلزام ، والقدر وقوع الشئ على حسب العلم ، والعلم لا يكون إلا مطابقاً للواقع وإلا كان جهلا .

والله تعالى قد جعل للإنسان اختياراً فى أفعاله ، لكنه خلقه مع ذلك ناقص القدرة والإرادة والعلم ، فقد يعزم على العمل ثم تنفسخ عزيمته لتغير علمه بالمصلحة ،

أو لعجزه عن تنفيذ ما عزم عليه ، مع اعتقاده بأنه هو الموافق للمصلحة لمرض يلم به ، أو مانع يحول بينه وبين تنفيذ ما عزم عليه .

وإننا نرى هذا يحدث كل يوم ، فليس الإنسان بقادر على أن يفعل كل ما يشاء كما يخيل إلى الناس اعتقاراً بما ينفذونه من عزائمهم ، فاختياره في أعماله وقدرته عليها ومعرفة الأسباب ، كل ذلك له حدود لا يتعداها ، فهو لا يحيط علماً بأسباب الموت ، ولا يقدر على اجتناب كل ما يعلم من أسبابه ، وما كل ما يتعرض له يقع ، فالذين يعرضون أنفسهم لنار الحرب قد يسلم أكثرهم ويقتل أقلهم .

ومن هذا تعلم أن الشيء متى وقع علم أن وقوعه لم يكن منه بد ، وأن الإنسان إذا كان يؤمن بمعونة الله وتأنيده ، وأنه يوقفه إلى علم ما يحل من أسباب سعادته ، يكون مع أخذه بالأسباب أنشط في العمل ، وأبعد عن اليأس والكسل .

(ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) أى لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا فيمن ماتوا أو قتلوا ما قالوا ، ليكون عاقبة ذلك القول مع الاعتقاد حسرة في قلوبهم على من فقد من إخوانهم تزيدهم ضعفاً وتورثهم ندماً على تمكينهم إياهم من التعرض لما ظنوه سبباً ضرورياً للموت ، فإنكم إذا كنتم مثلهم في ذلك يصيبكم من الحسرة مثل ما يصيبهم ، وتضعفون عن القتال كما يضعفون ، فلا يكون لكم ميزة عنهم بالعقل الراجح الذى يهذى صاحبه إلى أن الذى وقع كان لابد أن يقع ، فلا يتحسر عليه ، ولا بالإيمان الصادق الذى يزيد صاحبه إيقاناً وتسليماً بكل ما يجرى به القضاء .

(والله يحيى ويميت) أى والله هو المؤثر وحده في الحياة والموت بمقتضى سننه في أسبابهما ، وليس للإقامة والسفر مدخل فيهما ، فإن الله قد يحيى المسافر والغزى مع تعرضهما لأسباب الهلاك ، ويميت المقيم والقاعد وإن كانا تحت ظلال النعيم .

وقد أثر عن خالد بن الوليد أنه قال عند موته : ما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت كما يموت العير (الحمار) فلا نامت أعين الجبناء . (والله بما تعملون بصير) فلا يخفى عليه شيء مما تكونون فى أنفسكم من المعقنات

التي لها أثر في أقوالكم وأفعالكم ، فاجعلوا نفوسكم طاهرة من وساوس الشيطان حتى لا يصدر منها ما يصدر من الكفار .

وفي هذا تهديد المؤمنين حتى لا يماثلوا الكفار في أقوالهم وأفعالهم .

(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) الموت في سبيل الله هو الموت في عمل من الأعمال التي يعملها الإنسان في سبيل البر والخير التي هدى الله الإنسان إليها ويرضاها منه . فالحارب قد يموت في أثناء الحرب من التعب والإعياء ، أو الإتيان بعمل من الأعمال التي تستدعيها الحروب فيكون هذا موتاً في سبيل الله .

أى إن مغفرة الله ورحمته لمن يموت أو يقتل في سبيل الله ، خير لكم من جميع ما يتمتع به الكفار من المال والمتاع في هذه الدار الفانية ، فإن هذا ظل زائل ، وذلك نعيم خالد .

والخلاصة — أن ما ينتظره المؤمن المقاتل في سبيل الله من المغفرة التي تمحو ما كان من ذنوبه ، والرحمة التي ترفع درجاته — خير له مما يجمع أولئك الحريصون على الحياة الذين يتتبعون بالذات والشهوات .

فما أجدر المؤمنين أن يؤثروا مغفرة الله ورحمته على الحظوظ الفانية ، ولا يتحسروا على من يقتل منهم أو يموت في سبيل الله ، فإن ما يلقونه بعدها خير لهم مما كانوا فيه قبلها .

(ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) أى إنكم بأى سبب كان هلاككم فإنكم إلى الله تحشرون لا إلى غيره ، فيجزى كلا منكم بما يستحق من الجزاء ، فيجازى الحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، ولا يرجى من غيره ثواب ، ولا يتوقع منه دفع عقاب ، فأثروا ما يقر بكم إليه ، ويحلب لكم رضاه من العمل بطاعته ، وعليكم بالجهاد في سبيله ، ولا تركزوا إلى الدنيا ولذاتها ، فإنها فانية ، وتلك الحياة الأخرى باقية خالدة .

والمراد من الحشر إلى الله فى مثل هذا مما جاء فى القرآن الكريم ، أن الإنسان فى ذلك اليوم الذى يحشر فيه الناس يستقبل ما يلاقيه من الله جزاء عمله ، لا يشغله عنه شيء ، فىكون بذلك راجعاً عن كل شيء فيه إلى الله ، محشوراً مع سائر الناس . أما الإنسان فى هذه الدار فقد يغفل عن الله وينسى هيئته وجلاله ، وعظمته وسلطانه ، لاشتغاله بدفع المكاره عن نفسه ، وجلب اللذات والרגائب لها . وإذا كان هذا مصير كل حى مهما كان سبب موته أو قتله ، فالاشتغال بذكر سبب المصير ومبدئه لا يفيد ، وإنما الذى يجدر بالعاقل هو الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له ، والعمل لما به الفوز والسعادة فيه .

فَمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنَّ
يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ . وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

شرح المفردات

اللين فى المعاملة : الرفق والتلطف فيها ، والفظ : الخشن الشرس الأخلاق الجافى فى المعاشرة فى القول والفعل ، والغليظ : القاسى الذى لا يتأثر قلبه من شيء ، وانفض القوم : تفرقوا كما قال : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا » والمشاورة : من قولهم شرت العسل إذا اجتنبتها واستخرجتها من موضعها ، والمراد بالأمر سياسة الأمة فى الحرب والسلم والخوف إلى نحو ذلك من المصالح الدنيوية ، والتوكل : إظهار العجز والاعتماد على غيرك والاكتفاء به فى فعل ما تحتاج إليه .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد سبحانه عباده المؤمنين فى الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم — زاد فى الفضل والإحسان إليهم فى هذه الآيات بأن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على عفوهم وتركه التغليظ عليهم ، وقد نزلت هذه الآيات عقب وقعة أحد التى خالف فيها النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، وكان من جرّاء ذلك ما كان من الفشل وظهور المشركين عليهم حتى أصيب النبى صلى الله عليه وسلم مع من أصيب ، فصبر وتجلّد ولان فى معاملة أصحابه وخاطبهم بالرفق ولم يعاتبهم ، اقتداء بكتاب الله إذ أنزل فى هذه الواقعة آيات كثيرة بين فيها ما كان من ضعف بعض المسلمين وعصيانهم وتقصيرهم ، حتى ذكر الظنون والهواجس النفسية ، لكن مع العتب المقترن بذكر العفو والوعد بالنصر وإعلاء الكلمة .

الإيضاح

(فبما رحمة من الله لنت لهم) أى إنه قد كان من أصحابك ما يستحق الملامة والتعنيف بمقتضى الطبيعة البشرية ، إذ صدروا عنك حين اشتداد الأهوال ، وشمروا للهزيمة والحرب قائمة على قدم وساق ، ومع ذلك لنت لهم وعاملتهم بالحسنى بسبب الرحمة التى أنزلها الله على قلبك ، وخصك بها ، إذ أمدك بأدب القرآن العالية ، وحكمه السامية ، حتى هانت عليك المصائب ، وعمت ما لها من المنافع وحسن العواقب .

وقد مدح الله نبيه بحسن الخلق فى مواضع من كتابه فقال : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » وقال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم « لا حلم

أحبَّ إلى الله تعالى من حلم إمام ورقته ، ولا جهل أبغض إلى الله من جهل إمام وخرقه .»

(ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) أى لو كنت خشناً جافياً فى معاملتهم لتفرقوا عنك ، ونفروا منك ، ولم يسكنوا إليك ، ولم يتم أمرك من هدايتهم وإرشادهم إلى الصراط السوى .

ذاك أن المقصود من بعثة الرسل تبليغهم شرائع الله إلى الخلق ، ولا يتم ذلك إلا إذا مالت قلوبهم إليهم ، وسكنت نفوسهم لديهم ، وذلك إنما يكون إذا كان الرسول رحيماً كريماً يتجاوز عن ذنب المسىء ، ويعفو عن زلاته ، ويخصه بوجوه البر والمكرمة والشفقة .

(وشاورهم فى الأمر) أى اسألك معهم سبيل المشورة التى انبعتها فى هذه الواقعة ودم عليها . فإنهم وإن أخطئوا الرأى فيها ، فإن فى تربيتهم عليها دون الانقياد لرأى الرئيس وإن كان صواباً ، نفعاً فى مستأنف أمرهم ومستقبل حكومتهم ما حافظوا عليها .

فالجماعة أبعد عن الخطأ من الفرد فى أكثر الحالات ، وما ينشأ من الخطر على الأمة بتفويض أمرها إلى واحد مهما حصف رأيه ، أشد من الخطر الذى يقترب على رأى الجماعة .

وما كانت الاستشارة سبيلاً للنزاع ولا سبباً إذا كثرت المشاورون — أمر الله نبيه أن يقرر هذه السنة عملاً ، فكان يستشير صحبه بهدوء وسكينة ويصغى إلى كل قول ويرجح رأياً على رأى بما يرى فيه من المصلحة والفائدة بقدر المستطاع .

وقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم بالشورى فى حياته ، فكان يستشير السواد الأعظم من المسلمين ، ويخص بها أهل الرأى والمكانة فى الأمور التى يضر إفشاؤها .

فاستشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة للحرب ولم يبرم الأمر حتى صرح المهاجرون والأنصار بالموافقة ، واستشارهم يوم أحد كما علمت ، وهكذا كان

يستشيرهم في كل مهم ما لم ينزل عليه فيه وحى ، فإنه إذ ذاك لابد من نفاذه ، ولم يضع النبي صلى الله عليه وسلم قواعد للشورى ، لأنها تختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية ، وبحسب الزمان والمكان ، ولأنه لو وضع لها قواعد لاتخذها المسلمون ديناً وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان ، ومن ثم قال الصحابة في اختيار أبي بكر خليفة ، رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا - أمره بالإمامة في الصلاة حين مرضه - أفلا نرضاه لديننا ؟ .

ولكن الخلفاء فيما بعد لم يتبعوا هذه السنة ، ولا سيما زمن الدولة العباسية ، إذ كان للأعاجم سلطان كبير في ملكهم ، ثم جرى على ذلك سائر الملوك من المسلمين فيما بعد ، وجاراهم على ذلك علماء الدين ، حتى ظن كثير من غير المسلمين أن السلطة في الإسلام استبدادية ، وأن الشورى اختيارية ، ولكن هذا بعيد من الصواب ، بعد أن صرح القرآن بالشورى وأمر نبيه بها وهو المعصوم عن الهوى .
وللشورى فوائد جمة منها :

(١) أنها تبين مقادير العقول والأفهام ، ومقدار الحب والإخلاص للمصالح العامة .
(٢) أن عقول الناس متفاوتة وأفكارهم مختلفة ، فربما ظهر لبعضهم من صالح الآراء ما لا يظهر لغيره وإن كان عظيماً .

(٣) أن الآراء فيها تقلب على وجوهها ، ويختار الرأي الصائب من بينها .
(٤) أنه يظهر فيها اجتماع القلوب على إنجاح المسعى الواحد ، واتفاق القلوب على ذلك مما يعين على حصول المطلوب ، ومن ثم شرعت الاجتماعات في الصلوات ، وكانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة .

وعن الحسن رضي الله عنه : قد علم الله أن مابه إليهم حاجة ، ولكن أراد أن يستنّ به من بعده ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما تشاور قوم قط إلا هتدوا لأرشد أمرهم » وعن أبي هريرة رضي الله عنه : ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(فإذا عزمت فتوكل على الله) أى فإذا عقدت القلب على فعل شيء وإمضائه بعد المشاورة ومبادلة الرأى فيه ، فتوكل على الله ، وفوض الأمر إليه بعد أخذ الآهبة واستكمال العدة ، ومراعاة الأسباب التى جعلها الله وسيلة للوصول إلى المسببات كما ورد فى الحديث « اعقنها وتوكل » .

ولا تتكل على ما أوتيت من حول وقوة ، ولا على إحكام الرأى وأخذ العدة ، فذلك كله ليس بكاف فى النجاح ما لم تقرن به معونة الله وتوقيفه ، لأن الموانع الخارجية والعوائق التى تحول دون الوصول إلى البغية ، لا يحيط بها إلا علام الغيوب ، فلا بد من الاتكال عليه والاعتماد على حوله وقوته .

وفى الآية إيماء إلى وجوب إمضاء العزيمة متى استكملت شروطها التى من أهمها المشورة .

وسر هذا أن نقض العزائم خور فى النفس ، وضعف فى الأخلاق يجعل صاحبه غير موثوق به فى قول ولا فعل ، ولا سيما إذا كان رئيس حكومة ، أو قائد جيش ، ومن ثم لم يصغر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مشورة من رجع عن رأيه الأول وهو الخروج إلى أحد حين لبس لامته وخرج ، إذ رأى أن هذا شروع فى العمل بعد أن أخذت الشورى حقها .

وبذلك علمهم أن السكل عمل ميقاتا محدودا ، وأن وقت المشورة متى انتهى جاء طور العمل ، وأن الرئيس إذا شرع فى العمل تنفيذا للشورى لا يجوز أن ينقض عزيمته ، ويبطل عمله ، ولو كان يرى أن أهل الشورى أخطئوا الرأى والتدبير كما حدث فى مسألة أحد كما تقدم .

ولا يزال أهل السياسة والحرب فى البلاد ذات الحضارة والمدنية يجرون على هذه القاعدة ويعملونها دستورا لأعمالهم ، ولا ينقضونها على أى حال ، حتى قال أحد كبار الساسة الإنجليز : إن السياسة متى قررت شيئا وشرعت فيه وجب إمضاؤه وامتنع نقضه والرجوع عنه وإن كان خطأ .

(إن الله يحب المتوكلين) عليه الواثقين به ، فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم ، كما تقتضيه الحجة .

وفي الآية إرشاد للمكلفين ، وترغيب لهم في التوكل على الله ، والرجوع إليه ، والإعراض عن كل ما سواه .

قال الرازي : دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقول بعض الجهال ، وإلا كان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل عليه أن يراعى الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها ، بل يعول على عصمة الحكمة اهـ .

فالتوكل الصحيح إنما يكون مع الأخذ بالأسباب ، وبدونها يكون دعوى التوكل جهلا بالشرع وفسادا في العقل ، قال تعالى : « فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » وقال : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » وقال : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وقال لنبيه لوط : « فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » وقال لموسى عليه السلام : « فَاسْرِبْ بِعِبَادِي لَيْلًا » وقال حكاية عن نبيه يعقوب لابنه يوسف : « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » وقال أيضا حاكيا عنه : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » ففي هذا أمر بالخذل مع التنبيه إلى أنه متوكل على الله ولا تنافى بينهما ، ولا غنى للمؤمن عنهما .

روى أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن ابن عباس مرفوعا « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ، الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتنون وعلى ربهم يتوكلون » وقد قرن التوكل بترك الأعمال الوهمية دون غيرها ، إذ لم ينف من

الأعمال إلا الاستشفاء بالرُّقِيَّةِ وهي إنما يطلبها الجاهلون بالأسباب الحقيقية ، وإلا التطير وهو التيمن والتشاؤم بحركات الطير ، وإلا الكي بالنار وكانوا يتداوون به في الجاهلية ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرهه لأَمته ، ويعده من الأسباب المؤلمة التي تنافي التوكل ، وقد روى أحمد « لم يتوكل من استرق أو اكتوى » .
وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خفاصا وتروح بطانا » وهو ظاهر في أن التوكل يكون مع السعي ، لأنه ذكر للطير عملا وهو الذهاب صباحا في طلب الرزق وهي فارغة البطن والرجوع وهي ممتلئتها .

وأخرج ابن حبان في صحيحه : « حديث الرجل الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يترك ناقته وقال : أعقلها وتوكل ، أو أطلقها وتوكل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أعقلها وتوكل » .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : قتل لأبي هؤلاء المتوكلون يقولون : نقعد ورازقنا على الله عز وجل ، قال : ذا قول ردى خبيث ، يقول الله عز وجل : « إِذَا نُودِيَ لِمُتْلَاةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » وقال أيضا : سألت أبا عن قوم يقولون : نتكل على الله ولا نكتسب ، قال : ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعودون أنفسهم الكسب ، هذا قول إنسان أحق .

وسر هذا أن الإنسان إذا توكل ولم يستعد للأمر ويأخذ له الأهبة على حسب ماسنه الله من الأسباب ، أسف وندم وتحسر على ما فات ، وعدُّ ملوما عقلا وشرعا ، كما أنه إذا أخذ الأهبة واعتمد عليها وغفل قلبه عن الله كان عرضة للهباع والجزع إذا خاب سعيه ولم ينل بغيته ، وربما وقع في اليأس الذي لا مطمع معه في فلاح ولا نجاح .

(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) أى إن أراد الله نصركم كما حدث يوم بدر حين علمتم بسنته ، وثبتتم في مواقفكم . واتكلتم على توفيقه ومعونته ، فلا غالب لكم

من الناس الذين جعلهم حرمانهم من التوكل عليه عرضة لليأس والقنوط .
وفي هذا ترغيب في التوكل على الله بعد المشورة والعزيمة الصادقة المترتبة على
أخذ الاستعداد بما أوتيته من الحول والقوة .

(وإن يخذلكم فبن ذا الذي ينصركم من بعده ؟) أى وإن يرد خذلانكم
ويمنعكم معونته بما كسبت أيديكم من الفشل والتنازع وعصيان القائد فيما أمركم به
كما جرى يوم أحد ، فلا أحد يملك لكم نصرا ولا يدفع عنكم الخذلان .
(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليخصه المؤمنون بالتوكل ، لأنه لا ناصر
لهم سواه .

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ
اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتُ
عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِعَصِيرِهِ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ
فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

شرح المفردات

الغل الأخذ خفية كالسرقة ، ثم غلب استعماله في السرقة من المغنم قبل القسمة ،
ويسمى الغلول أيضا ، وتوفى كل نفس ما كسبت ، أى تعطى جزاء ما عملت تاما
واقيا ، وباء رجع ، والسخط (بفتحيتين وبضم فسكون) الغضب العظيم ، والمأوى
للمصير ، هم درجات أى ذوو درجات ومنازل ، والبصير هو الذى يشاهد ويرى حتى

لا يعزب عنه ما تحت الثرى ، من أى أنعم وتفضل ، من أنفسهم أى من جنسهم من العرب ليفقهوا كلامه ، ويزكيهم أى يطهرهم من أدران الوثنية والعقائد الفاسدة ، من قبل أى من قبل بعثة الرسول ، ضلال مبين أى ضلال يتن لا ريب فيه .

المعنى الجملى

بعد أن حث عز اسمه فيما سلف على الجهاد ، وبين مصير المجاهد فى سبيله — أتبعه هنا بذكر أحكام الجهاد ، ومن جعلتها الكف عن الغلول .

روى الكلبي ومقاتل : أن هذه الآية نزلت حين ترك الرماة المركز الذى وضعهم فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد طلبا للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئا من مغنم فهو له ، وألا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر ، فقال لهم عليه السلام : ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى ؟ فقالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا ، فقال لهم : بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم .

الإيضاح

(وما كان لنبي أن يغفل) أى ما كان من شأن أى نبي ولا من سيرته أن يغفل ، لأن الله عصم أنبياءه منه ، فهو لا يليق بمقامهم ولا يقع منهم ، لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية ، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءة وخسة .

(ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة) أى وكل من يقع منه غلول يأتى بما غل به يوم القيامة حاملا له ، ليفتضح أمره ويزيد به فى عذابه .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا ، فذكر الغلول وعظمه ، وعظم أمره ثم قال :

« ألا لا ألين أحدكم يحىء يوم القيامة على رقبتة بعير له رعاء فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول له لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبغثتك ، لا ألين أحدكم يحىء »

يوم القيامة على رقبته فرس لها حممة ، فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تحفى ، فيقول يا رسول الله : أغثنى . فأقول لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك . وجعل بعض العلماء هذا الحديث من قبيل التمثيل ، فشبهت حال الغال بما يرهقه من أُنْقَال ذنبه وفضيحته به مع فقد الناصر والمغيث — بحال من يحمل ذلك على عاتقه ، ويقصد أرجى من يمكنه أن يغيثه فيخذله ويتنصل من إغاثنه ، وما زال الناس يشبهون الأُنْقَال المعنوية بالأُنْقَال الحسية ، ويعبرون عن ذلك بالجل كما قال تعالى : « اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ » ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَآلَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَ لَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : إن الإتيان في الآية معناه : أن الله يعلمه أتم العلم وينكشف له أوضح انكشاف ، فالمراد أن كل غلول وخيانة خفية يعلمه الله مهما خفى ، ويظهره يوم القيامة للغال حتى يعرفه كمعرفة من أتى بشى يوصله إلى غيره ، كما جاء في قوله تعالى حكاية عن لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » . فليس معنى الإتيان هنا أنه يحملها ، بل يعلم بها مهما كانت مستورة ، لأن من يأتى بالشىء لابد أن يكون عالما به .

(ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) أى ثم بعد أن يأتى الغال بما غل ، فيتمثل له كأنه حاضر بين يديه ، ينال جزاء ما كسب مستوفى تاما لا ينقص منه شىء كما قال تعالى : « وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وجاء حكم التوفية في الجزاء عاما لكل كاسب ، وإن كان الكلام في جزاء الغال تحسب — ليكون كاللدليل على المقصود من استيفائه الجزاء ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزيا بعمله لا ينقص منه شيء وإن كان جرمه حقيرا ، فالغال مع عظم جرمه أولى بذلك .

وقد أردف الله توفية ما كسبته كل نفس بالتفصيل الآتي ليبين أن جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين ، فقال :

(أَمَّنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ؟) أى أَمَّنْ اتَّقَى وَسَمِعَ فِي تَحْصِيلِ رِضَا اللَّهِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَتَرَكَ الْغُلُولَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ حَتَّى زَكَتْ نَفْسُهُ وَصَفَارُوحُهُ — يَكُونُ جَزَاؤُهُ كَجَزَاءِ مَنْ انْتَهَى أَمْرُهُ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ ، وَعَظِيمِ غَضَبِهِ ، بِفِعْلِ مَا يَدْسِي نَفْسَهُ مِنَ الْخَطَايَا مِنْ سَرَقَةٍ وَغُلُولٍ وَسُلْبٍ وَقَتْلِ ، وَتَرَكَ مَا يَطْهَرُهَا مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ؟ .

(وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ) أى وَمَأْوَاهُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ ، وَلَا مَرْجِعَ لَهُ غَيْرُهُ ، هِيَ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَنَاقِبُهَا وَمَرْجِعُهَا وَمَأْبَا .

ولا شك أن العاقل يعلم أنهما لا يستويان ، كما لا تستوى الظلمة والنور ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ » . وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » .

(هم درجات عند الله) أى إن كلا ممن اتبع رضوان الله ومن باء بغضب من الله طبقات مختلفة ، ومنازل عند الله متفاوتة في حكمه ، وعلى حسب علمه بشئونهم وبما يستحقون من الجزاء « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

والخلاصة - أن الناس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون في الفضائل والمعرفة في الدنيا ، وما يترتب على ذلك من الأعمال الحسنة أو السيئة .

وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضا ابتداء من الرفيق الأعلى الذى طلبه النبي صلى الله عليه وسلم فى مرض موته إلى الدرك الأسفل .
وهذه الدرجات أثر طبيعى لارتقاء الأرواح أو تدليها بالأعمال الصالحة أو السيئة .
(والله بصير بما يعملون) فلا يخفى عليه شئ من أعمالهم التى لها التأثير العظيم فى تزكية نفوسهم وفوزها وفلاحها وارتقيائها إلى أرفع الدرجات — أو فى تدسيثها التى يترتب عليها الخيبة والحسران والهبوط إلى أسفل الدرجات كما قال : (قَدْ أَفْجَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) .

ولا يعلم هذه الدرجات إلا من أحاط بكل شئ علماً ، لأنه هو الذى لا يخفى عليه أثر من آثار الأعمال فى الأنفس ، ولا ما يختلج القلوب من الخواطر والمواجس .
وبعد أن نقي الغلول والخيانة عن النبي صلى الله عليه وسلم على أبلغ وجه أكد ذلك بهذه الآية .

(لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى إن هذا الرسول ولد فى بلدهم ، ونشأ بين ظهرانيهم ، ولم يروا منه طوال حياته إلا الصدق والأمانة والدعوة إلى الله والإعراض عن الدنيا ، فكيف يظن بمن هذه حاله خيانة وغلول ؟ .
وقد وصفه الله بأوصاف كل منها يقتضى عظيم المنة .

(١) أنه من أنفسهم أى أنه عربى من جنسهم ، وبذا يكونون أسرع الناس إلى فهم دعوته والاهتداء بهديه ، وأقرب إلى الثقة به من غيرهم ، إلى أنهم إذا كانوا على كذب منه وقفوا على أحواله من الصدق والأمانة ، إلى ما لهم بذلك من شرف وجليل خطر كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَدِكُّكَ لَكِ وَلِقَوْمِكَ) وقال :

وكم أب علا بابن ذرا شرف كما علت برسول الله عدنان
وقد خطب أبو طالب فى تزويج خديجة رضى الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم
بمحضر من بنى هاشم ورؤساء مضر ، فقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئىء (أصل) معدٍ ، وجعلنا حَضَنَةَ بيته ، وسُوَّاسَ حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرمًا آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس .

ثم إن هذا ابن أخى محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجع به ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيمٌ وخطر جليل .

وتخصيص هذه المنة بالعرب مع أنه بعث للناس كافة لمزيد انتفاعهم به ، على أن هذه النعمة الكبرى ذكرت فى آيات أخرى كقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

(٢) أنه يتلو عليهم آياته الدالة على قدرة الله ووحدانيته وعلمه ، ويوجه النفوس إلى الاستفادة منها ، والاعتبار بها ، كما جاء فى قوله : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » وقوله « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا » وقوله « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » .

(٣) أنه يزيههم ويطهرهم من العقائد الزائفة ، ووساوس الوثنية وأدرانها ، إذ أن العرب وغيرهم قبل الإسلام كانوا فوضى فى أخلاقهم وعقائدهم وآدابهم ، فكان محمد صلى الله عليه وسلم يقتلع منهم جذور الوثنية ، ويدفع عنهم العقائد الباطلة ، كاعتقادهم أن وراء الأسباب الطبيعية التى ارتبطت بها المسببات منافع ترجى ، ومضار تخشى من بعض الخلوقات ، فيجب تعظيمها والالتجاء إليها ، دفعا لشرها ، وجلبا لخيرها ، وتقربا إلى خالقها .

ولا شك أن من يعتقد مثل هذا يكون أسير الأوهام ، وعبد الخرافات ، يخاف فى موضع الأمن ، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف .

(٤) أنه يعلمهم الكتاب والحكمة ، فتعليم الكتاب اضطرهم إلى تعلم الكتابة ،

وأخرجهم من الأمية إلى نور العلم والعرفان ، فقد طلب إليهم كتابة القرآن ، واتخذ
كتابة للوحى ، وكتب كتباً دعا بها الملوك والرؤساء إلى الإسلام فى سائر الأصقاع
المعروفة ، فانتشرت الكتابة بينهم ، وعظمت مدنيّتهم ، وامتدت سلطتهم ، فملكوا
الأمم التى كان لها السلطان والصولة والنفوذ فى تلك الحقبّة .

كذلك علمهم الحكمة وأرشدهم إلى البصر بفهم الأشياء ، ومعرفة أسرارها ،
وفقه أحكامها ، وبيان ما فيها من المصالح والحكم ، وهداهم إلى طرق الاستدلال ،
ومعرفة الحقائق ، ببراهينها ، فكان ذلك من أكبر البواعث على العمل بها ،
والتمسك بأهدابها ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

والخلاصة — أن تعليم الكتاب إشارة إلى معرفة ظواهر الشريعة ، وتعليم
الحكمة إشارة إلى فهم أسرارها وعلماها وبيان منافعها .

(وإن كانوا من قبل نفى ضلال مبين) أى إنهم كانوا قبل هذه البعثة فى
ضلال بين واضح ، ولا ضلال أظهر من ضلال قوم يشركون بالله ويعبدون الأصنام
ويسيرون وراء الأوهام ، وهم على ذلك أعمى لا يقرءون ولا يكتبون حتى يعرفوا
حقيقة ما هم فيه من الضلال .

وإنما جعلها منة لكونها وردت بعد محنة ، فكان موقعها أعظم ، إذ أن بعثة
الرسول جاءت بعد جهل وبعد عن الحق ، فكانت أعم نفعاً وأتم وقعا .

أَوَلَمْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ
مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ
التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا تَبَعْنَاكُمْ ،
هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ

فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (١٦٨)

شرح المفردات

المراد بالمصيبة ما أصابهم يوم أحد من ظهور المشركين عليهم ، وقتل سبعين
منهم ، ومثلها أى ضعفها بقتل سبعين من المشركين ، وأسر سبعين منهم يوم بدر ،
أى هذا ؟ أى من أين لنا هذا ، وهو تعجب مما حل بهم من هذا المصائب ، من عند
أنفسكم أى بشؤم معصيتكم ، الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين ، فبإذن الله أى
بإرادته الأزلية وقضائه السابق بارتباط المسببات بأسبابها ، فادرءوا أى فادفعوا ، إن
كنتم صدقين أى فى دفع المكاره بالخطر .

المعنى الجملى

بعد أن حكى الله عن المناقنين أنهم نسبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم الغلول
والخيانة ، ثم برأه منها ، وبين ما بعث لأجله — عاد هنا إلى كشف الشبهات التى
عرضت للغزاة قبل الواقعة وبعدها ، وبين خطأهم وضلالهم فى أقوالهم وأفعالهم .

الإيضاح

(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟) أى لا ينبغي لكم أن
تعجبوا مما حل بكم فى هذه الواقعة ، فإن خذلانكم فيها لم يبلغ مبلغ ظفركم فى بدر ،
فقد كان نصركم فى تلك الواقعة ضعف انتصار المشركين فى هذه .
فلماذا نسيتم فضل الله عليكم فى بدر فلم تذكروه ، وأخذتم تعجبون مما أصابكم
فى أحد وتسالون عن سببه .

وفائدة قوله قد أصبتم مثلها — التنبيه إلى أن أمور الدنيا لا تدوم على نهج واحد ، فأنتم هزمتهم مرتين ، فكيف تستبعدون أن يهزمكم مرة واحدة .

وقد كان سبب تعجبهم أنهم قالوا : كيف ننصر الإسلام الذي هو الدين الحق ومعنا الرسول ؛ وهم ينصرون دين الشرك بالله ، ومع ذلك ينصرون علينا .
وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بجوابين :

(١) قوله قد أصبتم مثلها .

(٢) قوله (قل هو من عند أنفسكم) أى إن هذا الذى وقع إنما وقع بشؤم معصيتكم لأنكم عصيتم الرسول فى أمور كثيرة .

(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : المضحكة فى البقاء فى المدينة ، فلا نخرج إلى أحد ، فأيتهم إلا الخروج ، وكان رأى ما رآه الرسول حتى إذا مداخلها المشركون قاتلوهم على أفواه الأزقة والشوارع ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من سطوح المنازل .

(ب) أنكم فشلتم وضعفتم فى رأى .

(ح) أنكم تنازعتم وحصت بينكم مهارة كلامية .

(د) أنكم عصيتم الرسول صلى الله عليه وسلم وفارقتهم المكان الذى أمركم بالوقوف فيه لحماية ظهوركم بنضح عدوكم بالنبل إذا أراد أن يكون من ورائكم .

ولاشك أن العقوبات آثار لازمة للأعمال ، والله تعالى إنما وعدكم النصر بشرط ترك المعصية كما قال : « إِنَّ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُعَذِّبْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ »

(إن الله على كل شئ قدير) فهو القادر على نصركم لو ثبتتم وصبرتم ، وهو القادر على التخلّى عنكم لو خالفتم وعصيتم ، وهو سبحانه قد ربط الأسباب بالمسببات ، ولا يشذ عن ذلك مؤمن ولا كافر .

فوجود الرسول بينكم وأنتم قد خالفتم سنن الله في البشر لا يحميكم مما تقتضيه هذه السنن .

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله) أى وكل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين فى أحد ، فهو بإذن الله وإرادته وقضائه السابق يجعل المسببات نتائج لأسبابها ، فكل عسكر يخطئ الرأى ، ويعصى قائده ، ويخلى بين العدو وبين ظهره ، يصاب بمثل ما أصبتم به ، أو بما هو أشد وأنكى منه .
وفى ذلك تسلية للمؤمنين وعبرة تشرح لهم ما تقدم من قوله : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » .

(وليعلم المؤمنون وليعلم الذين نافقوا) أى ليظهر علم الله بحال المؤمنين من قوة الإيمان وضعفه ، واستفادتهم من المصائب حتى لا يعودوا إلى أسبابها ، وليعرفوا سنن الله عند ما يظهر فيهم حكمها ، كما يظهر حال المنافقين الذين أظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر ، فيترتب على ذلك العبرة بسوء عاقبة المنافقين حتى فيما ظنوه حزما واتقاء للمكروه ، واحتياطاً فى الأمر ، كما تحدث العبرة بحسن عاقبة الصادقين ، حتى فيما ظنوه شرا وكرهوا حصوله .

(وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادنوا) أى إن هؤلاء المنافقين دعوا إلى القتال وقيل لهم : إن كان فى قبلكم حب الدين والذود عنه فقاتلوا لأجله ، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم .

والخلاصة — قاتلوا ابتغاء لرضا الله وإقامة دينه ، أو قاتلوا لدنيا ودافعوا عن أنفسكم وأهليكم ووطنكم ، لكنهم راوغوا وقعدوا وتكاسلوا .

(قالوا لم نعلم قتالا لاتبعناكم) أى قالوا : لو نعلم أنكم تلقون قتالا فى خروجكم ما أسألمناكم ، بل كنا نتبعكم ، لكننا نرى أن الأمر سينتهى بدون قتال .

روى أن الآية نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه الذين خرجوا من

المدينة في جملة الألف الذين خرج بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجعوا من الطريق وهم ثلثمائة ليخذلوا المسلمين ، ويوقعوا فيهم الفشل .

ولا شك أن هذا الجواب منهم يدل على كمال النفاق ، وأنه ما كان غرضهم منه إلا التلبيس والاستهزاء ، إذ ذهاب المشركين وهم مدججون بسلاحهم إلى أحد من أقوى الإمارات على أنهم يريدون قتالا .

(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) أي هم يوم قالوا هذه المقالة « لو نعلم قتالا لا تبعناكم » أقرب إلى الكفر منهم للإيمان لظهور أماراته ، بانخذلهم عن نصره المؤمنين ، واعتذارهم لهم على وجه الخديعة والاستهزاء ، فإن الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الأهل والوطن عند هجوم الأعداء مما يجب على المؤمن ، ولا ينبغي تركه بحال .

يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وإنما قل : إنهم أقرب إلى الكفر ، ولم يقل إنهم كفار — منعاً للنزب بالكفر بالعلامات والقرائن . دون أن يكون هناك كفر صريح ، ومن ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاملهم معاملة المؤمنين ، حتى إنه صلى على رئيسهم عبد الله بن أبيّ صلاة الجنازة بعد بضع سنين من وفاة أحد ، إلى أن فضحهم الله بقوله : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وإخلاصة — أنه تعالى كان يعلم أنهم يبطنون الكفر لعملهم عمل الكفار بتركهم الجهاد ، لكنه لم يصرح به ، بل أومأ إليه ، تأديباً لهم عسى الله أن يتوب على من لم يتمكن الكفر في قلوبهم ، ومنعاً للناس من الهجوم على التكفير بالظنة ووجود الأمارات فقط .

(يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) أي إن ما تقولونه ألسنتهم مخالف لما تضرره

قلوبهم ، فهم يظهرون الإيمان باللسان ويبطنون الكفر ، فالكذب دأبهم ليستروا به ما يضمرون ، ويؤيدوا ما يظهرون .

وفي ذكر الأفواه والقلوب تصوير لنفاقهم ، وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم .

والخلاصة — أنهم يتفوهون بقول لا وجود لمنشئه في قلوبهم كقولهم : لو علم قتالا ، وقولهم : لا تبعناكم ، وهم كاذبون في كل من الأمرين ، فإنهم كانوا عالمين به وقد أصروا على الانخدال وعزموا على الارتداد .

(والله أعلم بما يكتُمون) من الكفر والكيد للمسلمين ، وترص الدوائر بهم ، فهو في كل حين يبين مخبات أسرارهم ، ويكشف أستارهم ، ثم يعاقبهم على ذلك في الدنيا والآخرة .

وجاءت هذه الجملة لتأكيد كفرهم ونفاقهم ، ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد .

والخلاصة — أنه لا ينفعهم النفاق ، فالله أعلم بما تكنه سرائرهم وقلوبهم .
وبعد أن ذكر قولاً قالوه قبل القتال وبين بطلانه — أردفه بقول قالوه بعده وبين فساده . قال :

(الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) أى هم الذين قالوا لأجل إخوانهم الذين قتلوا في هذه الواقعة ، والحال أنهم قعدوا عن القتال : لو أطاعونا في القعود ولم يخرجوا للقتال كما لم نخرج — لما قتلوا كما أننا لم نقتل .

وفي هذا إيماء إلى أنهم أمروهم بالانخدال حين انخدلوا .

أخرج ابن جرير عن السدي قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن صبروا ، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبي في ثلثمائة ، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم ، فقالوا : لو نعلم قتالا لا تبعناكم ، وإننا أطعنا لترجع معنا ، فنبى الله عليهم ذلك بقوله — الذين قالوا لإخوانهم — الآية .

وقد دحض الله تعالى حججهم ، وأبان لهم كذبهم ، ووبخهم على ما قالوا ، فقال لنبيه :

(قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أى قل لهم : إن صدور هذا القول الجازم منكم يدل على أنكم قد أحطتم علما بأسباب الموت فى هذه الواقعة وإذا جاز فيها جاز فى غيرها ، وحينئذ يمكنكم درء الموت ودفعه عن أنفسكم .
والخلاصة — إنكم إن كنتم صادقين فى أن الحذر يغنى عن القدر ، وأن سلامتكم كانت بسبب فعودكم عن القتال لا بغيره من أسباب النجاة ، فادفعوا سائر صنوف الموت عن أنفسكم .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شُيْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

شرح المفردات

الاستبشار السرور الحاصل بالبشارة ، والذين لم يلحقوا بهم هم الذين بقوا فى الدنيا ، استجابوا أى أجابوا وأطاعوا . والقرح الجراح فى يوم أحد ، والإحسان

أن يعمل الإنسان العمل على أكمل وجوهه الممكنة ، والتقوى أن يخاف الإساءة والتقصير فيه ، حسبنا الله ، أى الله كافينا ، والوكيل الكافى الذى توكل إليه الأمور ، فانقلبوا أى فرجعوا ، والمراد بالنعمة السلامة والثبات على الإيمان وطاعة الرسول ، والفضل هو الربح فى التجارة ، والشيطان هنا شيطان الإنس الذى غش المسلمين ليخذلهم ، وهو نعيم بن مسعود ، يخوف أولياءه أى يخوفكم أنصاره من المشركين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تشبيط المشركين للراغبين فى الجهاد بتحذيرهم عواقبه ، وأنه مفض إلى القتل كما حدث يوم أحد ، والقتل بغىض إلى النفوس مكروه لها ، ثم أردفه ببيان أن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره كما يحدث الموت ، فمن كتب له أن يقتل لا يمكنه أن يبتعد من القتل ، ومن لم يقدر له لا خوف عليه من الجهاد .

ذكر هنا ما يحب الجهاد فى سبيل الله ، فأبان أن المقتولين شهداء أحياء عند ربهم قد خصهم الله بالقرب منه ، والكرامة لديه ، وأعطاهم أفضل أنواع الرزق وأوصلهم إلى مراتب الفرح والسرور .

أخرج الإمام أحمد فى جماعة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، فقال الله تعالى : - أنا أبلغهم عنكم - فأنزل الله هؤلاء الآيات . »

الإيضاح

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) أى لا تحسبن أيها السامع لقول المنافقين الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه ، فيؤثرون الدنيا على الآخرة - أن من قتلوا فى سبيل الله أمواتاً قد فقدوا الحياة وصاروا عدماً .

(بل أحياء عند ربهم يرزقون) أى بل هم أحياء فى عالم آخر غير هذا العالم ، هو خير للشهداء لما فيه من الكرامة والشرف عند الله ، فليس القتل فى سبيله بضائرم ، إذ ما صاروا إليه خير مما كانوا فيه ، فلو سلم أن الخروج للقتل سبب للقتل لما كان مثبطا للمؤمنين عن الجهاد عند وجوبه ، كما إذا هاجم المشركون المؤمنين فى مثل وقعة أحد ، أو إذا قتل المسلمون عن دينهم ومنعوا من الدعوة إليه وإقامة شعائره ، كما فعل مشركو العرب مع المسلمين زمن البعثة .

كيف والخروج إلى القتال كثيرا ما يكون سببا للسلامة ، فإن الأمة التى لاتدافع عن نفسها يطمع فيها غيرها ، وإذا هاجمها ظفر بها ونال منها ما يريد .
وهذه الحياة التى أثبتتها القرآن الكريم حياة غيبية لاندرك حقيقتها ، ولا نزيد على ما جاء به الوحي .

وقوله يرزقون تأكيد لكونهم أحياء ، وتحقيق لهذه الحياة .
(فرحين بما آتاهم الله من فضله) أى مسرورين بشرف الشهادة ، والتمتع بالنعيم العاجل ، والزلفى عند ربهم ، والفوز بالحياة الأبدية .

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) أى ويسرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله ، فيلحقوا بهم من خلفهم ، أى إنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم .

وقوله: من خلفهم إشارة إلى أنهم وراءهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم قدما بقدم ، وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم حث للباقيين بعدهم على زيادة الطاعة والجد فى الجهاد والرغبة فى نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم ، كما فيه إخماد لخال من يرى نفسه فى خير فيتمنى مثله لإخوانه فى الدين ، وفيه بشرى للمؤمنين بالفوز بالمآب .

(أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى هم يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم أحياء ، وهى أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية

لا يكدرها خوف من وقوع مكروه من أهوالها ، ولا حزن من فوات محبوب من نعيمها (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) النعمة هي الثواب الذى يلقاه العامل جزاء عمله ، والفضل هو التفضل الذى يمن الله به على عباده الطائعين المحبتين له ، والمراد بالمؤمنين الشهداء الذين وصفوا بالأوصاف الآتية بعد . وعبر عنهم بوصف الإيمان للإشارة إلى سمو مكانته ، ورفعة منزلته وكونه مناط السعادة .

وفى ذلك تحريض على الجهاد ، وترغيب فى الشهادة ، وحث على ازدياد الطاعة والبشرى للمؤمنين بالفوز العظيم .
وقد جاءت هذه الجملة كالبیان والتفسير لقوله - لاخوف عندهم ولا هم يحزنون - لأن من كان فى نعمة الله وفضله لا يحزن أبداً ، ومن كانت أعماله مشكورة غير مضية لا يخاف العاقبة .

ثم وصفهم بحسن أفعالهم الموجب لزيادة أجرهم فقال :
(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) أى هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته ، ولبوا نداءه ، وأتوا بالعمل على أكمل وجهه ، واتقوا عاقبة تقصيرهم ، على ما هم عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد ، لهم أجر عظيم على ما قاموا به من جليل الأعمال .
وفى قوله : منهم إشارة إلى أن من دعوا لبوا واستجابوا له ظاهراً وباطناً ، ولكن عرض لبعضهم موانع فى أنفسهم أو أهلهم فلم يخرجوا وخرج الباقون .

روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد ، فبلغوا الزَّوْحَاءَ (موضع بين مكة والمدينة) ندموا وهوا بالرجوع حتى يستأصلوا ما بقى من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهبهم ويرهبهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج فى إثر أبى سفيان وقال : لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جماعة من أصحابه حتى بلغوا حمراء

الأسد (موضع على ثمانية أميال من المدينة) وكان بأصحابه القرع فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا إلى مكة مسرعين فنزلت الآية .

وتسمى هذه الغزوة غزوة حراء الأسد ، وهي متصلة بغزوة أحد .

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) أى وهم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعي ومن وافقه وأذاع قوله وهم أربعة : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجوع لقتالكم فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم .

روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى .

ذاك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلك بيننا وبينك إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزلت (مِجَنَّة) من ناحية (مر الظهران) فالتقى الله الرعب في قلبه ، فبداه الرجوع فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان : إني واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جدد ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدألى أن أرجع ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة ، فالحق بالمدينة فثبطهم ، ولك عندي عشرة من الإبل أضعها في يدي سهيل بن عمرو ، فأثنى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال لهم : ما هذا بالرأى ، أتوكم في دياركم وقراركم ولم يفلت منكم إلا شريد ، فتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم الجوع عند الموسم ، فوالله لا يفلت منكم أحد ، فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لأخرجنّ ولو وحدى» نفرج ومعه سبعون راكبا يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى وافى بدرًا الصغرى (بدر الموعد) فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحدا ،

لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة وكان معه ألفا رجل فسماء أهل مكة جيش السويق ، وقالوا لهم إنما خرجتم لتشربوا السويق .

ووافى المسلمون سوق بدر ، وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدما وزبينا فربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين .

(فزادهم إيماناً) أى زادهم هذا القول إيماناً بالله وثقة به ، ولم يلتفتوا إلى تخويفهم بل حدث في قلوبهم عزم وتصميم على محاربة هؤلاء الكافرين ، وطاعة الرسول في كل ما يأمر به وينهى عنه ، وإن أضناهم ذلك وثقل عليهم لما بهم من جراحات عظيمة وقد كانوا في حاجة إلى قسط من الراحة ، وشيء من التداوى ، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم أنساهم كل هذه المصاعب فلبوا الدعوة سراعاً .

والخلاصة — إن هذا القول الذى سمعوه زاد شعورهم بعزة الله وعظمته وسلطانه ويقينهم بوعد الله ووعيده ، وتبع ذلك زيادة في العمل ، ودأباً على إنفاذ ما طلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ما أقدموا على الاستجابة على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا » .

(وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) أى قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله : الله يكفيننا ما يهمنى من أمر الذين جمعوا الجوع لنا ، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قتلنا وكثرتهم ، أو يلتقى في قلوبهم الرعب ، فيكفيننا شر بغيهم وكيدهم ، وقد كان الأمر كما ظنوا ، فالتقى الله الرعب في قلب أبى سفيان وجيشه على كثرة عددهم وتوافر عددهم ، فولوا مدبرين ، وكان في ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » وأخرج ابن أبى الدنيا

عن عائشة رضى الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ، ثم تنفس الصعداء وقال : حسبي الله ونعم الوكيل » وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسبي الله ونعم الوكيل أمان كل خائف » .

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) أى فخرجوا للقاء عدوهم ولم يلقوا منه كيذا ولا هما ، ولم يلبثوا أن انقلبوا إلى أهلهم وقد تظاهرت عليهم نعم الله فسلموا من تدبير عدوهم ، وأطاعوا رسولهم ، ورجحوا في تجارتهم ، ولم يمسسهم قتل ولا أذى .

روى البيهقي عن ابن عباس أن عيرا مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح مالا قسمه بين أصحابه فذلك الفضل ، وأخرج ابن جرير عن السدى قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج في بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها في الموسم فأصابوا ربحاً كثيراً .

(واتبعوا رضوان الله) أى واتبعوا في كل ما أتوا من قول أو فعل رضا الله الذى هو وسيلة النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، فأطاعوا رسوله في كل ما به أمر وعنه نهى .

(والله ذو فضل عظيم) إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد ، والجرأة على العدو ، وحفظهم من كل ما يسوءهم .

وفي هذا إلقاء للحسرة في قلوب المتخلفين منهم ، وإظهار لخطأ رأيهم ، إذ حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء .

(إنما ذلکم الشیطان یخوف أولیاءه) أى ليس ذلك الذى قال لكم : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم إلا الشيطان يخوفكم أولیاءه وأنصاره المشركين ، ويوهمكم أنهم عدد كثير وأولو قوة وبأس شديد ، وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقاءهم ، وتجنبوا عن مدافعتهم .

(فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أى فلا تخافوا أولئك الأولياء ، ولا تخفوا بقولهم (فاحشوم) فتخافوهم ، بل خافوني فى مخالفة أمرى ، لأنكم أولياءى وأنا وليكم وناصرکم إن كنتم راسخى الإيمان قائلين بحقوقه ، فإن من حقه إثارة خوف الله تعالى على خوف غيره ، والأمن من شر الشيطان وأوليائه .

وخلاصة ذلك — إنه إذا عرضت لكم أسباب الخوف ، فاستحضروا فى نفوسكم قدرة الله الذى بيده كل شئ ، وهو يجر ولا يجار عليه ، وتذكروا وعده بنصركم ، وإظهار دينكم على الدين كله ، وأن الحق يدمغ الباطل فإذا هو زاهق ، واذكروا قوله : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَبِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » ثم خذوا أهبتكم ، وتوكلوا على ربكم فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً فى قلوبكم .
وفى هذه الآية من العبرة :

(١) إن صادق الإيمان لا يكون جباناً ، فالشجاعة وصف المؤمن ، لا يبلغ غيره فيها مداه ، إذ أن العلة الحقيقية للجهن هى الخوف من الموت والحرص على الحياة ، وقلب المؤمن لا يتسع لهما .

ولا يزال العالم إلى اليوم يشهد شجاعة الجيوش الإسلامية مع ما منى به المسلمون من ضعف فى إيمانهم ، وجهل بكثير من شئون دينهم .

(٢) إن فى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف ، ويعود نفسه الاستهانة بها بالتمرين والتربية وتعود الإقدام إذا عرضت له تلك الأسباب .

(٣) إذا عرضت له أسباب الخوف فعليه ألا يسترسل لها حتى لا يتمكن أثرها فى نفسه ، وتتجسم صورتها فى خياله ، بل يغالبها بصرفها عن ذهنه ، وشغله بما يضادها ويذهب بآثارها ، أو يتبدلها بآثار مناقضة لها ، وهذا يدخل فى اختيار الإنسان ، وهو الذى نيط به التكليف .

وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)
 إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)
 وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتِبِي مِنْ رَسُولِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

شرح المفردات

يسارعون في الكفر أى يسارعون في نصرته والاهتمام بشؤونه والايحاف في مقاومة المؤمنين ، حظا في الآخرة أى نصيبا من الثواب فيها ، اشتروا الكفر أى أخذوا الكفر بدلا من الإيمان كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلا منه ، والإيماء الإيهال والتخيلة بين العامل وعمله ليلبغ أتعى مداه من قولهم : أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، ومنه الملا للأرض الواسعة ، والملاوان الليل والنهار ، ليزدادوا إثما أى لتكون عاقبتهم زيادة الإثم ، يميز الخبيث من قولهم حزت الشيء بعضه من بعض أى أفرزته وأزلته ، ومنه الحديث « من ماز أذى عن طريق فهو له صدقة » ، على ما أنتم عليه أى من اختلاط المؤمن بالمنافق وأشباهه ، والخبيث والطيب أى المنافق والمؤمن ، ويختبى أى يصطفى ويختار .

المعنى الجملى

لما كان من فوز المشركين في أحد ما كان ، وأصاب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين شيء كثير من الأذى - أظهر بعض المنافقين كفرهم وصاروا يخوفون

المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدوهم، ويقولون لهم : إن محمدا طالب ملك ، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عيبه ، ولو كان رسولا من عند الله ما غلب ، إلى نحو هذه المقالة مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ، ويسرف في الحزن ، فنزلت هذه الآيات تسيية له ، كما سلاه عما يحزن من إعراض الكافرين عن الإيمان ، أو طعنهم في القرآن ، أو في شخصه عليه السلام كقوله تعالى : « وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » وقوله : « فَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

الإيضاح

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) أى ولا يحزنك أيها الرسول مسارعة المنافقين و طائفة من اليهود إلى نصره الكافرين واهتمامهم بشأنهم ، والإيجاف في مقاومة المؤمنين بكل ما أوتوا من الوسائل ، ومن التثبيط للعزائم ، والنيل من نبيهم ودعوته ، وتأليب المشركين عليهم ، إلى نحو ذلك مما يدور في خلد العدو لا يذء عدوه .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنِ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا » .
وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تسليية له وإيذان بأنه الرئيس المعتنى بشئونه .

ثم علل هذا النهى وكل التسليية بتحقيق نفي ضررهم أبداً بقوله :
(إنهم لن يضرروا الله شيئا) أى إنهم لن يضرروا أولياء الله وهم النبي وصحبه ، شيئا من الضر ، فعاقبة هذه المسارعة في الكفر وبال عليهم لاعليك ولا على المؤمنين فإنهم لا يحاربونك فيضروك ، وإنما هم يحاربون الله تعالى ، ولا شك أنهم أعجز من

أن يفعلوا ذلك ، فهم إذا لا يضرّون إلا أنفسهم ، وفي جعل مضرتهم مضرة لله تعالى تشريف لهم ، ومزيد مبالغة في تسليته صلى الله عليه وسلم .

ثم بين أنهم لا يضرّون إلا أنفسهم فقال :

(يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة) أى إن سربلتهم ما هم فيه من الانهماك في الكفر وقد قضى ذلك بحرمانهم من نعيم الآخرة وفق ما تقتضيه سنة الله وإرادته .

(ولهم عذاب عظيم) أى إنهم على حرمانهم من الثواب لهم عذاب عظيم لا يقدر قدره .

وبعد أن بين حكم أولئك الذين يسارعون إلى نصرّة الكفر والدفاع دونه ومقاومة المؤمنين لأجله ، وأرشد إلى أنه لا يؤبه بهم ، ولا يهتم بشأنهم ، فهم إنما يحاربون الله والله غالب على أمره — أشار هنا إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان واستبدله به فقال :

(إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم)
أى إن الذين أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان رغبة فيما أخذوا وإعراضاً عما تركوا ، فلن يضرّوا الله شيئاً ، وإنما يضرّون أنفسهم بما لهم من العذاب الأليم الذى لا يقدر وفى هذا إيحاء إلى شيئين :

(١) تأكيد عدم إضرارهم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) بيان سخف عقولهم وخطأ آرائهم ، إذ هم كفروا أولاً ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك ، وهذا دليل على شدة اضطرابهم ، وعدم ثباتهم ، ومثل هؤلاء لا يخشى منهم شيء مما يحتاج إلى أصالة الرأى وقوة التدبير .

(ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) أى لا يحسبن هؤلاء الكافرون أن إهمالنا لهم وإطالة أعمارهم خير لأنفسهم ، فإنه لا يكون كذلك إلا إذا ازدادوا فيه عملاً صالحاً ينتفعون به

فى أنفسهم بتزكيتها وتطهيرها من شوائب الأدران وسىء الأخلاق ، وينتفع به الناس فى تهذيبهم وتحسين معاشهم ، ولكن هؤلاء لا يزدادون بمجهلهم وسوء اختيارهم إلا إثما يضرهم فى أنفسهم ، بالتمادى فى مكابرة الحق ، وتأيد سلطان الشرفى الخلق .
فحياة هؤلاء المتخلفين عن الجهاد ليست خيرا من قتل أولئك الذين قتلوا يوم أحد إذ بقاؤهم صار وسيلة للخزى فى الدنيا والعقاب الدائم فى الآخرة ، وقتل هؤلاء صار سبيلا للثناء الجليل فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

فترغب أولئك المثبتين عن الجهاد فى مثل هذه الحياة ، وترزينها لهم مما لا ينبغى أن يروج إلا عند الجهال الذين لا يفهمون قيمة الحياة الحققة التى يجب أن تكون نصب عين العاقل .

والخلاصة — إن هذا الإمهال والتأخير ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو قد جرى على سنن الله فى الخلق ، بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فإنما هو ثمرة عمله ، ومن مقتضى هذه السنة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره ، وسببا لاسترساله فى فجوره ، ونتيجة ذلك الإثم الذى يكسبه العذاب المهيى .
وفى الآية من العبرة .

(١) إن من شأن الكافر أن يزداد كفرا بطول عمره ، ويتمكن من العمل على حسب استعدادده .

(٢) إن من شأن المؤمن إذا أنسا الله أجله أن تكثر حسناته ، وتزداد خيراته ، فليجعل المؤمن هذا دستورا فيما بينه وبين ربه ، ويحاسب نفسه على مقتضاه ، فإذا فقهه وعمل به خرج من الظلمات إلى النور ، وكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

ثم بين أن الشدائد هى محك صدق الإيمان فقال :

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)
أى ما كان من سنن الله فى عباده أن يذر المؤمنين على مثل الحال التى كانوا عليها

حين غزوة أحد ، حتى يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر حال كل منهما ، لأن الشدائد هي التي تميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين . أما تكليف مالا مشقة فيه كالصلاة والصدقة القليلة وغيرها فيقبلها المنافق ، كما يقبلها صادق الإيمان ، لما فيها من حسن الأحداث ، والتمتع بمزايا الإسلام . وفي الشدائد من الفوائد الشيء الكثير منها .

(١) انتقاء المنافق إذا علم نفاقه ، فقد يقضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة إلى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن به ، حين يراه يؤدي الواجبات الظاهرة ، ويشارك الصادقين في سائر الأعمال ، فإذا هو أفشأها عرف حاله وحذره المسلمون الصادقون .

(٢) أن تروى الجماعة حالها ، إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لالها ، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان الذين لم تربهم الشدائد .

(٣) إنها تدفع الغرور عن النفس ، إذ يغتر المؤمن الصادق فلا يدرك ما في نفسه من ضعف في الاعتقاد والأخلاق حتى تمحصه الشدائد وتبين له حقيقة أمره . وقد يدور بخد بعض الناس أن أقرب وسيلة لتمييز المؤمن الصادق من المنافق ، أن يطلع الله المؤمنين على الغيب حتى يعرفوا حقائق أنفسهم وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، فيعرفوا أن فلانا من أهل الجنة ، وفلانا من أهل النار ، فأجاب الله عن هذا فقال :

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أى لم يكن من شأنه تعالى أن يطعم عامة الناس على الغيب ، إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته ، فإنه تعالى خلقه يحصل رغائبه ، ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبي الذي تهدي إليه الفطرة وترشد إليه النبوة .

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد ، والتضحية بالنفس وبذل المال في سبيل الحق والخير ، كما ابتلى المؤمنون

فى وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم ، وابتلى الرماة منهم بالخالفة ، وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم ، وابتلوا بظهور العدو عليهم ، جزاء ما فعلوا من الخالفة ، فظهر نفاق المنافقين ، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالا شديدا ، وثبت كلمة المؤمنين ، وصاروا كالجبال الرواسى التى لا ترزعزعا بالرياح والأعاصير .

(ولكن الله يمتحن من رسده من يشاء) أى ولكن الله يختار من رسله من يشاء ، فيطاعه على ما فى قلوب المنافقين من كفر ونفاق ، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال ، كما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، ويفضحهم به على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من كيدهم وخداعهم .

ونحو الآية قوله : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » .

وفى التعبير بالاجتناء إشارة إلى أن الوقوف على أسرار الغيب منصب جليل تتقاصر عنه الهمم ، ولا يؤتیه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم .

وبعد أن رد على ما طعن به المنافقون فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من وقوع الكوارث التى حصلت فى أحد . بين أن فيه كثيراً من القوائد كتميز انجيبث من الطيب ، أمرهم بالإيمان به فقال :

(فآمنوا بالله ورسله) أى آمنوا بالله ورسله الذين ذكرهم الله فى كتابه وقص علينا قصصهم .

وعبر الأمر بالإيمان بالرسل جميعاً مع أن سوق الكلام فى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضى الإيمان بهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته .

(وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) أى وإن تؤمنوا بما جاءوا به من أخبار الغيب ، مع تقوى الله بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به ، فلكم أجر عظيم لا يستطيع الوصول إلى معرفة كنهه .

وقلْ أن ذكر القرآن الإيمان إلا إذا قرن به التقوى ، كما قل أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة حثا على عمل البر والرفقة بالفقراء والبائسين ، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بهما .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ،
بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَعِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ
بَغَيْرِ حَقٍّ ، وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ
لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ
بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ
كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

شرح المفردات

ما آتاهم أى ما أعطاهم من المال والعم والجاه ، سيطوقون ما بخلوا به أى سيلزمون
إثمهم فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة ، وقد جاء فى أمثالهم : تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء
بما يسب به ويذم ، ميراث السموات والأرض أى ما يتوارثه أهلها من مال وغيره ،
سنكتب ما قالوا أى سنعاقب عليه ولا نهمله ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، أصل
الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك سائر المحسوسات والحريق المحرق

المؤلم ، وعذاب الحريق أى عذاب هو الحريق أى سন্তقم منهم ، عهد إلينا أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ، القربان ما يتقرب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من النار النار التى تنزل من السماء ، والبنات هى المعجزات الواضحة ، والزبر واحدها زبور وهو الكتاب ، والمنير الواضح .

المعنى الجملى

كان الكلام فيما مضى فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى سبيل الله بذكر ما يلاقىه المجاهدون من الكرامة عند ربهم فى جنات النعيم .
وهنا شرع يحث على بذل المال فى الجهاد - والمال شقيق الروح - فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله فى هذه السبيل ، وأرشد إلى أن المال ظل زائل ، وأن مدى الحياة قصير ، وأن الوارثين والموروثين سيموتون ويبقى الملك لله وحده .

الإيضاح

(ولا تحسبن الذين يبعثون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) أى ولا يظن أحد أن بخل الباخين بما أعطاهم الله من فضله ونعمه هو خيرا لهم ، لأنهم مطالبون بشكران النعم ، والبخل بها كفران لا ينبغى أن يصدر من عاقل .
والمراد من البخل بالفضل البخل به فى أداء الزكاة المفروضة ، وفى الأحوال التى يتعين فيها بذل المال كالإفناق لصدّ عدو يحتاج البلاد ويهدد استقلالها ، ويصبح أهدأ أذلة بعد أن كانوا أعزة ، أو إنقاذ شخص من مخالب الموت جوعا .
ففى كل هذه الأحوال يجب بذل المال ، لأنه يجرى مجرى دفع الضرر عن النفس .
ونس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه ، إذ أن الله أباح لنا الطيبات لنستمتع بها ، ولأن العقل قاض بأن الله لا يكلف الناس بذل كل ما يكسبون ، ويبقون عراة جائعين ، ومن ثم قال فى حق المؤمنين المهتدين « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيباً في بذل المال بدون تحديد ولا تعيين ،
ووكّل أمر ذلك إلى اجتهاد المؤمن الذي يتبع عاطفة الإيمان التي في قلبه ، وما تحدّثه
في النفس من أريحية بذل الواجب والزيادة عليه ، إذا هو تذكّر أن في ماله حقاً
للسائل والمحروم .

(بل هو شرّ لهم) أي هو شرّ عظيم لهم ، وقد نفى أولاً أن يكون خيراً ثم أثبت
كونه شراً ، لأن المانع للحق إنما يمنع لأنه يحسب أن في منعه خيراً له ، لما في بقاء
المال في يده من الانتفاع به في التمتع باللذات ، وقضاء الحاجات ، ودفع
الغوائل والآفات .

(سيطوّن ما بخلوا به يوم القيامة) أي سيجعل ما بخلوا به من المال طوقاً
في أعناقهم ، ويلزمهم ذنبه وعقابه ، ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً ، كما يقال : طوقني
الأمر أي ألزمني إياه .

وخلاصة هذا — أن العقاب على البخل لازم لا بد منه .

وقال مجاهد: إن المعنى سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة.
عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك ، ويكون ذلك توخيخاً لهم على معنى : هلا فعلتم ذلك
حين كان ممكناً ميسوراً ، ونظير هذا قوله تعالى : « وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » .

ويرى بعضهم أن التطويق حقيقي ، وأنهم يطوّنون بطوق يكون سبباً لعذابهم
فتصير تلك الأموال حيات تلتوى في أعناقهم ، فقد روى البخاري والنسائي عن
أبي هريرة قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع (ثعبان) أقرع
له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بِلَهْزِمَتَيْهِ (شقيه) يقول أنا مالك ،
أنا كنزك ثم تلا الآية » .

(ولله ميراث السموات والأرض) أي والله وحده لا لأحد سواه ، ما في
السموات والأرض ما يتوارث من مال وغيره ، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر

في يد ، ولا يسلم التصرف فيه لأحد ، إلى أن يفنى الوارثون والموروثون ، ويبقى مالك الملك ، وهو الله رب العالمين .

فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بمسكه ، ولا ينفقونه في سبيله ، وابتغاء مرضاته . وفي الآية إيماء إلى أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل ، وصاحبه فان غير باق . فلا ينبغي أن يستبقى الغنى ما هو مثله في الفناء ، بل عليه أن يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها ، وبذا يكون خليفة الله في أرضه محسناً لتصرف في استخلف .

(والله بما تعملون خبير) أى والله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، ولا ما تنطوى عليه جوائحكم ، فيجازى كل عامل بما عمل على حسب تأثير عمله في تزكية نفسه أو تدهيئتها ، ونيته في فعله كما جاء في الحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) أى قد سمع الله قول هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذه المقالة ، ولم يخف عليه ، وسيجزيهم عليه أشد الجزاء . وهذا أسلوب يتضمن التهديد والتوعيد ، كما يتضمن البشارة والوعد بحسن الجزاء في نحو - سمع الله لمن حمده - ويتضمن مزيد العناية وإرادة الإغاثة وإزالة الشكوى في نحو « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا » إذ سمع الله لعباده يراد به مراقبته لهم في أقوالهم ، ويلزم من ذلك المعاني التي ذكرناها آنفاً .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » فقالوا يا محمد : أقرر ربك يسأل عباده القرض ونحن أغنياء ؟ فأنزل الله (لقد سمع الله) الآية . (سنتكتب ما قالوا) أى سنعاقبهم على ذلك عقاباً لاشك فيه ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه العقوبة عليه ، وهذا استعمال شائع في اللغة .

(وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى قتل سلفهم لهم ، وإنما نُسبه إليهم للإشارة إلى أنهم راضون بما فعلوه .

وهذا يدل على أن الأمم متكافئة في الأمور العامة ، ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهي عنه ، لئلا يفشو فيها ، فيصير خلقا من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها ، فنستحق العقوبة في الدنيا بالضيق والفقر ، والعقوبة في الآخرة بتدنيس نفوسها ، وأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة ، فيستحسن منها ما تستحسنه ، ويستهجى ما تستهجنه - عدّ شريكاً له في إثمه ، ومستحقاً لمثل عقوبته .

(ونقول ذوقوا عذاب الحريق) أى سننتقم منهم ونقول لهم هذه العقالة .
ذاك أنهم لما قالوا ما قالوا وقتلوا من الأنبياء من قتلوا ، فقد أذاقوا المسلمين وأتباع الأنبياء ألواناً من العذاب ، وأحرقوا قلوبهم بلهب الإيذاء والكرب ، فجوزوا بهذا العذاب الشديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، كما أذقتم أولياء الله في الدنيا ما يكرهون .

والخلاصة - ذوقوا ما أنتم فيه ، فلستم بمخلصين منه ، وهذا قول يلقى للشفى الدال على كمال الغيظ والغضب .

(ذلك بما قدمت أيديكم) أى إن هذا العذاب المحرق الذى تذوقون حرارته ، بسبب أعمالكم في الدنيا كقتل الأنبياء ، ووصف الله بالفقر ، وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

وأضاف العمل إلى الأيدي ، من قيل أن أكثر أعمال الإنسان تزاوُل باليد ، وليفيد أن ما عذبوا عليه هو من عملهم على الحقيقة ، لا أنهم أمروا به ولم يباشروه .
(وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى أن ذلك العذاب أصابكم بعملكم ، وبكونه تعالى عادلاً في حكمه وفعله ، لا يجر ولا يظلم ، فلا يعاقب غير المستحق للعقاب ، ولا يجعل المجرمين كالمتقين ، والكافرين كال مؤمنين كما قال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» وقال: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟» وقال: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟» .

والخلاصة — أن ترك عقاب أمثالكم مساواة بين المحسن والمسيء ووضع للشيء في غير موضعه ، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا من كان كثير الظلم مبالغا فيه .

(الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار) قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وفنحاص ابن عازوراء في جماعة آخرين ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله ، وأنه تعالى أوحى إليك كتابا ، وقد عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار ، ويكون لها دوى خفيف تنزل من السماء ، فإن جئتنا بهذا صدقناك ، فنزلت الآية .

وروى ابن جرير أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة ، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلت ما تصدق به .

لكن دعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم ، لأن أكل النار للقرآن لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات سواء ، وما مقصدهم من تلك المفتريات إلا عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت بما قالوه ، ولو أتى به لآمنوا فرد الله عليهم بقوله :

(قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات والبنى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين؟) أى قل موبخا لهم ومكذبا : قد جاءكم رسل كثيرون من قبلى كزكريا ويحيى وغيرهم بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم ، وبما كنتم تقترحون وتطلبون ، وأتوا بالقرآن الذى تأكله النار ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم ، بل اجتأتم على قتلهم؟

وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ القلوب ، وبذلك وصفوا في التوراة قساة القلوب لا يتقنون الحق ولا تدعون له ، وأنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشاداً ، بل تعنتاً وعناداً .

وقد نسب هذا الفعل إلى من كان عصر التنزيل وقد وقع من أسلافهم ، لأنهم راضون عما فعلوه ، معتقدون أنهم على حق في ذلك ، والأمة في أخلاقها العامة وعاداتها كالشخص الواحد ، وقد كان هذا معروفاً عند العرب وغيرهم ، فتراهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ، ويؤاخذونها بها .

والخلاصة — أن أسلافكم كانوا متعنتين ، وما أتم إلا كأسلافكم ، فلم يكن من سنة الله إجابته إلى ملتصقكم بالإتيان بالقربان ، إذ لا فائدة منه .

(فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير)
أى فإن كذبوك بعد أن جئهم بالبينات الساطعة ، والمعجزات الواضحة ، والكتاب الهادى إلى سواء السبيل ، مع استدارة الحجة والدليل — فلا تأس عليهم ، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم ، ولا تعجب من فساد طويتهم ، وعظيم تعنتهم ، فلك سنة الله في خلقته ، فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به من باهر المعجزات وهزوا العطف بالزواجر والعظات ، وأناروا بالكتاب سبيل النجاة ، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً ، فصبروا على ما نالهم من أذى ، وما نالهم من سخرية واستهزاء .

وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لأن طباع البشر في كل الأزمنة سواء ، فمنهم من يتقبل الحق ويقبل عليه بصدق رحيب ونفس مطمئنة ، ومنهم من يقاوم الحق والدواعى إليه ، ويسفه أحلام معتنقيه .

فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك ، ولا أن يفندوا حجبتك ، فإن نفوسهم منصرفة عن طلب الحق ، وتحرى سبل الخير .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
 فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
 الْغُرُورِ (١٨٥) لَتَبْلُوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِن تَصْبِرُوا
 وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

شرح المفردات

توفون أجوركم أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة ، زحزح عن النار نحي عنها ، فاز سعد ونجا ، والمتاع ما يتمتع وينتفع به مما يباع ويشترى ، والغرور إصابة الغرّة والغفلة ممن تخدعه وتغشه ، لتبلوُنَّ أى لتختبرُنَّ أى لتعاملن معاملة المختبرين تظهر حالكم على حقيقتها ، فى أموالكم أى بالبذل فى سبيل الله وبالجوائح والآفات ، وفى أنفسكم أى بالقتل والأسر فى سبيل الله ، والأمراض وققد الأقارب ، الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، والذين أشركوا هم كفار العرب ، أذى كثيرا كالطعن فى الدين والافتراء على الله ورسوله ، والصبر: تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع دفعه بروية ، ومقاومة ما يحدث من الجزع ، والتقوى الابتعاد عن المعاصى ، من عزم الأمور أى من صواب التدبير ، وما ينبغى لكل عاقل أن يعزم عليه ويأخذ نفسه به ، من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا أى ألزمتك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه .

المعنى الجملى

بعد أن سلى نبيه فيما سلف عن تكذيب قومه له بأن كثيرا من الرسل قبلك قد كذبوا كما كذبت ، ولاقوا من أقوامهم من الشدائد مثل ما لاقيت ، بل أشد

مما لا قيت ، فقد قتلوا كثيراً منهم كيحيى وزكريا عليهما السلام زاده هنا تسليّة وتعزية أخرى ، فأبان أن كل ما تراه من عنادهم فهو مُنته إلى غاية ، وكل آت قريب ، فلا تضجر ولا تحزن على ما ترى منهم ، وأنهم سيجازون على أعمالهم في دار الجزاء كما تجازى ، وحسبك ما تصيب من حسن الجزاء ، وحسبهم ما أصيبوا به وما يصابون به من الجزاء في الدنيا ، وسيوفون الجزاء كاملاً يوم القيامة .

الإيضاح

(كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس تذوق طعم مفارقة البدن وتحس به ، وفي هذا إيماء إلى أن النفس لا تموت بموت البدن ، لأن الذى يذوق هو الموجود والميت لا يذوق ، فالذوق شعور لا يحس به إلا الحي .

(وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) أى وإنما تعطون جزاء أعمالكم كاملاً وافياً يوم القيامة ، وفي ذكر التوفية إشارة إلى أن بعض الأجور من خير أو شر قد تصل إليهم في الدنيا جزاء أعمالهم ، ويؤيده ما أخرجه الترمذى والطبرانى مرفوعاً « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران » .

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أى من خلاص من العذاب ووصل إلى الثواب فقد فاز بالمقصد الأسمى والغاية التى لا مطلب بعدها ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

والخلاصة أن هناك جنة وناراً وأن من الناس من يُبقى في هذه ومنهم من يلقي في تلك وأن هول النار عظيم ، وعبر عن النجاة عنها بالزحزحة كأن كل شخص كان مشرفاً على السقوط فيها لأن أعمالهم ساقطة لهم إلى النار لأنها أعمال حيوانية تسوق إليها ولا يدخل الجنة أحد إلا إذا زحزح ، فالزحزحة عنها فوز عظيم ، وأولئك

المزحزحون هم الذين غلبت صفاتهم الروحية على الصفات الحيوانية فأخلصوا في إيمانهم وجاهدوا في الله حق جهاده ، ولم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله معه في عمل من أعمالهم .

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أى وما حياتنا القربى التى نحن فيها ونتمتع بلذاتها الحسية من مأكل ومشرب ، أو المعنوية كالجاه والمنصب والسيادة إلا متاع الغرور ، لأن صاحبها دائماً مغرور مخدوع لها ، تشغله كل حين بجلب لذاتها ودفع آلامها فهو يتعب لما لا يستحق التعب ويشقى لتوهم السعادة .

والخلاصة أن الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغر الإنسان ويشغله عن تكميل نفسه بالمعارف والأخلاق التى ترقى بروحه إلى سعادة الآخرة .

فينبغي له أن يحذر من الإسراف فى الاشتغال بمتاعها عن نفسه وإنفاق الوقت فيما لا يفيد إذ ليس لذاتها غاية تنتهى إليها فلا يبلغ حاجة منها إلا طلب أخرى .
فما قضى أحد منها لباتته ولا انتهى أرب منها إلا إلى أرب

وعليه أن يسعى لكسب علم يرقى به عقله وعمل صالح ينتفع به وينفع عباده مع إصلاح السريرة وخلوص النية وقد قال بعض الصوفية : « عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك » .

(لتبْلُونَّ فى أموالكم وأنفسكم) بعد أن سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بما سبق آنفاً زاد فى تسليته بهذه الآية وأبان له أنه كما لقي هو ومن معه من الكفار أذى يوم أحد فسيلقون منهم أذى كثيراً بقدر ما يستطيعون من الإيذاء فى النفس أو فى المال ، والمقصود من هذا الإخبار أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع حتى لا يشق عليهم البلاء عند نزوله بهم .

والابتلاء فى الأموال يكون بالبذل فى جميع وجوه البر التى ترفع شأن الأمة الإسلامية وتدفع عنها أعداءها وترد عنها المكاره وتدفع عنها غوائل الأمراض والأوبئة .

والابتلاء في الأنفس بيذلها في الجهاد في سبيل الله و يموت من يحب من الأهل لأصدقاء أو بالمدافعة عن الحق ، وفائدة الابتلاء تمييز الخبيث من الطيب ، وفائدة الإخبار به أن تعرف السنن الإلهية ونهي أنفسنا لمقاومتها فإن من تقع به المصيبة فجأة على غير انتظار يعظم عليه الأمر ويحيط به الغم حتى ليقته في بعض الأحيان ، لكنه إذا استعد لها اضطلع بها وقوى على حملها .

وكذلك من تحدث له النعمة على غير توقع لها فإنها تحدث له دهشة وتهيجا في الأعصاب ، وربما أصيب بشلل أو اضطراب عقلي أو موت فجائي ، والحوادث المشاهدة في هذا الباب كثيرة .

(ولتسمعن من الذين أوتوا الكتب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) هذا سبيل آخر من الابتلاء في الأنفس وخصه بالذكر لأهميته أي أنكم ستسمعون إيذاء كثيراً من اليهود والنصارى والمشركين ، ومن ذلك حديث الإفك (قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها) وتآلب اليهود عليهم ونقض عهودهم ومحاولتهم قتل النبي صلى الله عليه وسلم حتى أجلاهم عن المدينة فأمن شرهم ، واتفاق اليهود مع أحزاب المشركين وزحفهم على المدينة لاستئصال المسلمين ، فقد حاصروهم وأوقعوا بهم شديد البلاء وضيقوا عليهم وفي ذلك يقول الله تعالى : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا » .

(وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) أي إن تصبروا على ما سيحل بكم من البلاء في أموالكم وأنفسكم ، وعلى ما تسمعون من أهل الكتاب والمشركين من الأذى وتتقوا ما يجب اتقاؤه ، فإن ذلك الصبر والتقوى من معزومات الأمور أي الأمور التي ينبغي أن يعزها كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف .

روى الزهري أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه كفار قریش في شعره وكان النبي صلى الله عليه وسلم

قدم المدينة وأهلها أخلاط من المسمين والمشركين واليهود ، فأراد النبي أن يستصلحهم كلهم فكان المشركون واليهود يؤذونه ويؤذون أصحابه أشد الأذى فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك وفيهم أنزل الله تعالى : (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب) الآية .

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

شرح المفردات

الميثاق العهد المؤكد ، والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، لتبينه للناس أى نتظهن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا تكتُمونه أى لا تؤؤنونه ولا تلقون الشبه الفاسدة والتأويلات المزيفة ، فنبذوه وراء ظهورهم أى طرحوه ولم يعتدوا به ، ويقال للأمر المعتنى به جعله نُصْبَ عينيه وألقاه بين عينيه ، واشتروا به ثمنا قليلا أى شيئا من حطام الدنيا الفانية ، بما أتوا أى بما فعلوا أن يحمدوا أى يحمدهم الناس ، بمفازة من العذاب أى بمنجاة منه ، من قولهم : فاز فلان إذا نجا .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه عن اليهود شيئا ومطاعن فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأجاب عنها بما علمت فيما سلف ، أردفه بهذه الآية لبيان عجيب حالهم وغريب

أمرهم وأنه لا يليق بهم أن يطعنوا في نبوته ولا أن يوجهوا شبها لدينه ، ذاك أن اليهود والنصارى أمروا بشرح ما في التوراة والإنجيل وبيان ما فيهما من الدلائل الناطقة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته ، فكيف يليق بهم بعد هذا إيراد تلك المطاعن والشبه وكثرت أجدر الناس بدفعها وأحقهم بتأييدهم والذود عن دينه لما في كتابيهما من البشارة به وتوكيد دعوته ، فالعقل قاض بأن يظاهروه ، ودينهم حاكم بأن يؤيدوه ، ومن العجب العاجب أن يطرحوا حكم العقل والنقل وراءهم ظهريا ، وهل مثل هؤلاء يجدى معهم الحجاج والجدل أو تقنعهم قوة الدليل والحجة .

الإيضاح

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)
أى واذكروا حين أخذ الله العهد والميثاق على الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى بلسان أنبيائهم ، لتبينن كتابهم للناس غير كاتمين له ، بأن يوضحوا معانيه كما هي ولا يؤولوه ولا يحرفوه عن مواضعه التى وضع لتقريرها ويذكروا مقاصده التى أنزل لأجلها حتى لا يقع اضطراب ولا لبس فى فهمه .

فإن لم يفعلوا ذلك فإما أن يبينوه على غير وجهه ولا يكون هذا بيانا ولا كشافا لأغراضه ومقاصده ، وإما لا يبينوه بتاتا ويكون هذا كتماناً له .

وهذه الآية وإن كانت لليهود والنصارى ، فإن العبرة فيها تنطبق على المسلمين أيضا فإنهم مع حفظهم لكتابهم وتلاوتهم إياه فى كل مكان فهم يتلون فى الشوارع والأسواق ومجتمعات الأفراح والأحزان ، تركوا تبينه للناس ففقدوا هدايته وعميت عليهم عظمته وزواجره وحكمه وأسراره ، واعترفوا بأنهم انحرفوا عنه وصار القابض على دينه كالقابض على الحجر وتبين الكتاب على ضربين :

- (١) تبينه لغير المؤمنين به لدعوتهم إليه .
- (٢) وتبينه للمؤمنين به لهدايتهم وإرشادهم بما أنزل إليهم من ربهم .

وكل منهما واجب على العلماء لاهوادة فيه ، وكفى بهذه الآية حجة عليهم وهي آكد من قوله : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(فنبذوه وراء ظهورهم) أى لم يبالوا به ولم يهتموا بشأنه ، وقد كان من الواجب عليهم أن يجعلاهم نصب أعينهم لا شيئاً مهملاً ملقى وراء الظهور لا ينظر إليه ، ولا يفكر فى أمره ، فقد كان منهم الذين لا يستفيدون منه شيئاً — ويحملونه كما يحمل الحمار الأسفار ، ومنهم الذين يحرفونه عن مواضعه ، ومنهم الذين لا يعلمون منه إلا أمانى يتمنونها وقراءات يقرءونها .

وإن هذا لينطبق على حال المسلمين اليوم أتم الانطباق ، فهم قد اتبعوا سنن من قبلهم ونهجوا نهجهم حذو القذة بالقذة ، فما بالهم عن التذكرة معرضين وكتاب الله بين أيديهم شاهد عليهم وهو يتلى بين ظهرانيهم .

(واشتروا به ثمناً قليلاً) أى أخذوا عوضاً منه فائدة دنيوية حقيرة فغبنوا فى هذا البيع والشراء ، وهذا الثمن هو ما كان يستفيدة الرؤساء من المرءوسين من حطام الدنيا ليتمتعوا بلذاتها الفانية ، وشهواتها الفاسدة ، وكانوا يؤولون الكتاب ويحرفونه لأغراض كثيرة كالخوف من الحكم والرجاء فيهم فيصرفون نصوصه إلى معانٍ توافق هوى الحاكم ليأمنوا شره ، وكإرضاء العامة أو الأغنياء بموافقة أهوائهم لاستفادة جاههم ومالهم ، وكالجدل والمراء بين رجال الدين ولا سيما الرؤساء وطلاب الرئاسة ، وكالجهل الذى يفسد قواعد الدين فإذا تصدى جاهل للفتيا والتعليم حرف وخرف وكان وبالاً على الدين وأهله .

(فبئس ما يشترون) أى أن ما يشترونه ذميم قبيح لأنهم جعلوا الفانى بدلاً من النعيم الدائم الذى يحصل للأمة من اتباعها لكتابها وهداياها بارشاده وتهذيب أخلاقها بأدابه وجمع كلمتها حول تعاليمه . وبذا تحول بينها وبين المستبدين فيها وتصبح عزيزة الجانب متكافلة متضامنة ، أمر أهلها بينها شورى .

وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ، وعن أبي هريرة أنه قال : لولا ما أخذ الله تعالى على أهل الكتاب ما حدثتكم وتلا هذه الآية ، وعن الحسن أنه قال لولا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه

(لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) كان الكلام قبل هذا مع أهل الكتاب وأنه قد أخذ عليهم الميثاق بتبيين كتابهم للناس فقصروا فى ذلك وتركوا العمل به واشتروا به ثمنا قليلا فاستحقوا العقاب من ربهم .

وهنا ذكر حالا أخرى من أحوالهم ليحذر المؤمنون منها وهو أنهم كانوا يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب ويرون لأنفسهم شرفا فيه وفضلا بأنهم أئمة يقتدى بهم ، وكانوا يحبون أن يحمدوا بأنهم حفاظ الكتاب ومفسروه وهم لم يفعلوا شيئا من ذلك وإنما فعلوا نقيضه إذ حولوه من الهداية إلى ما يوافق أهواء الحكم وأهواء العامة .

ومن عجيب حالهم أنه قد اشتبه أمرهم على الناس فهم يحسبون أنهم أولياء الله وأنصار دينه وعلماء كتابه وأنهم أبعد الناس عن عذابه وأقر بهم من رضوانه ، فبين الله كذب هذا الحسبان ونهى عنه وسجل عليهم العذاب .

الخلاصة : لا تظنن أيها المخاطب أن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ، ناجون من العذاب الدنيوى وهو العذاب الذى يصيب الأمم التى فسدت أخلاقها وساءت أعمالها ، وألفت الفساد والظلم ؛ وهو ضربان :

(١) عذاب هو أثر طبيعى للحال التى يكون عليها المبطلون على حسب سنة الله فى الاجتماع البشرى بخذلان أهل الباطل والافساد ، وذهاب استقلالهم ونصرة أهل الحق عليهم وتمكينهم من رقابهم وديارهم وأموالهم ليحل الإصلاح محل الافساد

والعدل مكان الظلم « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْىَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

(٢) عذاب يكون سخط سماويا كالزلزال والخسف والظوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التى نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بربهم وكذبوهم وذكروهم عند اشتداد عتوتهم وإيذاهم لرسولهم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء فى التوراة فكتبوا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا ، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم .

(ولهم عذاب أليم) أى عذاب عظيم فى الآخرة كفاء فساد أخلاقهم وسوء طوبيتهم وحجبهم للحمد الكاذب، وقوله بما أتوا أى بما فعلوا . قال صاحب الكشف : أتى وجاء يستعملان بمعنى فعل قال تعالى : « إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا » وقال : « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا » وقوله : فلا تحسبنهم تأكيد لقوله : ولا تحسبن الذين ، وقد عهد هذا فى الأساليب العربية من إعادة الفعل إذا طال الفصل بينه وبين معموله . قال الزجاج : العرب إذا أطالت القصة تعيد حسبت وما أشبهها إعلاما بأن الذى جرى متصل بالأول فتقول لا تظنن زيدا إذا جاءك وكلك بكذا وكذا ، فلا تظنه صادقا ، فيفيد لا تظنن توكيذا وتوضيحا ، والفاء زائدة كما فى قوله * فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعى *

(والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير) أى لا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تضعفوا ، وبيّنوا الحق ولا تكتموا منه شيئا ، ولا تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ولا تفرحوا بما علمتم ، فإن الله يكفيكم ما أهمكم ويغنيكم عن هذه المنكرات التى نهيت عنها ، فإن لله ملك السموات والأرض يعطى من يشاء ، وهو على كل شيء قدير لا يعز عليه نصركم على من يؤذونكم بأيديهم وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين .

وفي هذا إيماء إلى أن الخير في اتباع ما أرشد إليه ، وفيه تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ووعد له بالنصر ، وفيه تعريض بذم أولئك المخالفين ووصفهم بأنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يظهر أثره في أخلاقهم وأعمالهم ، إذ لو كانوا كذلك ما تركوا العمل بكتابه وآثروا عليه ما يستفيدونه من حطام الدنيا .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ،
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سَمِيعًا نِكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا
مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ
عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا أَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

شرح المفردات

الخلق التقدير والترتيب الدال على النظام والاتقان ، والسموات ما علاك مما تراه فوقك ، والأرض ما تعيش عليه ، اختلاف الليل والنهار تعاقبهما ومجىء كل منهما خلف

الآخر ، لآيات لأدلة على وجود الله وقدرته ، الألباب واحدها اب وهو العقل ، قياما وقعودا واحدها قائم وقاعد ، باطلا أى عبثا لافائدة منه ، سبحانه أى تنزيها لك عما لا يليق بك ، قنا عذاب النار أى اجعل العمل الصالح وقاية لنا من عذاب النار ، يقال أخزاه أذله وأهانته ، الذنب هو التقصير فى المعاملة بين العبد وربه ، والسيئة هى التقصير فى حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضا ، وتوفنا أى أمتنا ، والأبرار واحدهم بار وهو المحسن فى العمل ، على رسلك أى على تصديق رسلك ، الميعاد الوعد ، استجاب أى أجاب ، لا أضيع عمل عامل أى لا أترك ثوابه ، بعضكم من بعض أى مختلطون متعاونون ، فى سبيل أى بسبب طاعتى وعبادتى ودينى .

المعنى الجملى

قال الرازى : اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق ، فلما طال الكلام فى تقرير الكلام والجواب عن شبهات المبطلين ، عاد إلى إثارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والألوهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية .

الايضاح

(إن فى خالق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب)
أى إن فى نظام السموات والأرض وبديع تقديرها وعجيب صنعها ، وفى اختلاف الليل والنهار وتماقبيهما بنظام دقيق طوال العام ، نرى آثاره فى أجسامنا وعقولنا بتأثير حرارة الشمس وبرد الليل ، وفى الحيوان والنبات وغير ذلك - لآيات ودلائل على وحدانية الله وكمال علمه وقدرته ، عن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هل لك يا عائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى ، فقلت يارسول الله إني لأحب قر بك وأحب هوائك (ماتهورى وتريد) فدأذنت لك فقام إلى قربى

من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغت الدموع حقوئيه ثم جس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فراه يبكي فقال له : يارسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً ثم قال : ومالي لا أبكي وقد أنزل الله على في هذه الليلة : إن في خلق السموات والأرض الخ ، ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » وروى « ويل لمن لا كهيا بين فكيه ولم يتأملها » .

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أى أولو الأبواب هم الذين ينظرون ويستفيدون ويهتدون ويستحضرون عظمة الله ويتذكرون حكته وفضله وجليل نعمه في جميع أحوالهم من قيام وقعود واضطجاع .

والخلاصة أنهم هم الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرأثرهم بمراقبته .

وذكر الله وحده لا يكفى في الاهتداء ، بل لا بد معه من التفكير في بديع صنعه وأسرار خليقته ومن ثم قال :

(ويتفكرون في خلق السموات والأرض) أى يتفكرون في خلق السموات والأرض ، وما فيهما من الأسرار والمنافع الدالة على العلم الكامل والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والخلاصة أن الفوز والنجاة إنما يكون بتذكر عظمة الله والتفكير في مخلوقاته من جهة دلالتها على وجود خالق واحد له العلم والقدرة ، وبتبعية ذلك صدق الرسل وأن الكتب التي أنزلت عليهم مفصلة لأحكام التشريع وحاولية لكامل الآداب وجميل الأخلاق ولما يلزم نظم المجتمع في هذه الحياة وللحساب والجزاء على الأعمال بدخول الجنة والنار .

وإنما ذكر التفكير في خلق الله ، لورود النهي عن التفكير في الخالق ؛ لعدم

الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته ، فقد أخرج الأصبهاني عن عبد الله بن سلام قال :
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم ينفكرون فقال : « تفكروا
في الخلق ولا تفكروا في الخالق » وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله تعالى » .

(ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه أى يقول الذاكرون المتفكرون : ربنا
ما خلقت هذا الذى نشاهده من العوالم العلوية والأرضية باطلا ، ولا أبدعته عبثا .
سبحانك ربنا تنزهت عن الباطل والعبث ، بل كل خنقك حق مشتمل على حكم
جليلة ، ومصلح عظيمة .

والإنسان بعض خلقك لم يخلق عبثاً ، فإن لحقه الفناء وفرقت منه الأجزاء بعد
مفارقة الأرواح للأبدان ، فإنما يهلك منه كونه الفاسد أى الجسم ، ثم يعود بقدرتك
في نشأة أخرى كما بدأت في النشأة الأولى ، فريق أطاعك واهتدى . وفريق حققت
عليه المضلالة ، فالأول يدخل الجنة بصالح أعماله والآخر يكب في النار بما اجتراح من
السيئات ، وما عمل من الموبقات ، جزاء وفاقا .

والخلاصة أن المؤمن المتفكر توجه إلى الله بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال
بعد أن رأى الدلائل على بديع الحكمة ، وواسع العلم بدقائق الأكوام التى تربط
الإنسان بربه ، وفى هذا تعليم للمؤمنين كيف يخاطبون ربهم عند ما يهتدون إلى شئ
من معاني إحسانه وكرمه في بدائع خلقه .

(فقنا عذاب النار) أى فوققنا بعنايتك لصالح العمل بما فهمنا من الدلائل حتى
يكون ذلك وقاية لنا من عذاب النار .

(ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) أى إبهم بعد أن يدعوا ربهم أن
يقيم دخول النار يتوجهون إليه قائلين هذا القول ، دلالة على عظم هذا العقاب
وشدته وهو الخزي والفضيحة ليكون موقع السؤال أعظم ، لأن من طلب من ربه

شيئاً وشرح عظم المطلوب وقوته ، كانت الداعية إلى الدعاء أكل والإخلاص في الطلب أشد .

(وما للظالمين من أنصار) الظالم هو الذى يتكذب الطريق المستقيم ، وقد وصف من يدخل النار بالظلم للدلالة على أن سبب دخوله إياها هو جوره وظلمه ، وللتشجيع عليه بهذا العمل القبيح .

أى إن هؤلاء المنفكرين انذارين ينظرون إلى هيبة ذلك الرب العلى الذى خلق تلك الأكوام المملوءة بالأسرار والحكم فيعلمون أنه لا يمكن أحدا أن ينتصر عليه ، وأن من عاداه فلا ملجأ له إلا إليه .

(ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا) المنادى هو الرسول ، وذكره بوصف المنادى نعظيماً لشأن هذا النداء ، أى إنهم بعد أن عرفوا الله تعالى حق معرفته بالذكر والفكر عبروا عن وصول دعوة الرسول إليهم واستجابتهم دعوته سراعاً بدون تلبث بهذا القول ، لأنه دعاهم إلى ما اهتمدوا إليه من قبل ، وزادهم معرفة وبصيرة في عالم الغيب والحياة الآخرة وفي مقدمة الدعاء بالنداء إشارة إلى كمال توجههم إلى مولاهم وعدم غففتهم عنه مع إظهار كمال الضراعة والابتهال إلى من عودنا بالإحسان والإفضال .

(ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوف مع الأبرار) الغفران الستر والتغطية ، يقال : رجل مكفر بالسلاح أى مغطى به ، قال لبيد : « في ليلة كفر النجوم ظلامها » .

أى إنهم طلبوا من الله تعالى في هذا الدعاء ثلاثة أشياء غفران الذنوب المتقدمة ، وتكفير السيئات المستقبلية ، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة كما يقال فلان في العطاء مع أصحاب الألوף أى هو مشارك لهم في أنه يعطى ألقاً قال تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ » وفي هذا رمز إلى أنهم كانوا يحبون لقاء الله « ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » .

(ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك) أى ربنا أعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء كالنصر في الدنيا والنعم في الآخرة جزاء على تصديق رسلك واتباعهم .

وخلاصة ذلك أنهم قالوا أعطنا ذلك بتوفيقنا للشباب على ما نستحق ذلك به إلى أن تتوفانا مع الأبرار ، وفي هذا استشعار بتقصيرهم وعدم الثقة بثباتهم إلا بتوفيق الله ومزيد عنايته .

(ولا تخزنا يوم القيامة) أى لا نفضحنا ولا تهتك سترنا يوم القيامة بإدخالنا النار التي يخزي من دخلها .

(إنك لا تخلف الميعاد) أى لا تخف ما وعدت به على الإيمان وصالح العمل ، فقد وعدت بسيادة الدنيا في قولك « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » وقالت « إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ » ووعدت بسعادة الآخرة فقلت « وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

(فاستجاب لهم ربهم) أى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض (أى استجاب لهم ربهم دعاءهم لصدقتهم في إيمانهم وذكركم وتفكيرهم وتنزيههم لربهم وتصديقهم للرسول وشعورهم بالضعف والتقصير في الشكر واحتياجهم إلى المغفرة .

وإنا لنستخلص من هذه الآية أموراً :

(١) أن الاستجابة يصح أن تكون بغير ما طلب ، فقد سأله غفران الذنوب وتكفير السيئات والوفاء مع الأبرار ، فأجابهم بأن كل عامل سيوفى جزاء عمله . وفي ذلك تنبيه إلى أن العبرة في النجاة من العذاب والفوز بحسن الثواب ، إنما تكون بإحسان العمل والإخلاص فيه .

(٢) أن الذكر والأشئ متساويان عند الله في الجزاء متى تساوى في العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورأسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها .

(٣) أن الله قد بين علة هذه المساواة بقوله: بعضكم من بعض ، فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل فلا فرق بينهما في البشرية ولا تفاضل إلا بالأعمال .

(٤) أنها رفعت قدر النساء المسلمات في أنفسهن وعند الرجال المسلمين .

(٥) أن هذا التشريع قد أصلح معاملة الرجل للمرأة واعترف لها بالكرامة ، وأنكر تلك المعاملة القاسية التي كانت تعاملها بها بعض الأمم فقد كان بعضها يعدها كالبهيمة المستخرة لمصلحة الرجل و بعضها يعدها غير أهل للتكاليف الدينية إذ زعموا أنه ليس لها روح خالدة ، فما زعمه الإفرنج من أنهم السباقون إلى الاعتراف بكرامة المرأة ومساواتها للرجل ليس مبنياً على أساس صحيح ، فالإسلام هو الذي سبق كل الشرائع في هذا ولا تزال شرائعهم الدينية والمدنية تميز الرجل على المرأة ، نعم إن المسلمين قصرُوا في تعليم النساء وتربيتهن ، لكن هذا لا يصلح حجة على الدين نفسه .

(٦) أن ما يفضل به الرجال النساء من العلم والعقل وما يقومون به من الأعمال الدنيوية التي جرى عرف المجتمع على إسنادها إلى الرجال ، وجعل حظ الرجل في الإرث مثل حظ الأنثيين لأنه يتحمل نفقة امرأته فلا دخل لشيء منه في التفاضل عند الله بشواب ولا عقاب .

(فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) بعد أن ربط الله الجزاء بالعمل ، بين أن العمل الذى يستحقون به ما طلبوا من تكفير السيئات ودخول الجنة ، هو الهجرة من الوطن في خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإخراج من الديار بإلحاح الكافرين إياهم إلى الخروج والإيذاء في سبيل الله والقتل والقتل وبذل المهجة لله عز وجل ، كل أولئك يكفر الله به عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ولهذا الآية نظائر في الكتاب الكريم كقوله « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » وقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُسِفٌ هَدُوءًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ » وقوله : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

وقد ذكر الله صفات المؤمنين هكذا لينبهنا إلى أن نرور أنفسنا ونختبرها ، فإن رأيناها تحتل الأذى في سبيل الله حتى اتقتل فلها الرضوان من ربها ، وإلا فنروضا حتى تصل إلى هذه المنزلة ، ونسرف في هذا التكليف الشاق أن الحق لا يقوى إلا إذا وجد من ينصره ويؤيده ويقاوم الباطل وأعوانه حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى فيجب على أنصار الحق ألا يفشلوا ولا ينهزموا ، بل يثبتوا مبها لا تقوا من الحن والأرزاء فقد كتب الله النصر لعباده المؤمنين .

، ثوابا من عند الله (الثواب والثوبة الجزاء ، وقد جعله الدين أثرا طبعيا للعمل فللأعمال تأثير في نفس العامل بتزكيتها فتكون منعمة في الآخرة ، أو تفسدها فتكون معذبة فيها .

وقد وعد الله تعالى من فعل ذلك بأمور ثلاثة :

(١) محو السيئات وغفران الذنوب ودل على ذلك بقوله : (لا كفرن عنهم سيئاتهم) وذلك ما طلبوه بقولهم (فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) .

(٢) إعطاء الثواب العظيم وهو قوله : (ولأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار) وهذا ما طلبوه بقولهم : (وآتانا ما وعدتنا على رسلك) .

(٣) أن يكون هذا الثواب عظيما مقرونا بالتعظيم والإجلال ، وهو قوله : (من عند الله) وهذا ما طلبوه بقولهم (ولا تخزنا يوم القيامة) والمعنى لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلهم الجنات ولأثيبهم بذلك ثوابا من الله لا يقدر عليه غيره .

(والله عنده حسن الثواب) أى هو ثواب من عنده مختص به بحيث لا يقدر عليه غيره ، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب ، لأنه تعالى قادر على كل شيء غنى عن كل أحد فهو لا محالة في غاية الجود والكرم والإحسان .

لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ
 مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
 خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
 إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

شرح المفردات

تقول: غرتى ظاهره أى قبلته على غفلة عن امتحانه ، ويقال فى الثوب إذا نشر
 ثم أعيد إلى طيه : رددته على غرّه ، تقلب الذين كفروا : تصرفهم فى التجارات.
 والمكاسب ، متاع قليل أى ذلك الكسب والربح متاع قليل ، وإنما وصفه بالقلة لأنه
 قصير الأمد ، ماوَاهم : مصيرهم ، جهنم : الدار التى يجازى فيها الكافرون فى الآخرة ،
 والمهاد: المكان الموطأ كالفراش ، والنزل : ما يهيم للضيف النازل ، والأبرار : واحدهم
 بار وهو المتصف بالبر ، خاشعين أى خاضعين ، اصبروا أى احبسوا نفوسكم عن الجزع
 مما ينالها ، وصابروا أى اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله ، ورابطوا أى أقيموا
 فى الثغور رابطين خيولكم حاسبين لها مترصدين للغزو ، والتقوى: أن تتق نفسك من
 غضب الله وسخطه ، والفلاح : هو الفوز والظفر بالبعية المقصودة من العمل .

المعنى الجملى

بعد أن وعد الله المؤمنين بالثواب العظيم وكانوا فى الدنيا فى غاية الفقر والشدة ،
 والكفار كانوا فى رخاء ولين عيش ذكر فى هذه الآية ما يسليهم ويصبرهم على تلك

الشدة ، فينبى لهم حقارة ما أوتى هؤلاء من حظوظ الدنيا وذكر أنها متاع قليل زائل ، فلا ينبغي للعاقل أن يوازن بينه وبين النعيم الخالد المقيم .

الإيضاح

(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) أى لا يغرنك يا محمد والمراد أمته ، فكثيراً ما يخاطب سيد القوم بشىء ويراد أتباعه ، وهذا معنى ما روى عن قتادة أنه قال : والله ما غروا نبى الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله .

وخلصا المعنى — لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم في البلاد كيف شاءوا وأنتم معاشر المؤمنين خائفون محصورون ، فإن ذلك لا يبقى إلا مدة قليلة ثم ينتقلون إلى أشد العذاب ، فعلى المؤمن أن يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب الذى وعده الله فهو النعيم الحقيقى الباقي .

(متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) أى ذلك التقلب في البلاد الذى يتمتعون به متاع قليل عاقبته هذا المأوى الذى ينتهون إليه في الآخرة فيكونون خالدين فيه أبداً ، بما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم .

نزلت الآية في مشركى مكة إذ كانوا يضربون في الأرض يتجرون ويكتسبون حين لا يستطيع المسلمون ذلك لوقوف المشركين لهم بالمرصاد والإيقاع بهم أينما تقفونهم وعجز هؤلاء عن مقاومتهم إذا خرجوا من ديارهم للتجارة أو غيرها .

وقد روى من وجه آخر أن بعض المؤمنين قال : إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهل فنزلت الآية ، وبعد أن بين الله حال الكافرين وبين مآل أمرهم ، ذكر في مقابلة ذلك عاقبة المؤمنين ليعلموا أنهم في القسمة غير مغبونين ، فقال :

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلوا من عند الله) أى لكن الذين اتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المنهيات ، لهم جنات

النعم خالدین فیہا أبداً ، ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وفي الآية إيماء إلى أن النازلين فیہا ضیوف عند ربهم یحفهم بلطفه ویخصهم بکرمه وجوده ، وهذه الجنات نعم جسمانی لهم ، وهناك نعم روحانی أعطاه الله بمحض الفضل والإحسان وإلیه الإشارة بقوله :

(وما عند الله خیر للآبرار) أى وما عنده من الکرامة فوق ما تقدم خیر وأفضل مما یتقارب فیہ الذین کفروا من المتاع القلیل الفانی .

(وإن من أهل الکتاب لمن یؤمن بالله وما أنزل إلیکم وما أنزل إلیهم خاشعین لله لا یشترون بآیات الله ثمناً قلیلاً) بعد أن بین حال المؤمنین وما أعد لهم من الثواب وحال الکافرين وما هیأ لهم من العقاب . ذکر هنا فریقاً من أهل الکتاب یمتدون بهذا القرآن وكانوا من قبله مهتدین بما عندهم من هدی الأنبیاء وقد وصفهم الله بصفات کلها تستحق المزیة والشرف :

الأولى : الإیمان بالله إیماناً لا تشوبه نزعات الشریک ولا یفارقه الإذعان الباعث على العمل ، لا کمن قال الله فیهم « وَمَا یُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .
الثانية : الإیمان بما أنزل إلی المسلمین ، وهو ما أوحاه الله إلی نبيه محمد صلى الله علیه وسلم .

الثالثة : الإیمان بما أنزل إلیهم وهو ما أوحاه الله إلی أنبیائهم ، والمراد به الإیمان إجمالاً وما أرشد إلیه القرآن تفصیلاً فلا یضیر فی ذلك ضیاع بعضه ونسیان بعضه الآخر .
الرابعة : الخشوع وهو الثمرة للإیمان الصحیح فإن الخشوع أثر خشية الله فی القلب ومنه تفیض على الجوارح والمشاعر ، فیخشع البصر بالانکسار ویخشع الصوت بالخفوت والتهدج .

الخامسة : عدم اشتراء شیء من متاع الدنیا بآیات الله وهذا أثر لما قبله .
روی النسائی من حدیث أنس قال : « لما جاء نعی النجاشی قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : صابوا عليه ، وانوا يا رسول الله نصلى على عبد حبشى ، فأنزل الله هذه الآية » :

(أولئك لهم أجرهم عند ربهم) أى هؤلاء المتصفون بحميد الصفات وجليل الأعمال لهم ثواب أعمالهم وأجر طاعتهم عند ربهم الذى رباهم بنعمه وهداهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

(إن الله سريع الحساب) فهو يحاسب الناس جميعهم فى وقت قصير فيتمثل لهم ما كسبته أيديهم وانطوت عليه جوائنهم وهو مكتوب فى صحائف أعمالهم ، فما أحرانا أن نشبهها بالصور المتحركة (الأفلام) التى تعرض فيها الحوادث والوفائع فى عصرنا الحاضر .

وقد ختم الله هذه السورة بوصية للمؤمنين إذا عملوا بها كانوا أهلا لاستجابة الدعاء وأحق بالنصر فى الدنيا وحسن مشوبة فى الآخرة فقال :

(يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) أى اصبروا على شدائد الدنيا وآلامها من مرض وفقر وخوف ، وصابروا : وتحملوا المكارد التى تلحقكم من سواكم . ويدخل فى ذلك احتمال الأذى من الأهل والجيران وترك الانتقام ممن يسىء إليكم كما قال : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » وإيثار غيركم على أنفسكم كما قال : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » والعفو عن ظلمكم كما قال : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » ودفع شبه المبطلين وحل شكوكهم والإجابة عن شبههم ، وقوله ورابطوا أى اربطوا خيلكم فى الشغور كما يربط العدو خيله استعداداً للقتال كما قال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » ويدخل فى هذا كل ما ولده العلم فى هذا العصر من وسائل الدفاع من طائرات وقذافات للقنابل ودبابات ومدافع رشاشة وبنادق وأساطيل بحرية ونحو ذلك مما صار ضروريا من آلات الحروب الحديثة ، وصار من فقدائها يشبه أن يكون أعزل من السلاح وإن كان مدججا به ، ويلزم هذا أن يكونوا عالمين بفنون الحرب

والخطط العسكرية بارعين في العلوم الطبيعية والرياضية ، فكل ذلك واجب على المسلمين في هذا العصر لأن الاستعداد لا يتم إلا به ، ولقد أكرم الله في كتابه من ذكر التقوى ويراد بها الوفاية من سخط الله وعظمه ، ولا يكون هذا إلا بعد معرفته ومعرفته ما يرضيه وما يسخطه ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله وعرف سنة نبيه وسيرة السلف الصالح من الأمة الإسلامية . ومن فعل كل ما تقدم فصبر وصابر ورابط لحماية الحق وأهله ونشر دعوته واتقى ربه في سائر شئونه فقد أفلح وفاز بالسعادة عند ربه . وهذا الفوز والفلاح بالبغيه قد يكون في شئون الدنيا كما جاء حكاية عن فرعون « وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى » وقد يكون في شئون الآخرة كقوله تعالى حكاية عن أهل الكهف « وَلَنْ تَفْلَحُوا إِذَا أَبَدًا » .

وقد يكون فيهما معا ، وأكثر ما جاء في القرآن من هذا كالذي نحن فيه فإن مصابرة الأعداء والمراقبة والتقوى كلهما من وسائل الظفر على الأعداء في الدنيا كما أنها من أسباب السعادة في الآخرة بعد توافر حسن النية ، وقصد إقامة الحق والعدل . وقفنا الله للعمل إلى ما يرضيه حتى نصل إلى سعادة الدارين ، بفضلته وإحسانه ، ومنه وكرمه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

سورة النساء

آيها مائة وسبعون وست . نزلت بعد الممتحنة .
وهي مدنية كلها ، فقد روى البخارى عن عائشة أنها قالت : « ما نزلت سورة للنساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقد بنى النبي بعائشة في المدينة في شوال من السنة الأولى من الهجرة .

ووجه المناسبة بينها وبين آل عمران :

(١) أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة بذلك ، وهذا من أكّد المناسبات في ترتيب السور .

(٢) أن في السابقة ذكر قصة أحد مستوفاة ، وفي هذه ذيل لها وهو قوله : « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ » فإنه نزل في هذه الغزوة على ما استعرفه بعد .

(٣) أنه ذكر في السالفة الغزوة التي بعد أحد وهي (غزوة حمراء الأسد) بقوله « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » وأشير إليها هنا في قوله : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ » الآية .

ما حوته السورة من الموضوعات

(١) الأمر بتقوى الله في السر والعلن .

(٢) تذكير المخاطبين بأنهم من نفس واحدة .

(٣) أحكام القرابة والمصاهرة .

(٤) أحكام الأنكحة والمورث .

(٥) أحكام القتال .

(٦) الحجاج مع أهل الكتاب .

(٧) بعض أخبار المناقنين .

(٨) الكلام مع أهل الكتاب إلى ثلاث آيات في آخرها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

شرح المفردات

الناس اسم للجنس البشرى ، وهو الحيوان الناطق المنتصب القامة الذى يطلق عليه اسم (إنسان) تساءلون به أى يسأل بعضكم بعضاً بأن يقول سألتك بالله أن تقضى هذه الحاجة ، والأرحام أى خافوا حق إضاعة الأرحام ، والرقيب المراقب وهو المشرف من مكان عال ، والمراقب المكان الذى يشرف منه الإنسان على ما دونه ، والمراد هنا بالرقيب الحفظ لأن ذلك من لوازمه .

المعنى الجملى

يأيتها الناس اتقوا ربكم الذى أنشأكم من العدم ، ورباكم وشملكم بالجود والكرم ، واذكروا أنه خلقكم من نفس واحدة وجعلكم جنساً تقوم مصالحه على التعاون والتآزر ، وحفظ بعضكم حقوق بعض .

أى اتقوا الله الذى تعظمونه وتتساءلون فيما بينكم باسمه الكريم ، وبحقه على عباده وبما له من السلطان والجبروت ، وتذكروا حقوق الرحم عليكم فلا تفرطوا فيها ، فإنكم إن فعلتم ذلك أفستم الأسر والعشائر ، فعليكم أن تحافظوا على هاتين الرابطين .

رَابطة الإيمان ورَابطة الرحم الوشيعة ، والله رقيب عليكم يعلم ما تاتون وما تذرّون ، ويحاسبكم على التّقيّر والتّطمير « وَلَا يَطْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) أى أيها الناس احذروا عصيان من ربكم بإحسانه ، وتفضل عليكم بمجوده وإنعامه ، وجعلكم أقرباء يجمعكم نسب واحد وأصل واحد .

وجهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا آدم ، وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية ، بل أخذوه تسليحاً وهو أن آدم أبو البشر .

وقال القفال : إن المراد أنه خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجاً هو إنسان يساويه في الإنسانية ، أو أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهم آل قصيّ ، وأن المراد بالنفس الواحدة قصيّ اهـ .
وقال بعض العلماء أبيهم الله تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها ، فلندعها على إيهامها ، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أباً كان ذلك غير مخالف لكذبنا ، كما هو مخالف للتوراة التي نصت صراحة على أن آدم أبو البشر ، فعمل ذلك بعض الناس على الطعن في كونها من عند الله ووحيه .
وقال الأستاذ الإمام : إن ظاهر الآية يابى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم لوجهين :

- (١) البحث العلمى والتاريخى المعارض لذلك .
 - (٢) أنه قال رجالاً كثيراً ونساء ، ولم يقل الرجال والنساء ، ونكن ليس .
- في القرآن ما ينفى هذا الاعتقاد ولا ما يثبتته إثباتاً قاطعاً لا يحتمل التأويل اهـ .
- وما جاء من مخاطبة الناس بقوله : « يَا بَنِي آدَمَ » لا يعد نصّاً في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة هذا الخطاب أن يكون من وُجّه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم .

بحث في حقيقة النفس أو الروح

اختلف المسلمون في حقيقة النفس أو الروح الذى يحيا به الإنسان وتتحقق وحدة جنسه على اختلاف أصنافه ، وأشهر آرائهم فى ذلك :

(١) أنها جسم نورانى علوى خفيف حى متحرك ينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء فى الورد والنار فى الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار التى تفيض عليها من هذا الجسم اللطيف ، وجد الحس والحركة الإرادية والفكر وغيرها ، وإذا فسدت هذه الأعضاء ، وعجزت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

ومما يثبت ذلك أن العقل والحفظ والتذكر وهى أمور ثابتة قطعاً - ليست من صفات هذا الجسد ، فلا بد لها من منشأ وجودى عبر عنه الأقدمون بالنفس والروح . وما مثبها إلا مثل الكهرباء ، فالماديون الذين يقولون لأرواح إلا هذه الحياة ، يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائى ، فهو بوضعه الخاص ، وبما يودع فيه من المواد تتولد فيه الكهرباء ، فإذا زال شئ مما أودع فيه ، أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء ، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة ، وبزوالها تزول الحياة ، والذين يقولون إن للأرواح استقلالاً عن الجسد ، يكون مثل الجسد مثل الآلة التى تدار بكهرباء تأتى إليها من المولد الكهربائى فإذا كانت الآلة على وضع خاص فى أجزائها وأدواتها كانت مستعدة لقبول الكهرباء التى توجه إليها حتى تؤدي وظيفتها ، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية ، أو اختلف وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء ، ومن ثم لا تؤدي وظيفتها الخاصة بها .

(وخلق منها زوجها) أى وخلق لتلك النفس التى هى آدم زوجاً منها وهى حواء ، قالوا إنه خلقها من ضلعه الأيسر وهو نائم ، وقد صرح بهذا فى الفصل الثانى من سفر التكوين وورد فى بعض الأحاديث ، فقد روى البخارى قوله صلى الله عليه وسلم

« إن المرأة خنقت من ضلع أعوج ، فإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها وفيها عوج استمتمت بها » .

وخلاصة هذا -- أنه شعبكم من نفس واحدة أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء .

ويرى أبو مسلم الأصفهاني : أن معنى (منها) أى من جنسها كما جاء مثل هذا فى قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » وقوله : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » فلا فرق بين أساب هذه الآية وأساليب الآيات الأخرى والمعنى فى الجميع واحد .

ومن ثبت عنده أن حواء خلقت من ضلع آدم فلا يكون مصدر الإثبات عنده هذه الآية ، وإلا كان إخراجها عما جاء فى أمثالها اهـ .

(وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) أى ونشر وفرق من آدم وحواء نوعى جنس الإنس وهما الذكور والإناث . وهذا تفصيل لما أجمله فى قوله : خلقكم من نفس واحدة ، أى نحتى من جنس تلك النفس زوجها ، وجعل النسل من الزوجين كليهما ، فجميع سلائل البشر متوالدة من زوجين ذكر وأنثى .

(واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) أى واتقوا الله الذى يسأل به بعضكم بعضاً ، بأن يقول سأنتك بالله أن تقضى هذه الحاجة ، وهو يرجو بذلك إجابة سؤاله ، ولزاد من سؤاله بالله سؤاله بإيمانه به وتعظيمه إياه ، أى أسألك بسبب ذلك أن تفعل كذا .

واتقوا إضاعة حق الأرحام ، فصاوها بالبر والإحسان ولا تقطعوها .

وكرر الأمر بالتقوى للحث عليها ، وعبر أولاً بلفظ (الرب) الذى يدل على التربية والإحسان ، ثم بلفظ (الله) الذى يدل على الهيبة والقهر للترغيب أولاً ،

والترهيب ثانيا كما قال تعالى : « يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » كأنه قيل إنه ربك وأحسن إليك فاتق مخالفته لأنه شديد العقاب عظيم السطوة .

(إن الله كان عليكم رقيياً) أى إنه مشرف على أعمالكم ومناشئها من نفوسكم وتأثيرها فى أحوالكم لا يخفى عليه شئ من ذلك ، فلا يشرع لكم من الأحكام إلا ما فيه صلاحكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة ، وفى ذلك تنبيه لنا إلى الإخلاص فى أعمالنا ، إذ من كان متذكراً أن الله مراقب لأعماله كان جديراً أن يتقيه ويلتزم حدوده .

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْقَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا ، وَاتُّوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٢﴾

شرح المفردات

اليتم لغة : من مات أبوه مطلقاً ، لكن العرف خصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال ، ولا تبدلوا أى لا تستبدلوا ، والخيث : هو الحرام ، والطيب : هو الحلال ، حوباً كبيراً : أى إثماً عظيماً ، القسط : النصيب ، وقسط : جار ، قال تعالى : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » وأقسط : عدل ، قال تعالى : « وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ما طاب لكم : أى ما مال إليه القلب منهن ، مثنى وثلاث ورباع : أى ثنتين ثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً ، ذلك أدنى ألا تعملوا : أى ذلك أقرب إلى عدم العول

والجور ، صدقاتهن : مهرهن ، نحلة : أى عطية وهبة ، هنيئاً مريئاً : الهنىء ما يستلذه الآكل ، والمرىء : ما تجمل عاقبته كأن يسهل هضمه وتحسن تغذيته .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر ما يجب على العبد أن ينتقل له من التكاليف ليتعد عن سخطه وغضبه فى الدنيا والآخرة — شرع فى ذكر أنواعها ، وأولها إيتاء اليتامى أموالهم ، وثانيها حكم ما يحل عدده من الزوجات ومتى يجب الاقتصار على واحدة ثم وجوب إيتاء الصداق لهن .

الإيضاح

(وآتوا اليتامى أموالهم) المراد بإيتاء الأموال إياهم : جعلها لهم خاصة وعدم أكل شئ منها بالباطل ، والمعنى أيها الأولياء والأوصياء احفظوا أموال اليتامى ولا تتعرضوا لها بسوء وسلموها لهم متى آنستم منهم الرشد ، فاليتيم ضعيف لا يقدر على حفظ ماله والدفاع عنه .

(ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) أى لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم الذى اكتسبتموه من فضل الله .

وخلاصة ذلك — لا تتمتعوا بمال اليتيم فى المواضع والحالات التى من شأنكم أن تتمتعوا فيها بأموالكم ، فإذا فعلتم ذلك فقد جعلتم مال اليتيم بدلا من مالكم .

(ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) المراد من الأكل سائر التصرفات المملوكة للأموال ، وإنما ذكر الأكل لأن معظم ما يقع من التصرفات فهو لأجله ، و (إلى) بمعنى مع أى لا تأكلوا أموالهم مخلوطة ومضمومة إلى أموالكم حتى لا تفرقوا بينهما ، لأن فى ذلك قلة مبالاة بما لا يحل وتسوية بين الحرام والحلال .

(إنه كان حوبا كبيرا) أى إن هذا الأكل ذنب عظيم وإثم كبير .

(وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أى وإن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تتزوجوا بها فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، وتقول العرب فى كلامها اقتسموا ألف الدرهم هذا درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة على معنى أن كل واحد يأخذ درهمين فقط أو ثلاثة أو أربعة ، ولو أفردت وقلت اقتسموه درهمين وثلاثة وأربعة لم يسغ استعمالاً .

(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) أى ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجين أو الزوجات فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط ، والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فى ذلك ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو من يثق من نفسه بالعدل ثقة لاشك فيها .

(أو ما ملكت أيمانكم) أى اقتصروا على واحدة من الحرائر وتمنعوا بمن تشاءون من السرارى لعدم وجوب العدل بينهما ، ولكن لمن حق الكفاية فى نفقات المعيشة بما يتعارفه الناس .

(ذلك أذنى ألا تعولوا) أى اختيار الواحدة أو التسرى أقرب من عدم الجور والظلم .

والخلاصة — أن البعد من الجور سبب فى تشريع الحكم ، وفى هذا إيماء إلى اشتراط العدل ووجوب تحريره ، وإلى أنه عزيز المنال كما قال تعالى : « وَأَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .

والعدل إنما يكون فيما يدخل تحت طاقة الإنسان كالتسوية فى المسكن والملبس ونحو ذلك ، أما ما لا يدخل فى وسعه من ميل القلب إلى واحدة دون أخرى فلا يكلف الإنسان بالعدل فيه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم فى آخر عهده يميل إلى عائشة أكثر من سائر نسائه لكنه لا يخصصها بشيء دونهن إلا برضاهن وإذنهن ، وكان يقول

« اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » يريد ميل القلب ، وقد استنبأ لك مما سلف أن إياحة تعدد الزوجات مضيق فيها أشد التضيق ، فهي ضرورة تباح لمن يحتاج إليها بشرط الثقة بإفادة العدل والأمن من الجور .

وإن من يرى الفساد الذى يذب فى الأسر التى تعدد فيها الزوجات ليحكم حكماً قاطعاً بأن البيت الذى فيه زوجتان أو أكثر لرجل واحد لا تستقيم له حال ولا يستتب فيه نظام .

فإنك ترى إحدى الضررتين تغرى ولدها بعداوة إخوته وتغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وكثيراً ما يطيع أحب نساءه إليه فيذب الفساد فى الأسرة كلها .

إلى أن ذلك ربما جر إلى السرقة والزنا والكذب والقتل فيقتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والعكس بانعكس كما دوت ذلك سجلات المحاكم .

فيجب على رجال القضاء والفتيا الذين يعلمون أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، وأن من أصول الدين منع الضرر والضرار أن ينظروا إلى علاج لهذه الحال ويضعوا من التشريع ما يكفل منع هذه المفسد على قدر المستطاع .

مزايَا تعدد الزوجات عند الحاجة إليه

الأصل فى السعادة الزوجية أن يكون للرجل زوج واحدة ، وذلك منتهى الكمال الذى ينبغي أن يرى عليه الناس ويقتنعوا به ، لكن قد يعرض ما يدعو إلى مخالفة ذلك لمصالح هامة تتعلق بحياة الزوجين أو حاجة الأمة فيكون التعدد ضربة لازب لاغنى عنه ؛ ومن ذلك :

(١) أن يتزوج الرجل امرأة عاقراً وهو يود أن يكون له ولد ، فمن مصحتها أو مصلحتها معاً أن تبقى زوجاً له ويتزوج بغيرها ، ولا سيما إذا كان ذا جاه وثروة كأن يكون ملكاً أو أميراً .

(٢) أن تكبر المرأة وتبلغ سن اليأس ويرى الرجل حاجته إلى العقب وهو قادر على القيام بنفقة غير واحدة وكفاية الأولاد الكثيرين وتعليمهم .

(٣) أن يرى الرجل أن امرأة واحدة لا تكفيه لإحصانه لأن مزاجه الخاص يدفعه إلى الحاجة إلى النساء ومزاجها بعكس هذا ، أو يكون زمن حيضها طويلا يأخذ جزءا كبيرا من الشهر فهو حينئذ أمام أحد أمرين إما التزوج بثانية وإما الزنا الذى يضيع الدين والمال والصحة ويكون هذا شرا على الزوجة من ضم واحدة إليها مع العدل بينهما كما هو شرط الإباحة فى الإسلام .

(٤) أن تكثر النساء فى الأمة كثرة فاحشة كما يحدث عقب الحروب التى تحتاج البلاد فتذهب بالآلوف المؤلفة من الرجال ، فلا وسيلة للمرأة فى التكسب فى هذه الحال إلا ببيع عفافها ، ولا يخفى ما بعد هذا من شقاء على المرأة التى تقوم بالإنفاق على نفسها وعلى ولد ليس له والد يكفله ، ولا سيما عقب الولادة ومدة الرضاعة ، والمشاهد أن اختلاط النساء بالرجال فى المعامل ومحال التجارة وغيرها من الأماكن العامة قد جر إلى كثير من هتك الأعراض والوقوع فى الشقاء والبلاء حتى كتبت غير واحدة من الكاتبات الإنجليزيات وأبانت أن هذا التدهور الخلقى لا علاج له إلا تعدد الزوجات ، مع أن هذا ضد مصلحة المرأة وهى تنفر منه بمقتضى شعورها ووجدانها ، وهاك ما قالته إحداهن فى بعض جرائدهن بإيجاز وتلخيص :

لقد كثرت الشاردات من بناتنا وقل الباحثون عن أسباب هذا البلاء ، وإنى لأنظر إليهن وقلبي ينفطر أسى وحزنا عليهن ، وماذا يفيد شئ وحزنى وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ، لا فائدة إلا العمل على ما يمنع هذه الحال وهو كما رأى (تومس) إباحة الزوج بأكثر من واحدة وبهذه الوسيلة تصبح بناتنا ربات بيوت .

إذ لم يجرّ إلى هذا البلاء إلا إجبار الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى أعمال الرجال ولا بد أن يتفاقم الشر إذا لم يبح للرجل الزوج بأكثر من واحدة ، فأى ظن وحسد يحيط بعدد الرجال

المتزوجين الذين لهم أولاد من السفاح وقد أصبحوا عائلة وعارا على المجتمع ولو أبيع التعدد لما حاق بأولئك الأولاد وبأبائهم ما هم فيه من عذاب ولسم عرض أولادهم من فداحة الحال التي نراها الآن .

ونشرت كاتبة أخرى (مس إني رود) في جريدة أخرى تقول :

لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو شبه خوادم خير لهن والمجتمع من اشتغالهن في المعامل حيث نلوث البنت بأدران الرذيلة التي تبقى لا صقة بها مدى حياتها .

ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة ، والخدام والرقيق ينعمان بأرغد عيش ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ولا تمس الأعراض بسوء ، وإنه لعار على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطتهم للرجال .

فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها وتقوم بأعمال البيت ونترك أعمال الرجال للرجال فذلك أضمن لعافها وهو الكفيل بسعادتها اهـ .

وصفوة القول أن تعدد الزوجات يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة وهي أركان سعادة الحياة الزوجية ، فلا ينبغي لمسلم أن يقدم عليه إلا للضرورة مع الثقة بما أوجبه الله من العدل وليس وراء ذلك إلا ظم المرء لنفسه وامراته وولده وأمته .

حكمة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

راعى النبي صلى الله عليه وسلم المصلحة في اختيار كل زوجة من زوجاته ، ف جذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم وعدم أتباعه احترام النساء وإكرام كرائمهن والعدل بينهن وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم الأحكام الخاصة بالنساء مما ينبغي أن يعلمنه منهن لامن الرجال ولو كان قد ترك واحدة ما كان فيها الغناء كما لو ترك التسع .

وقصارى القول أنه عليه السلام ما أراد بتعدد الزوجات ما يريد الملوك والأمراء والمترفون من التمتع بالنساء إذ لو كان قد أراد ذلك لا اختارهن من حسان الأبنكار لامن الكهلات الثيبات كما قال لمن اختار ثيبا «هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك» رواه الشيخان .

(وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) الخطاب للأزواج أى وأعطوا النساء اللواتي تعقدون عليهن المهور عطاء هبة يكون رمزا للمودة التي ينبغي أن تكون بينكما وآية من آيات الحبة ودليلا على وثيق الصلة والرابطة التي يجب أن تكنفكما وتحيط بسواء المنزل الذي تحلان فيه ، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء فتراهم يردفونه بأصناف الهدايا والتحف من مأكلا وملابس ومصوغات إلى نحو ذلك ، مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التي يريد أن يجعلها شريكته في الحياة .

(فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) أى إن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئا من الصداق من غير ضرار ولا خديعة فكلوه هنيئا مريئا لا ذنب عليكم ولا إثم في أخذه .

ومن ثم لا يجوز للرجل أن يأكل شيئا من مال امرأته إلا إذا علم أن نفسها طيبة به ، فإذا طلب منها شيئا وحملها الخوف أو الخجل على إعطاء ما طلب فلا يحل له ، ألا ترى أن الله تعالى نهى عن أخذ شيء من المرأة في طور المفارقة فقال : « وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنْطَارًا ، فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » فالتحذير من أخذه في طور الرغبة والتعجب وإظهار القدرة على ما يجب عليه من أعباء الزوجية من كفالة المرأة والإنفاق عليها يكون أشد وأكد ، ولكن حب المال جعل الرجال يماكسون في المهر كما يماكسون في سلع التجارة ، وصار حبهم للمحافظة على الشرف والكرامة دون حبهم للدرهم والدينار .

وَلَا تُؤْثِرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٤) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٥)

شرح المفردات

السفهاء واحد منهم سفيه : وهو المبدّر للمال المنفق له فيما لا ينبغي . وأصل السفه الخفة والاضطراب ، ومنه قيل زمان سفيه : إذا كان كثير الاضطراب، وثوب سفيه : ردىء النسج، ثم استعمل في نقصان العقل في تدبير المال وهو المراد هنا ، قياما أى تقوم بها أمور معاشكم وتمنع عنكم الفقر، قال الراغب: القيام والقوام ما يقوم به الشئ ويثبت كنعاد والسناد لما يعتمد ويسند به ، وارضقوهم أى أعطوهم ، والقول المعروف: ماتطيب به النفوس وتألفه كإفهام السفيه أن المال ماله لا فضل لأحد عليه ، آنستم منهم رشدا أى أبصرتهم منهم حسن التصرف فى الأموال ، الإسراف : مجاوزة الحد فى التصرف فى المال ، والبدار : المبادرة والسارعة إلى الشئ، يقال بادرت إلى الشئ وبدرت إليه ، فليستعفف أى فليعفف ، والعفة : ترك ما لا ينبغي من الشهوات ، الحسيب : الرقيب.

المعنى الجملى

بعد أن أمرنا الله تعالى فى الآيات السالفة بإيتاء اليتامى أموالهم ، وإيتاء النساء مهورهن أتى فى هذه الآية بشرط يشمل الأمرين معا .

الإيضاح

(ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) هذا خطاب لمجموع الأمة ، والنهي شامل لكل مال يعطى لأى سفيه ، أى أعطوا كل يتيم ماله إذا بلغ وكل امرأة صداقها إلا إذا كان أحدهما سفيها لا يحسن التصرف فى ماله فامنعوه منه لئلا يضيعه واحفظوه له حتى يرشد ، وإنما قال أموالكم ولم يقل أموالهم مع أن الخطاب للأولياء والمال مال السفهاء الذين فى ولايتهم لينبهننا إلى أنه إذا أضاع هذا المال وجب على الولي أن ينفق عليه من مال نفسه ، فإضاعته مفضية إلى إضاعة شئ من مال الولي فكأن ماله عين ماله . وإلى أن الأمة متكافلة فى المصالح فصلة كل فرد فيها كأنها مصلحة للآخرين .

ومعنى جعل الأموال قياما للناس ، أن بها تقوم وتثبت منافعهم ومراققتهم ، فمنافعهم الخاصة ومصالحهم العامة لا تزال قائمة ثابتة مادامت أموالهم فى أيدي الراشدين المقتصدين منهم الذين يحسنون تشهيرها وتوفيرها ولا يتجاوزون حدود المصلحة فى الإنفاق ، وفى هذا حث عظيم على الاقتصاد بذكر فوائده وتنفير من الإسراف والتبذير ببيان مغيبته ، فإن الأموال إذا وقعت فى أيدي السفهاء المفسرين فأت ما كان من تلك المنافع قائما ، ومن ثم وصف الله المؤمنين بقوله : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وقد ورد فى السنة النبوية حث كثير على الاقتصاد ، من ذلك ما رواه أحمد عن ابن مسعود .

« ما عال من اقتصد » وما رواه الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس نصف العقل ، وحسن العقل نصف العلم » .

وإن من أشد العجب أن يكون حال المسلمين اليوم ما نرى من الإسراف والتبذير وكتابهم يهديهم إلى ما للاقتصاد من فوائد وما للتبذير من مضار ، إلى ما للمال فى هذا الزمن من المنزلة التى لا يقدر قدرها حتى صارت جميع المرافق موقوفة

على لئال، وأصبحت الأم الحاهلة بطرق الاقتصاد وليس فى أيديها المال مستندة مستعبدة
لئال الغنية ذات البراعة فى الكسب والإحسان فى الاقتصاد وجمع المال .

ولا سبب لهذا إلا أنا نبذنا هدى القرآن وراء ظهورنا وأخذنا بأراء الجاهدين
الذين لبسوا على الناس ونفثوا سمومهم وبالغوا فى التزهيد والحث على إنفاق ما تصل
إليه الأيدي ، مع أن السلف الصالح كانوا من أشد الناس محافظة على ما فى أيديهم
وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الكسب الحلال ، ولت هذا التزهيد أتى
بالغرض السوق لأجله من التزغيب فى الآخرة والعمل لها ، لكنهم زهدوهم فى الدنيا
وقطعوهم عن الآخرة ففسروها معا ، وما ذاك إلا لجهلهم بهدى الإسلام وهو السعى
لدنيا والعمل للآخرة كما ورد فى الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل
لآخرتك كأنك تموت غداً » .

(وارزقوهم فيها واكسوهم) الرزق يعم وجوه الإنفاق جميعها كالأكل والمبيت
والزواج والكسوة ، وإنما خصها بالذكر لأن الناس يتساهلون فيها أحياناً ، وقال
(فيها) ولم يقل منها إشارة إلى أن الأموال تتخذ مكاناً للرزق بالتجارة فيها فتكون
التفقات من الأرباح لا من صب المال حتى لا يأكفها الإنفاق ، أى أيها الأولياء
الذين عهد إليكم حفظ أموال السفهاء وتثريها حتى كأنها أموالكم عليكم أن تنفقوا
عليهم فتقدموا لهم كفايتهم من الطعام والثياب ونحو ذلك .

(وقولوا لهم قولاً معروفاً) أى فبقيل كل ولى للمولى عليه إذا كان صغيراً : المال
مانك وما أنا إلا خازن له وإذا كبرت رد إليك ، وإذا كان سفيها وعظه ونصحه
ورغبه فى ترك التبذير والإسراف وعرفه أن عاقبة ذلك الفقر والاحتياج إلى الخلق
إنى نحو ذلك ، كما يعلمه كل ما يوصله إلى الرشد . وبذا قد تحسن حاله ، فربما كان
السفه عارضاً لا فطرياً ، فبالنصح والإرشاد والتأديب يزول ذلك العارض
ويصبح رشيداً .

وأين هذا مما يفعله الأولياء والأوصياء من أكل أموال السفهاء ومدحهم في غيهم وسفههم حتى يحولوا بينهم وبين أسباب انرشد؟ وما مقصدهم من ذلك إلا بقاء الأموال تحت أيديهم يتمتعون بها ، ويتصرفون على حسب أهوائهم وشهواتهم .
و بعد أن أمر سبحانه بإيتاء اليتامى أموالهم وكان هذا مجالا ذكر كيفية ذلك الإيتاء ووقته فقال :

(وابتلوا اليتامى حتى إذا باعوا النكاح فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) ابتلاء اليتيم واختباره يكون بإعطائه شيئا من المال يتصرف فيه ، فإن أحسن كان راشدا ، وإلا معنى للرشد هنا إلا حسن التصرف وإصابة الخير فيه ، وهو نتيجة صحة العقل وجودة الرأي .

و بلوغ النكاح هو الوصول إلى السن التي يستعد فيها المرء للزواج وهو بلوغ الحلم وهو في هذه الحال تتوجه نفسه إلى أن يكون زوجا وأبا ورب أسرة ، ولا يتم له ذلك إلا بالمال ، ومن ثم وجب إيتاؤه إياه إلا إذا بلغ سفيها وخيف أن يضيعه .
والمعنى — أيها الأولياء ابتلوا اليتامى إلى ابتداء البلوغ وهو الحد الذي يباغون فيه سن النكاح ، فإن أنستم منهم بعد البلوغ رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ، وإلا فاستمروا على الابتلاء حتى تسوه منهم ، ويرى أبو حنيفة دفع مال اليتيم إليه إذا بلغ خمسا وعشرين سنة وإن لم يرشد .

(ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) أى ولا تأكلوا أموال اليتامى مسرفين في الإنفاق منها ولو على اليتيم نفسه ، ولا مبادرين كبرهم إليها أى ولا مسابقين الكبر في السن التي بها يأخذونها منهم ، فأنتم تطلبون أكل هذا المال كما يطلب كبر السن صاحبه ، فالسابق منكما هو الذي يظفر به ، فبعض الأولياء الخربى الزمة يستعجلون ببعض التصرفات التي لهم فيها منفعة وليس لليتيم فيها ذلك حتى لا تفوتهم إذا كبر اليتيم وأخذ ماله ، ولما كانت هاتان الحالان — الإسراف ومساابقة كبر اليتيم ببعض التصرف — من مواطن الضعف التي تعرض للانسان ، نهى الله عنهما ونبه

الأولياء إلى خطرهما حتى يراقبوا ربهم إذا عرضتا لهم ، فقد تخادع الإنسان نفسه في حد الإسراف وخفاء وجه منفعة الولي في المسابقة إلى بعض الأعمال في مال اليتيم ويغشها إذا لم يمكن أن يمارى في ذلك وراء ظاهرا تتضح فيه خيانتته .

أما الأكل من مال اليتيم بلا إسراف ولا مبادرة خوف أخذها عند البلوغ فقد ذكر الله حكمه بقوله : « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » أى فمن كان منكم غنيا غير محتاج إلى شىء من مال اليتيم الذى تحت ولايته فليعفف عن الأكل من ماله ، ومن كان فقيرا لا يستغنى عن الانتفاع بشىء من مال اليتيم الذى يشتغل بعض وقته في تثيره وحفظه فليأكل منه بالمعروف وهو ما يبيحه الشرع ولا يستنكره أرباب المروءة ولا يعدونه خيانة وطمعا .

قال ابن جرير : إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالا للولي فليس له أن يأكل منه شيئا ، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له ، وله أن يؤاجر نفسه لليتيم بأجرة معلومة إذا كان اليتيم محتاجا إلى ذلك كما يستأجر له غيره من الأجراء غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر ، وهكذا الحكم في أموال المجانين والمعتاتيه .

وقد روى أحمد عن ابن عمر رضى الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال ليس لى مال وإنى ولي يتييم فقال « كل من مال يتييمك غير مسرف ولا متأنل مالا ومن غير أن تقى مالك بماله » .

والحكمة في هذا أن اليتيم يكون في بيت الولي كولد ، والخير له في تربيته أن يخاطب الولي وأهله في المؤاكلة والمعاشرة ، فإذا كان الولي غنيا ولا طمع له في ماله كانت الخيانة مصلحة لليتيم ، وإن كان ينفق فيها شىء من ماله فبقدر حاجته ، وإن كان فقيرا فهو لا يستغنى عن إصابة بعض ما يحتاج إليه من مال اليتيم انغنى الذى في حجره ، فإذا أكل من طعامه ما جرى به العرف بين الخلطاء غير مصيب من صلب

المال شيئاً ولا متاثلاً لنفسه منه عقاراً ولا مالا آخر ولا منفق ماله في مصالحه ومرافقه كان بعمله هذا آكلاً بالمعروف .

(فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى فإذا دفعتم أيها الأولياء والأوصياء إلى اليتامى أموالهم فأشهدوا عليهم بقبضها وبراءة ذممكم منها كي لا يكون بينكم نزاع .

وهذا الإشهاد واجب عند الشافعية والمالكية إذ أن تركه يؤدى إلى التخاصم والتقاضى كما هو مشاهد ، وجعله الحنفية مندوباً لا واجباً .

(وكفى بالله حسيباً) أى وكفى الله رقيباً عليكم يحاسبكم على ما تسرون وما تعلنون ، وقد جاء هذا بعد الأمر بالإشهاد ليرشدنا إلى أن الأشهاد وإن أسقط الدعوى بالمال عند القاضى فهو لا يسقط الحق عند الله إذا كان الولى خائناً ، فإن الله لا يخفى عليه ما يخفى على الشهود والحكام ، وعلى الجملة فإنك ترى أن الله تعالى حاط أموال اليتامى بضروب من الصيانة والحفظ ، فأمر باختيار اليتيم قبل دفع ماله إليه ، ونهى عن أكل شئ منه بطرق الإسراف ومبادرة كبره ، وأمر بالإشهاد عليه عند الدفع ، ونبه إلى مراقبة الله تعالى فى جميع التصرفات الخاصة به .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٦) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٧) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٨) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (٩)

شرح المفردات

مفروضاً أى محتوماً لا بد لهم أن يأخذوه ، الخشية الخوف فى محل الأمن ،
والسد يد : العدل والصواب ، والسداد (بالكسر) ما يسد به الشئ كالثغر (موضع
الخوف من العدو) والقارورة ، وورد قولهم : فيها سداد من عَوَز بكسر السين :
أى فيها الغناء والكفاية ، وصلى اللحم صلياً شواه ، فإذا أراد إحراقه يقال أصلاه
إصلاءً وصلاه تصلية ، وصلى يده بالنار : أدفأها ، واصطلى : استدفأ ، والسعير : النار
المستعرة المشتعلة ، يقال سرعت النار وسعرتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السابقة حرمة أكل أموال اليتامى وأمر بإعطائهم
أموالهم إذا رشدوا ومنع أكل مهور النساء أو تزويجهن بغير مهر .
ذكر هنا أن المال الموروث الذى يحفظه الأولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء ،
وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء والأولاد الصغار ويقولون لا يرث إلا من
طاعن بالرمح وحاز الغنيمة ، ثم أمر بإحسان القول إلى اليتامى لأن اليتيم مرهف
الحس يأنم للكلمة تبيينه ولا سيما ذكر أبيه وأمه بسوء ، وقلماً يوجد يتيم لا يمتحن
ولا يقهر بالسوء من القول ، ثم طلب الإشفاق عليهم ومعاملتهم بالحسنى ، فربما
يترك المرء ذرية ضعافاً يود أن غيره يعاملهم بمثل هذه المعاملة ، وبعده شدد فى الوعيد
ونفر من أكل أموال اليتامى ظلماً وجعل أكله كأكل النار .

وقد روى فى سبب نزول الآية « أن أوس بن الصامت الأنصارى توفى وترك
امراته أم كحلثة وثلاث بنات له منها فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهن على
سنة الجاهلية ، فجاءت امرأته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفضيح
(مسجد بالمدينة كان يسكنه أهل الصفة) فشكت إليه أن زوجها أوسا قد مات
وخلف ثلاث بنات وليس عندها ما تنفق عليهن منه ، وقد ترك أبوهن مالا حسناً .

عند ابني عمه لم يعطياها منه شيئا ، وهن في حجرى لا يطعمن ولا يستقن ، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلاً ولا ينكي عدوا نكسب عليها ولا تكسب ، فنزلت الآية فأثبتت لهن الميراث فقال رسول الله : لا تفرقا من مال أوس شيئا فإن الله جعل لبنائه نصيباً مما ترك ولم يبين ، فنزلت (يوصيكم الله الخ .) فأعطى زوجه الثمن والبنت الثلثين والباقي لبني العم .

الإيضاح

(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) أى إذا كان لليتامى مال مما تركه لهم الوالدان والأقربون فهم فيه سواء لا فرق بين الرجال والنساء ولا فرق بين كونه كثيرا أو قليلا ، وأتى بقوله نصيبا مفروضا لبيان أنه حق معين مقطوع به ليس لأحد أن ينقص منه شيئا ولا أن يجابى فيه .

(وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) المراد بذوى القربى من لا يرث منهم كالأخ لأب مع الأخ الشقيق والعلم مع الأب .

أى إذا حضر قسمة التركة أحد من ذوى القربى للوارثين فانفحوهم بشئ من الرزق الذى جاءكم من غير كد ولا نصب فلا ينبغي أن تبخلوا به على المحتاجين من ذوى القربى واليتامى والمساكين وتتركوهم يذهبون منكسرى القلوب مضطربى النفس وقولوا لهم قولاً تطيب به نفوسهم عند ما يعطون حتى لا يثقل على أبى النفس منهم ما أخذ ، ويرضى الطامع فى أكثر مما أخذ بما أخذ بالتودد والتلطف فى القول وعدم التغليظ فيه .

والسرفى إعطائهم شيئا من التركة أنه ربما يسرى الحسد إلى نفوسهم فينبغى التودد إليهم واستمالتهم بإعطائهم قدرا من هذا المال هبة أو هدية أو إعداد طعام لهم يوم القسمة ليكون فى هذا صلة للرحم وشكر للنعمة .

قال سعيد بن جبير : هذا الأمر (أمر الإعطاء) للوجوب وقد هجره الناس كما هجروا العمل بالاستئذان عند دخول البيوت .

وقال الحسن والنخعي : إن ما أمرنا أن نرزقهم منه عند القسمة هو الأعيان المنقولة ، وأما الأرضون والرقيق وما أشبه ذلك فلا يجب أن يعطوا منها شيئاً بل يكتفى حينئذ بقول المعروف أو بإطعام الطعام .

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً) الكلام مع الأوصياء والأولياء الذين يقومون على التيامي ، والقول السديد منهم أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يابني ويأولدي ونحو ذلك ، وقوله تركوا أي قاربوا أن يتركوا ، وقوله من خلفهم أي من بعد موتهم ، وقوله خافوا عليهم أي الإهمال والضياع .

(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) ظاماً أي على سبيل الظلم وهضم الحقوق لا أكلاً بالمعروف عند الحاجة أو تقديراً لأجرة العمل ، وقوله في بطونهم أي ملء بطونهم ، وقوله ناراً أي ما هو سبب لعذاب النار .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَرِيقٌ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا (١٠) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ،
 فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ
 لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ،
 وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١١)

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه حكم الميراث مجملًا في قوله: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، ذكر هنا تفصيل ذلك الجمل فبين أحكام الموارث وفرائضها لإبطال ما كان عليه العرب من نظام التوارث في الجاهلية من منع الأنثى وصغار الأولاد ، وتوريث بعض من حرمه الإسلام من الميراث .
 وقد كانت أسباب الإرث في الجاهلية ثلاثة :

(١) النسب ، وهو لا يكون إلا للرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون العدو ويأخذون الغنائم وليس للضعيفين المرأة والطفل من ذلك شئ .
 (٢) التبني - فقد كان الرجل يتبنى ولد غيره فيكون له أحكام الولد في الميراث وغيره ، وقد أبطال الإسلام ذلك .

(٣) الحلف والعهد - فقد كان الرجل يقول لآخر دمي دمك وهدمي هدمك (أى إذا أهدر دمي أهدر دمك) وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك ، فإذا فعلا ذلك ومات أحدهما قبل الآخر كان للحي ما اشترط من مال الميت .

فما جاء الإسلام أقرهم على ذلك فقال : « وَلِكُلِّ جَعْنًا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ
الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » والمراد التوارث بالنسب ، وقال :
(وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيهِمْ) والمراد به التوارث بالعهد .
وزاد فيه شيئين آخرين :

(١) الهجرة فكان المهاجر يرث من المهاجر وإن كان أجنبيا عنه إذا كان
بينهما مخالطة وود لا يرثه غير المهاجر وإن كان من أقاربه .

(٢) المؤاخاة - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤاخى بين كل اثنين من
الرجال وكان ذلك سبباً للتوارث ثم نسخ الإسلام كل هذا بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ثم استقر الأمر بعد نزول أحكام الفرائض على
أن أسباب الإرث ثلاثة : النسب والنكاح والولاء .

وسبب نزول الآية ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث جابر قال :
جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله
هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما
فلم يدع لهما مالا ولا تُنكحن إلا ولهما ، ما قال يقضى الله في ذلك فنزات آية الميراث
(يوصيكم الله في أولادكم) الآية ، فأرسل رسول الله إلى عمهما فقال : أعط بنتي سعد
اثنتين وأما الثمن وما بقى فهو لك ، قالوا وهذه أول تركة قسمت في الإسلام .

الإيضاح

(يوصيكم الله) الوصية : ما تعهد به إلى غيرك من العمل كما تقول أوصيت المعلم
أن يراقب آداب الصبي ويؤدبه على ما يسىء فيه ، وهى فى الحقيقة أمر له بعمل
ما عهد إليه ، فالمراد يأمركم الله ويفرض عليكم .

(فى أولادكم) أى فى شأن أولادكم من بعدكم ، أو فى ميراثهم ما يستحقونه
مما تتركونه من أموالكم سواء كانوا ذكورا أو إناثا كبارا أو صغارا ، ولا خلاف فى أن
ولد الولد يقوم مقامه عند فقده أو عدم إرثه لما منع كقتل مورثه ، قال :

بنونا بنو أبائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد

(لذكركم مثل حظ الأنثيين) أى للذكركم منهم مثل نصيب اثنتين من إناثهم إذا كانوا ذكوراً وإناثاً ، واختير هذا التعبير ولم يقل للأنثى نصف حظ الذكر إيماء إلى أن إرث الأنثى كأنه مقرر معروف ولذا ذكر مثله مرتين ، وإشارة إلى إبطال ما كانت عليه العرب فى الجاهلية من منع توريث النساء .

والحكمة فى جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين ، أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجته فجعل له سهمان ، وأما الأنثى فهى تنفق على نفسها فقط ، فإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها .

ويدخل فى عموم الأولاد :

(١) الكافر لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانع من الإرث ، قال عليه الصلاة والسلام « لايتوارث أهل ملتين » .

(٢) القاتل عمداً لأحد أبويه ويخرج بالسنة والإجماع .

(٣) الرقيق وقد ثبت منعه بالإجماع لأن المملوك لايملك ، بل كل ما يصل إلى يده من المال فهو ملك لسيده ومالكه ، فلو أعطيناه من التركة شيئاً كنا معطين ذلك للسيد فيكون هو الموارث بالفعل .

(٤) الميراث من النبي صلى الله عليه وسلم فقد استثنى بحديث « نحن معاشر الأنبياء لانورث » .

(فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) أى فإن كان المولودات نساء ليس معهن ذكر زائدات على ثنتين مهما بلغ عددهن فلهن ثلثا ما ترك والدهن المتوفى أو والدتهن .

(وإن كانت واحدة فيها النصف) أى وإن كانت المولودة واحدة ليس معها أخ ولا أخت فلها النصف مما ترك والباقي لسائر الورثة على حسب الاستحقاق كما يعلم من أحكام الموارث .

وخلاصة ذلك أنه إذا كان الأولاد ذكوراً وإناثاً كان للذكور مثل حظ الأنثيين

وإن كان المولود أنثى واحدة كان لها النصف، وإن كن ثلاثا فصاعدا كان لهن الثثان ولم يذكر حكم الثنتين ، ومن ثم اختلفوا فيهما ، فروى عن ابن عباس أن لهما النصف كالواحدة . والجمهور على أن لهما الثلثين كالعدد الكثير .

وقد علم من ذلك أن البنات لا يستغرق فرضهن التركة ، والولد الذكر إذا انفرد يأخذ التركة ، وإذا كان معه أخ له فأكثر كانت قسمة التركة بينهما أو بينهما بالمساواة . (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) أى ولكل من أبوى الميت السدس مما ترك الولد على السواء فى هذه الفريضة إن كان لهذا الميت ولد فأكثر والباقي بعد هذا الثلث يقسمه الأولاد على حسب التفصيل المتقدم .

(فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلاؤه الثلث) أى فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد وورثه أبواه فلاؤه الثلث مما ترك والباقي للأب كما هو معلوم من انحصار الإرث فيهما .

والسرى تساوى الوالدين فى الميراث مع وجود الأولاد ، الإشارة إلى وجوب احترامهما على السواء ، وفى أن حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقهما على الولد ، أنهما يكونان فى الغالب أقل حاجة إلى المال من الأولاد ، إما لكبرهما وإما لتمامهما ، وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء ؛ وأما الأولاد ، فإما أن يكونوا صغاراً لا يقدرّون على الكسب ، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقات كثيرة فى الحياة كالزواج وتربية الأطفال ونحو ذلك (فإن كان له إخوة فلاؤه السدس) أى فإن كان الميت مع إرث أبويه له إخوة فلاؤه السدس مما ترك ، سواء كان الإخوة ذكوراً أو إناثاً من الأبوين أو أحدهما ، فكل جمع منهم يحجب الأم من الثلث إلى السدس ، وحكم الأخوين أو الأختين حكم الإخوة عند أكثر الصحابة ، وخالف فى ذلك ابن عباس فقد أثر عنه أنه قال لعثمان : بم صار الأخوان يرذآن الأم من الثلث إلى السدس ، وإنما قال الله تعالى : (فإن كان له إخوة) والأخوان فى لسان قومك ليسا بإخوة ؟ فقال عثمان لا أستطيع

أن أرد قضاء قضى به من قبلى ومضى فى الأمصار (يريد عثمان أن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أقاموا الاثنين مقام الجماعة فى اعتبار الشرع لافى اعتبار اللغة) والخلاصة أن الآية ذكرت حكم الأبوين مع الولد وحكهما منفردين ليس معهما وارث آخر وحكهما مع الإخوة ، ولم يبق إلا حكمهما مع أحد الزوجين ، وجمهور الصحابة على أن الزوج يأخذ نصيبه وهو النصف إن كان رجلا ، والرابع إن كان أنثى ، والباقي للأبوين ، ثلث للأم وباقية للأب ، وقال ابن عباس يأخذ الزوج نصيبه ، وتأخذ الأم ثلث التركة كلها ، ويأخذ الأب ما بقى ، وقال لا أجد فى كتاب الله ثلث الباقي .

ومن هذا تعلم أن حقوق الزوجية فى الإرث مقدمة على حقوق الوالدين ، إذ أنهما يتقاسمان مابقى بعد أخذ الزوج حصته ، وسرّ هذا أن صلة الزوجية أشد وأقوى من صلة البنوة ، ذلك أنهما يعبدان مجتمعين وجود كل منهما متمم لوجود الآخر حتى كأنه نصف شخصه ، وهما حينئذ منفصلان عن الوالدين أشد الانفصال ، فهذا كانت حقوق المعيشة بينهما أكد ، ومن ثم جعل الشارع حق المرأة على الرجل فى النفقة هو الحق الأول ، فإذا لم يجد الرجل إلا رغبين سد رمقه بأحدهما ووجب عليه أن يعطى الثانى لامرأته لألا أحد أبويه ولا لغيرهما من أقاربه .

(من بعد وصية يوصى بها أو دين) أى يوصيكم بأن لأولاد من يموت منكم كذا من التركة ولأبويه كذا منها من بعد وصية يقع الإيصاء بها من الميت ، ويتحقق نسبتها إليه ، ومن بعد قضاء دين يتركه عليه .

وقدمت الوصية على الدين فى الذكر مع أن الدين مقدم عليها وفاء كما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه على كرم الله وجهه وأخرجه عنه جماعة ، لأنها تؤخذ كالميراث بلا عوض فتشقى على الورثة ، وجاء عطف الدين على الوصية بأودون الواو إشارة إلى أنهما متساويان فى الوجوب متقدمان على قسمة التركة مجموعين أو منفردين .

ثم أتى بجملة معترضة للتنبيه إلى جهل المرء بعواقب الأمور فقال :
 (آبائكم وأبنائكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً) أى إنكم لا تدرون أى
 الفريقين أقرب لكم نفعاً آبائكم أو أبنائكم ؟ فلا تتبعوا فى قسمة التركات ما كان
 يتعارفه أهل الجاهلية من إعطائها للأقوياء الذين يحاربون الأعداء ، وحرمان الأطفال
 والنساء لأنهم من الضعفاء ، بل اتبعوا ما أمركم الله به ، فهو أعلم منكم بما هو أقرب
 نفعاً لكم مما تقوم به فى الدنيا مصالحكم وتعظم به فى الآخرة أجوركم .
 (فريضة من الله) أى فرض الله ما ذكر من الأحكام فريضة لا هواده فى
 وجوب العمل بها .

(إن الله كان عليماً حكيماً) أى إنه تعالى لعالمه بشؤونكم ولحكمته العظيمة
 لا يشرع لكم إلا ما فيه المنفعة لكم ، إذ لا تخفى عليه خافية من وجوه المصالح والمنافع
 — إلى أنه منزه عن الغرض والهوى اللذين من شأنهما أن يمتعا من وضع الشيء فى
 غير موضعه ومن إعطاء الحق لمن يستحقه .

وبعد أن بين سبحانه فرائض الأولاد والوالدين ، وقدم الأهم منهما من حيث
 حاجته إلى المال المتروك وهم الأولاد — ذكر هنا فرائض الزوجين فقال :
 (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد) أى ولكم نصف ما تركته
 الزوجات من المال إن لم يكن لهن ولد ، سواء أكان منكم أم من غيركم ، وسواء
 أكان ذكراً أم أنثى ، وسواء أكان واحداً أم أكثر ، وسواء أكان من بطنها
 مباشرة ، أو صلب بنيتها أو بنى بنيتها ، وباقي التركة لأولادها ووالديها على ما بينه
 الله فى الآية الساففة ، ولا يشترط فى الزوجة أن يكون مدخولاً بها ، بل يكفى
 مجرد العقد .

(فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن) والباقي من التركة للأقرب إليها من
 ذوى الفروض والعصبات أو ذوى الأرحام أوليت المال إن لم يكن وارث آخر .
 (من بعد وصية يوصين بها أو دين) أى لكم ذلك فى تركتهن فى الحالين

السابقين بعد نفاذ الوصية ووفاء الديون ، إذ لا يأخذ الوارث شيئاً إلا ما يفضل عنهما إذا وجدا أو وجد أحدهما .

(ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد) على حسب التفصيل السابق في أولادهن ، فإن كانت واحدة فيها هذا الربع وحدها ، وإن كان له زوجان فأكثر اشتركتا أو اشتركن فيه على طريق التساوى والباقي يكون لمن يستحقه من ذوى القربى وأولى الأرحام .

(فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم) والباقي لأولادكم ووالديكم كما تقدم . (من بعد وصية يوصى بها أو دين) بالطريق التي علمتها فيما سلف ، وبهذا تعلم أن فرض الرجل بحق الزواج ضعف فرض المرأة كما في النسب ، ولم يعط الله تعالى للزوجات في الميراث إلا مثل ما أعطى للزوج الواحدة لارشادنا إلى أن الأصل الذى ينبغى أن نسير عليه في الزوجية أن تكون للرجل امرأة واحدة ، وإنما يباح الأكثر بشروط مضيقة ، وأن التعدد من الأمور النادرة التى تدعو إليها الضرورة ، فلم يراعها الشارع فى الأحكام ، إذ الأحكام إنما توضع للأصل الذى عليه العمل والنادر لا حكم له .

و بعد أن بين سبحانه حكم ميراث الأولاد والوالدين والأزواج ممن يتصل بالميت مباشرة شرع فى بيان من يتصل به بالواسطة وهو الكلالة . فقال :

(وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة) الكلالة لغة الإحاطة ، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس ، وسمى من عدا الوالد والولد بالكلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان وكالإكليل المحيطة برأسه ، أما قرابة الولادة ففيها يتفرع بعض من بعض كالشيء الذى يتزايد على نسق واحد .

أى إن كان الميت رجلاً أو امرأة موروثاً كلالة أى ذا كلالة ليس له ولد ولا والد وله أخ أو أخت من أم ، لأن الأخوين من العصبة سيأتى حكمهما فى آخر السورة (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) الخ .

(فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) أى إن الأخ لأم يأخذ في الكلاله السدس ، وكذلك الأخت ، لا فارق بين الذكر والأنثى لأن كلا منهما حل محل أمه فأخذ نصيبها ، فإذا تعددوا أخذوا الثلث وكانوا أيضا فيه سواء لا تفاضل بين ذكورهم وإناثهم .

(من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار) أى من بعد وصية يوصى بها أو دين يقرّ به وهو غير مضار للورثة .

قال النخعى : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يوص وقبض أبو بكر وقد وصى ، فإن أوصى الإنسان فحسن وإن لم يوص فحسن أيضا ، ومن الحسن أن ينظر الإنسان في قدر ما يخلف ومن يخف ثم يجعل وصيته على حسب ذلك ، فإن كان ماله قليلا وفي الورثة كثرة لم يوص ، وإن كان في المال كثرة أوصى على حسب ماله وعلى حسب حاجتهم بعده كثرة وقلة ، وقد روى عن عليّ أنه قال : لأن أوصى بالحنس أحب إلىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلىّ من أن أوصى بالثلث . والضرار في الوصية والدين يقع على وجوه :

(١) أن يوصى بأكثر من الثلث ، وهو لا يصح ولا ينفذ ، وعن ابن عباس أن الضرار فيها من الكبائر .

(٢) أن يوصى بالثلث فما دونه لا لغرض من القرية والتصدق لوجه الله بل لغرض تنقيص حقوق الورثة .

(٣) أن يقرّ بدين لأجنبي يستغرق المال كله أو بعضه ولا يريد بذلك إلا مضاربة الورثة ، وكثيراً ما يفعله المبعوضون للوارثين ولا سيما إذا كانوا كلاله ، ومن ثم جاء ذكر هذا القيد (غير مضار) في وصية ميراث الكلاله لأن القصد إلى مضارة الوالدين أو الأولاد وكذا الأزواج نادر .

(٤) أن يقر بأن الدين الذى كان له على فلان قد استوفاه ووصل إليه .

(وصية من الله) أى يوصيكم بذلك وصية منه عز وجل ، فهي جدية أن يعتنى بها ويدعن للعمل بموجبها .

(والله عليم حليم) أى والله عليم بما ينفعكم وبنيات الموصين منكم ، حليم لا يعجل بعقوبتكم بمخالفة أحكامه ، ولا بالجزاء على مخالفتها عسى أن تتوبوا ، كما لا يبيح لكم أن تعجلوا بعقوبة من تبغضونه فتضاروه فى الوصية كما لا يرضى لكم بحرمان النساء والأطفال من الإرث .

وفى هذا إشارة إلى أنه تعالى قد فرضها وهو يعلم ما فيها من الخير والمصلحة لنا ، فمن الواجب أن ندعن لوصاياه وفرائضه ونعمل بما ينزل علينا من هدايته كما لا ينبغي أن نغتر الطامع فى الاعتداء وأكل الحقوق تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل فيظن أنهم بمنجاة من العذاب فيتجرأ على مثل ما تجرأوا عليه من الاعتداء فإنه إهمال يقتضيه الحلم لا إهمال من العجز وعدم العلم .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٣)

الإيضاح

(تلك حدود الله) حدود الشيء : أطرافه التى يمتاز بها من غيره ومنه حدود الدار ، سميت بها الشرائع التى أمر الله باتباعها ونهى عن تركها ، فدار الطاعة على البقاء فى دائرة هذه الحدود ومدار العصيان على اعتدائها والمشار إليه كل ما ذكر من أول السورة إلى هنا من بيان أموال اليتامى وأحكام الأزواج وأحوال الموارث .
(ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) طاعة الله : هى ما شرعه من الدين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ،

وطاعة الرسول: هى اتباع ما جاء به من الدين عن ربه ، فطاعته هى بعينها طاعة الله كما قال فى هذه السورة (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فهو إنما يأمرنا بما يوحىه إليه الله بما فيه منافع لنا فى الدنيا والآخرة ، وإنما ذكرها مع طاعة الله للإشارة إلى أن الإنسان لا يستغنى بعقله وعلمه عن الوحي وأنه لا بد له من هداية الدين إذ لم يكن العقل وحده فى عصر من العصور كافيا لهداية أمة ولا مرقيا لها بدون معونة الدين فاتباع الرسل والعمل بهديهم هو أساس كل مدنية ، والارتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الارتقاء المادى ، فالآداب والفضائل التى هى أسس المدنيات تستند كلها إلى الدين ولا يكفى فيها بناؤها على العلم والعقل ، والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار تقدم تفسيرها ونحن نؤمن ونعتقد أنها أرفع مما نرى فى هذه الدنيا وليس لنا أن نبحث عن كيفيتها لأنها من عالم الغيب ، والفوز العظيم : الظفر والفلاح الذى لا يذكر بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة المنغصة بالأكدار .

(ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) وقال فى ذكر أهل الجنة خالدين ، وفى ذكر أهل النار خالداً ، إشارة إلى تمتع أهل الجنة بالاجتماع وأنس بعضهم ببعض ، والمترفون يسرون بمثل هذا التمتع ، وأما الذى فى النار فإن له من العذاب ما يمنعه من الأنس فكأنه وحيد لا يجد لذة فى الاجتماع بغيره ولا أنسابه يرشد إلى ذلك قوله تعالى « وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » وتعدي الحدود الموجب للخلود فى النار: هو الإصرار على الذنب وعدم التوبة عنه ، فالله ذنب حالان :

١) غلبة الباعث النفسى من الشهوة أو الغضب على الإنسان حتى يغيب عن ذهنه الأمر الألهى فهو يقع فى الذنب وقلبه غائب عن الوعيد فهو لا يتذكره أو يتذكره ضعيفاً كأنه نور ضئيل يروح فى ظلمة ذلك الباعث المتغلب ثم لا يلبث أن يزول أو يخفى ، حتى إذا سكنت الشهوة أو سكت الغضب وتذكر النهى والوعيد ندم وتاب ولام نفسه أشد اللوم ومثل هذا جدير بالنجاة إذ هو من المسارعين إلى الجنة كما قال تعالى فى أوصافهم « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(٢) أن يقدم المرء على الذنب جريئاً عليه متعمداً فعليه عالماً بتحريمه مؤثراً له على الطاعة لا يصرفه عنه تذكر النهي والوعيد عليه ، ومثل هذا قد أحاطت به خطيئته فأثر شهوته على طاعة الله ورسوله فدخل في عموم قوله تعالى « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

إذ من يصبر على المعصية عامداً عالماً بالنهي والوعيد لا يكون مؤمناً بصدق الرسول ولا مدعياً لشريعته الذي تنال الرحمة والرضا بالتزامه ، والعذاب والنكال بتعدى حدوده ، فالإصرار على العصيان وعدم استشعار الخوف والندم لا يجتهدان في قلب المؤمن الإيمان الصحيح المصدق بوعد الله ووعيدة .

(وله عذاب مهين) المهين المذل له وهو عذاب الروح فللعصاة عذابان : عذاب جسماني للبدن العاصي باعتباره حيواناً يتألم ، وعذاب روحاني باعتباره إنساناً يشعر بالكرامة والشرف ويتألم بالإهانة والخزي .

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ تَتَوَقَّاهُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٤) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أوصى سبحانه بالإحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالمعروف والحفاظة على أموالهن وعدم أخذ شيء منها إلا إذا طابت نفسهن بذلك - ذكر هنا التشديد عليهن فيما يأتينه من الفاحشة ، وهو في الحقيقة إحسان اليهن ، إذ الإحسان في الدنيا تارة يكون بالثواب وأخرى بالزجر والعقاب لكف العاصي عن العصيان الذى يوقعه

في الدمار والبوار ، ومبنى الشرائع على العدل والإنصاف والابتعاد عن طرفي الإفراط والتفريط .

ومن أقبح العصيان الزنا ولا سيما من النساء لأن الفتنة بهن أكثر والضرر منهن أخطر لما يفرض إليه من توريث أولاد الزنا وانتسابهم إلى غير آبائهم .

الإيضاح

(واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم) يقال أتى الفاحشة وجاءها وغشيها إذا فعلها قل تعالى « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا » وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بهذه العبارات معنى دقيق وهو أن الفاعل لها ذهب إليها بنفسه واختارها بطبعه ، والفاحشة الفعل لقبيحة والمراد بها هنا الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح ، وقوله من نسائكم أى من المؤمنات .

(فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) أى اطلبوا شهادة أربعة رجال أحرار منكم . قال الزهري (مضت السنة من رسول الله والخليفتين بعده ألا تقبل شهادة النساء في الحدود) والحكمة في هذا إبعاد النساء عن مواقع الفواحش والجرائم والعقاب والتعذيب رغبة في أن يكن دائما غافلات عن القبائح لا يفكرن فيها ولا يخضن مع أربابها . والخطاب للمسلمين جميعا لأنهم متكافلون في أمورهم العامة كما تقدم مرارا فهم الذين يختارون لأنفسهم الحكماء الذين ينفذون الأحكام و يقيمون الحدود . (فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) التوفى الاستيفاء وهو القبض تقول توفيت مالى على فلان واستوفيته إذا قبضته ، والسبيل الطريق للخروج من الحبس بما يشرعه الله من العقوبة لهن .

والمعنى فإن شهد الأربعة بفعليها فاحبسوهن في بيوتهن وامنعوهن الخروج منها عقوبة لهن حتى لا يعدن إلى ارتكابها مرة أخرى إلى أن يمتن ويقبض أرواحهن للموت أو يجعل الله لهن طريقا بما يشرعه من حد الزنا .

وفي الآية إشارة إلى أن منع النساء عن الخروج عند الحاجة إليه في غير هذه الحالة لمجرد الغيرة أو لمجرد الهوى والتحكم من الرجال لا يجوز ، وكذلك فيها إيماء إلى أن هذه العقوبة مقرونة بما يدل على التوقيت ، وقد روى عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا ، الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ، والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » ومن هذا تعلم أن السبيل كان مجملا فينه الحديث وخصص عموم آية الجلد الآتية في سورة النور (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ).

(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) أى والزانى والزانية اللذان يرتكبان جريمة الزنا ، آذوهما بالتأنيب والتوبيخ بعد ثبوت ذلك بشهادة أربعة من الرجال .

وهذا العقاب كان أول الاسلام من قبيل التعزير وأمره مفوض إلى الأمة في كفيته ومقداره فلما نزلت آية النور التي تقدم ذكرها وجاء الحديث الشريف السابق بينا مقدار هذا الإيذاء وحدده ، وبهما استبان أن عقاب الثيب والرجل المتزوج الرجم بالحجارة حتى يموتا ، وعقاب البكر والرجل الذى لم يتزوج جلد مائة ونفيه سنة .

(فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) أى فإن رجعا عن فعل الفاحشة وندما على مافات وأصلحا عملهما وغيرا أحوالهما كما هو شأن المؤمن يطهر نفسه بالإقبال على الطاعة ويتركها من أدران المعصى التي فرطت منه ويقوى داعية الخير حتى تغلب داعية الشر فكفوا عن أذاها بالقول والفعل .

(إن الله كان توابا رحيمًا) التواب الذى يعود على عبده بفضله ومغفرته إذا تاب إليه من ذنبه ، والرحيم واسع الرحمة ، والجملة جاءت تعليلا للأمر بالإعراض ، والخطاب هنا لأولى الأمر والحكام .

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٦) وَلَيْسَتْ

التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى
تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا (١٧) .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أن من تاب وأصلح تركت عقوبته وأزيل الأذى عنه ، وأنه
هو التواب الذى يقبل التوبة عن عباده - ذكر هنا وقت التوبة وشرط قبولها ورغبته
فى تعجيلها حتى لا يأتى الموت وهو مصرٌّ على الذنب فلا تنفعه التوبة وأرشد أولياء
الأمر إلى الطريق الذى يسلكونه مع العصاة فى معاقبتهم وتأديبهم فأمر هنا بالاعراض
عن أذى من تاب وأصلح العمل بعد أن فرض عقوبة مرتكبى الفواحش فى الآية
السابقة ، فهذه شرح لذلك الإصلاح فى العمل .

الإيضاح

(إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) السوء :
هو العمل القبيح الذى يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة ، وهذا شامل للصغائر
والكبائر ، والجهالة : الجهل وتغلب السفه على النفس عند ثورة الشهوة أو سورة الغضب
حتى يذهب عنها الحلم وتنسى الحق ، وكل من عصى الله سُمى جاهلاً وسُمى فعله جهالة
كما قال تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)
وقال تعالى لنوح : (فَلَا تَسْأَلْنِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ) .

وسر هذا أن العاصى لربه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب لما أقدم
على المعصية ، إذ هو لا يرتكبها إلا جاهلاً بحقيقة الوعيد ، ومنتظراً لاحتمال العفو
والمغفرة ، أو شفاعة الشفعاء التى تصد عنه العقاب .

والزمن القريب : هو الوقت الذي تسكن به ثورة الشهوة أو تنكسر به حدة الغضب ويثوب فاعل السيئة إلى حلمه ويرجع إليه دينه وعقله ، إذ من كان قوى الإيمان لاتقع منه المعصية إلا عن بادرة غضب أو شهوة هفوة بعد هفوة ثم لا يلبث أن يبادر إلى التوبة ، ومن ثم ذكر الله السوء بلفظ الأفراد هنا ، وقال فيمن لا تقبل توبتهم (يعملون السيئات) إشعاراً بأن التوبة إنما تقبل ممن تقع منهم الذنوب آحاداً ويعلمون بها إلاماً ولكنهم لا يصرون عليها بل يبادرون إلى التوبة منها فلا تتمكن من أنفسهم ظلمة المعصية ولا تحيط بهم الخطيئة .

وما رواه أحمد عن ابن عمر من قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرر » فالمراد منه أنه لا ينبغي لأحد أن يقتط من رحمة الله وبيأس من قبول التوبة مادام حياً ، وليس معناه أنه لاخوف على العبد من التماذى في الذنوب إذا هو تاب قبل الموت بساعة فإن هذا يخالف لهدى الدين في مثل قوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » ومثل قوله : « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » .

وقد قسموا التوابين طبقات :

(١) من هو سديم الفطرة عظيم الاستعداد للخير فهو إذا وقع في خطيئة مرة كان له منها أكبر عبرة ، فيندم بعدها ويحمل نفسه على الفضيلة ويصرفها عن كل رذيلة .

(٢) من تكون داعية الشهوة أقوى في نفسه وأوسع في قلبه ، فاذا أطاع نفسه وارتكب معصية قامت الخواطر الالهية تحاربه وتوبخه حتى تنتصر عليه وتقهره قهراً تاماً فلا يعود بعدها إلى اجتراح إثم ولا وقوع في ذنب .

(٣) من تقوى نفسه بالمجاهدة على اجتناب كبار الآثام والقواحش ، لا على صغار الذنوب والآثام وهناك تكون الحرب في نفوسهم سجلاً بين ما يعلمون به من الصغائر وبين الخواطر الالهية التي هي جند الإيمان .

(٤) من يقع فى الذنب فيتوب ويستغفر ثم يعرض له مرة أخرى فيعود إليه ثم يلوم نفسه ويندم ويستغفر وهم جراً ، وهؤلاء أدنى طبقات التوايين ، والنفس الباقية أرخص عندهم من النفس القانية ، وهم مع ذلك محل للرجاء لأن لهم زاجراً من أنفسهم يذكرهم دائماً بالرجوع الى الله عقب كل خطيئة ، وهكذا تكون الحرب سجالات بينهم وبين أنفسهم ، فإما أن تنتصر دواعى الخير فتصح توبتهم ، وإما أن تنكسر أمام جند الشهوة فتحيط بهم خطيئتهم ويكونوا من المصرين الهالكين .

وخلاصة المعنى أن التوبة التى أوجب الله على نفسه قبولها بوعده الذى هو أثر كرمه وفضله ليست إلا لمن يجترح السيئة بجهالة تلبس نفسه من سورة غضب أو تغلب شهوة ثم لا يلبث أن يندم على ما فرط منه وينيب الى ربه ويتوب ويقنع عن ذنبه .

(فاولئك يتوب الله عليهم) أى أولئك الذين فعلوا الذنوب بجهالة وتابوا بعد قريب من الزمن يتوب الله عليهم ، لأن الذنوب لم ترسخ فى نفوسهم ولم يصبروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

(وكان الله عليا حكيما) وبهذا العلم بشئون عباده ومعرفة مصالحهم جعل التوبة مقبولة حتماً ، لأنه يعلم ضعف عباده وأنهم لا يسمعون من عمل السوء فلو لم يشرع لهم التوبة لهلكوا باسترسالهم فى المعاصى والسيئات وتعمد اتباع الهوى وخطوات الشيطان لعلمهم أنهم هالكون لا محالة ؛ فلا فائدة من جهاد النفس وتركيتها .

أما وقد شرع الله بحكمته قبول التوبة فقد فتح لهم باب الفضيلة وهداهم إلى محو السيئة بالحسنة ، لكنه لا يقبل إلا التوبة النصوح دون حركات اللسان بالاستغفار والإتيان ببعض المكفرات من الصدقات أو الأذكار مع الإصرار على الذنوب والأوزار ومن ثم جمع الله فى الآية السابقة بين التوبة وإصلاح العمل .

وقد فعلت الأم السالفة مثل هذا فاستثقلت التكاليف وفسقت عن أمر ربها
واتبعت هواها وجعلت حظها من الدين مجموع حركات لسانية وبدنية لا تهذب خلقا
ولا تصلح عملا ولا تمنع النفس من التمتع بشهواتها، وقد اتبع كثير من المسلمين سنن من
قبلهم وحذوا حذوهم شبرا بشبر وذراعا بذراع .

وبعد أن بين حال من تقبل توبتهم ذكر حال أضدادهم الذين لا تقبل منهم
التوبة فقال :

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني
تبت الآن) أى إن سنة الله قد مضت بأن التوبة لا تكون للذين يعملون السيئات
منهمكين فيها إلى حضور الموت ، وصدور ذلك القول منهم ، لأن هؤلاء قد أحاطت
بهم خطيئتهم ولم تدع للأعمال الصالحة مكانا في نفوسهم ، فهم أصروا عليها إلى أن
حضرهم الموت ويأسوا من الحياة التي يتمتعون بها ، وحينئذ يقول أحدهم إني تبت
الآن وما هو من التائبين بل من المدّعين الكاذبين .

والخلاصة أن التوبة لمثل هؤلاء ليست مقبولة حتما فأمرهم مفوض إلى الله تعالى
وهو العليم بحالهم ، وحديث قبول توبة العبد ما لم يغرغر أو تبغ روحه الخلقوم -
المراد منه حصول التوبة النصوح بأن يدرك المذنب قبح ما كان قد عمله من السيئات
ويندم على مزاولتها ويحول حبه لها بحيث لو عاش لما عاد إليها ، وقده يحصل مثل هذا
الإدراك المصّر على السيئات المستأنس بها في عامة أيام الحياة ، وإنما الذي يحصل له
إدراك العجز عنها واليأس منها وكرهه ما يتوقعه من قرب العقاب عليها عند الموت .

(ولا الذين يموتون وهم كفار) أى لا تقبل توبة هؤلاء ولا هؤلاء ، وقد سوى
الله بين الذين سوتوا توبتهم إلى أن حضر الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في أن
توبتهم لا تقبل ، فكما أن المئات على الكفر قد فاتهم التوبة على اليقين . كذلك
المسوف إلى حضرة الموت ، فكل منهم تجاوز الحد المضروب للتوبة إذ هي لا تكون
إلا عند التكاليف والاختيار .

(أولئك أعتدنا لهم عذابا أنيا) أعتدنا هيأنا وأعدنا ، والأليم المؤلم الموجه أى هذان الفريقان اللذان استعبدهما سلطان الشهوة وخرجا على سنة الفطرة وهداية الشريعة أعدنا لهم العذاب الموجه فى الدار الآخرة جزاء وفاقا لما اكتسبت أيديهم من السيئات ، مع إصرارهم عليها حتى انمات ، إذ أنهم أفسدوا قلوبهم ودسّوا نفوسهم فصارت تهبط بهم خطاياهم إلى الدرك الأسفل من الهوان ، وتعجز عن الصعود إلى معاهد الكرامة والرضوان .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٨) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١٩) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا؟ (٢٠)

شرح المفردات

العضل: التضيق والشدة ، ومنه الداء العضال الشديد الذى لا نجاة منه ، والفاحشة الفعلية الشنيعة الشديدة القبح ، والمبينة: الظاهرة الفاضحة ، والمعروف: ما تألفه الطباع ولا يستنكره الشرع ولا العرف ولا المروءة ، والبهتان: الكذب الذى يبهت المكذوب عليه ويسكته متحيرا ، والإثم: الحرام ، أفضى أى وصل إليها الوصول الخاص الذى يكون بين الزوجين فيلبس كل منهما الآخر حتى تنسبهما شىء واحد ، والميثاق الغليظ: العهد المترك الذى يربطكم بهن أقوى رباط وأحكمه .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما تقدم عن عادات الجاهلية فى أمر اليتامى وأموالهم عقبه بالنهى عن الاستئنان بسنتهم فى النساء وأموالهن، وقد كانوا يحتقرون النساء ويعدونهن من قبيل المتاع حتى كان الأقربون يرثون زوجة من يموت منهم كما يرثون ماله فحرم الله عليهم هذا العمل، روى البخارى وأبو داود أنه كان إذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بأمراته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية فى ذلك، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: جاءت كُبَيْشَةُ بنة معن بن عاصم من الأوس إلى النبى صلى الله عليه وسلم وكانت تحت أبى قيس بن الأسلت فتوفى عنها فجنىح عليها (ضيق) ابنه وقالت له لا أنا ورثت زوجى ولا أنا تركت فانكح فنزلت الآية .

الإيضاح

(يأيتها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) أى لا يحل لكم أيها الذين آمنوا بالله ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية فى هضم حقوق النساء فتجعلوهن ميراثا لكم كالأموال والعبيد وتتصرفوا فيهن كما تشاءون وهن كارهات لذلك، فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه، وإن شاء زوجها غيره، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج .

(ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتينكموهن) أى لا يحل لكم إرث النساء ولا التضييق عليهن ومضارتهن ليكرهنكم ويضطررن إلى الافتداء منكم بالمال من ميراث وصداق ونحو ذلك، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حسننها ويتزوجون من لا تعجبهم أو يسكونها حتى تفتدى بما كانت ورثت من قريب الوارث أو ما كانت أخذت من صدق ونحوه أو كل هذا وربما كلفوها الزيادة إن علموا أنها تستطيعها .

أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كانت قریش بمكة ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة فاعلمها ما وافقه فيفارقها على ألا تزوج إلا باذنه ، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ، فإذا خطبها خاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها وكثيرا ما كانوا يضيقون عليهن ليفتدين منهم بالمال .

(إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) أى لا تعضلوهن فى أى حال إلا فى الحال التى يأتين فيها بالفاحشة المبينة دون الظنة والشبهة ، فاذا نشزن عن طاعتكم وسدت عشرتهن ولم ينفع معهن التأديب أو تمين ارتكابهن للزنا أو السرقة أو نحو ذلك من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس فلكم حينئذ أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال ، لأن الفحش قد أتى من جانبها وإنما اشترط فى الفاحشة أن تكون مبينة أى ظاهرة فاضحة لصاحبها ، لأنه ربما ظلم الرجل المرأة باصابتها الهفوة الصغيرة أو بمجرد سوء الظن والتهمة ، فمن الرجال الغيور السيء الظن الذى يؤاخذ بآثفه الأمور ويعده عظيما ، وإنما أبيض للرجل أن يضييق على امرأته إذا أتت بهذه الفاحشة المبينة ، لأنها ربما كرهته ومالت إلى غيره فتؤذيه بفاحش القول أو الفعل ليلها ويسأم معاشرتها فيطلقها فتأخذ ما كان أعطاها وتزوج غيره وتمتع بمال الأول وربما فعلت مع الثانى ما فعلت مع الأول ، فاذا علم النساء أن العضل والتضييق بيد الرجال ومما أبيض لهم إذا هن أهنهمن فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها والاحتيال بها على أرذل أنواع الكسب .

(وعاشروهن بالمعروف) أى عليكم أن تحسنوا معاشرة نساكنكم فتخالطوهن بما تألفه طباعهن ولا يستنكره الشرع ولا العرف ، ولا تضيقوا عليهن فى النفقة ولا تؤذوهن بقول ولا فعل ولا تقابلوهن بعبوس الوجه ولا تقطيب الجبين .

وفى كلمة (المعاشرة) معنى المشاركة والمساواة أى عاشروهن بالمعروف وليعاشرنكم كذلك ، فيجب أن يكون كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر وسبب هناءته

وسعادته في معيشته ومنزله « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)
 أى فإن كرهتموهن لعيب في أخلاقهن أو دمامة في خلقهن مما ليس لهن فيه كسب ،
 أو لتقصير في العمل الواجب عليهن كخدمة البيت والقيام بشئونهن ، لا يخلو عن مثله
 النساء في أعمالهن ، أو ليل منكم إلى غيرهن ، فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن
 ولا بفارقتهم فر بما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأوفى إلى الخير ، ومن ذلك :
 (١) الأولاد النجباء قرب امرأة يملها زوجها ويود فراقها ثم يجيئه منها من تقربه
 عينه من الأولاد النجباء فيعلو قدرها عنده بذلك .

(٢) أن يصلح حالها بصبره وحسن معاشرته ، فتكون من أعظم أسباب سعادته
 وسروره في انتظام معيشته وحسن خدمته ، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض أو بالفقر
 والعوَز فتكون خير سلوى وعون في هذه الأحوال ، فيجب على الرجل أن يتذكر
 مثل ذلك ، كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته في الحال والاستقبال .

وقد جاء قوله « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » في سياق حديث
 النساء دستورا إذا نحن اتبعناه كان له الأثر الصالح في جميع أعمالنا وهدانا إلى الرشد
 في جميع شئوننا ، فكثير مما يكرهه الإنسان يكون له فيه الخير ، ومتى جاء ذلك الخير
 ظهرت فائدة ذلك الشيء المكروه ، والتجارب أصدق شاهد على ذلك ، فالقتال
 لأجل حماية الحق والدفاع عنه يكرهه الطبع لما فيه من المشقة ، لكن فيه إظهار الحق
 ونصره ورفع أهله وخذلان الباطل وحزبه ، إلى أن الصبر على احتمال المكروه
 يمرن النفس على احتمال الأذى ويعودها تحمل المشاق في جسم الأمور .

والخلاصة أن الإسلام وصى أهله بحسن معاشرة النساء والصبر عليهن إذا كرههن
 الأزواج رجاء أن يكون فيهن خير ، ولا يبيح عضلن واقتداءهن أنفسهن بالمال

إلا إذا أتينا بفاحشة مبينة بحيث يكون إمساكهن سببا فى مهانة الرجل واحتقاره ،
أو إذا خافا ألا يقيما حدود الله ، وفيما عدا ذلك يجب عليه إذا أراد فراقها أن يعطيها
جميع حقوقها وهذا ما أشار إليه بقوله :

(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا
منه شيئا) أى إذا رغبتُم أيها الأزواج فى استبدال زوج جديدة مكان زوج سابقة
كرهتموها لعدم طاقتكم الصبر على معاشرتها وهى لم تأت بفاحشة مبينة وقد كنتم
آتيتموها المال الكثير مقبوضا أو ملتزما دفعه إليها فصار ديننا فى ذمتكم فلا تأخذوا
منه شيئا ، بل عليكم أن تدفعوه لها ، لأنكم إنما استبدلتم غيرها بها لأغراضكم
ومصالحكم بدون ذنب ولا جريرة تبيح أخذ شيء منها ، فبأى حق تستحلون ذلك
وهى لم تطالب فراقكم ولم تسيء إليكم لتحملكم على طلاقها ؟ وإرادة الاستبدال
ليست شرطا فى عدم حل أخذ شيء من مالها إذا هو كره عشرتها وأراد الطلاق ،
لكنه ذكر لأنه هو الغالب فى مثل هذا الحال ، ألا ترى أنه لو طلقها وهو لا يريد
تزوج غيرها لأنه اختار الوحدة وعدم التقيد بالنساء وحاجتهن الكثيرة فإنه لا يحل
له أخذ شيء من مالها .

ثم أنكر عليهم هذا الفعل ووبخهم عليه أشد التوبيخ فقال :

(أتأخذونه بهتانا وإنما مبينا ؟) أى أننا أخذونه باهتين آثمين ، وقد كان من
دأبهم أنهم إذا أرادوا تطليق الزوجة رموها بفاحشة حتى تخاف وتشتري نفسها منه
بالمهر الذى دفعه إليها .

وزاده إنكاراً آخر مبالغة فى التنفير من ذلك فقال :

(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) أى إن حال هؤلاء الذين
يستحلون أخذ مهور النساء إذا أرادوا مفارقتهم بالطلاق لا لذنب جنيته ولا لإثم
اجترحه من الإتيان بفاحشة مبينة أو عدم إقامة حدود الله ، وإنما هو الرأى والهوى

وكراهة معاشرتهم — عجيب أيما عجب فكيف يستسيغون أخذ ذلك منهم بعد أن تأكدت الرابطة بين الزوجين بأقوى رباط حيوى بين البشر ولا بس كل منهما الآخر حتى صار أحدهما من الآخر بمنزلة الجزء المتمم لوجوده ، فبعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر إفشاء ولا بسه ملاسمة يتكون منها الولد يقطع تلك الصلة العظيمة ويطمع فى مالها وهى المظلومة الضعيفة وهو القادر على اكتساب المال بسائر الوسائل التى هدى الله إليها البشر .

(وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) قال قتادة : هذا الميثاق هو ما أخذ الله للنساء على الرجال بقوله (فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقال الأستاذ الإمام : إن هذا الميثاق لا بد أن يكون مناسباً للإفشاء فى أن كلا منهما شأن من شئون الفطرة السليمة وهو الذى أشارت إليه الآية الكريمة « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هى أقوى ما تعتمد عليها المرأة فى ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها والاتصال برجل غريب عنها تساهمه السراء والضراء وتسكن إليه ويسكن إليها ويكون بينهما من المودة أقوى مما يكون بين ذوى القربى ثقة منها بأن صلتها به أقوى من كل صلة وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة .

هذه الثقة وذلك الشعور الفطرى الذى أودع فى المرأة وجعلها تحس بصلة لم تعهد من قبل لا تجد مثلها لدى أحد من الأهل ، وبها تعتقد أنها بالزواج مقبلة على سعادة ليس وراءها سعادة فى الحياة ، هذا هو المركز فى أعماق النفوس ، وهذا هو الميثاق الغليظ ، فما قيمة من لا يفي بهذا الميثاق وما هى مكانته من الإنسانية ؟ اه بتصرف .

وقد استدلوأ بذكر القنطار على جواز التغالى فى المهور، وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزاد فى الصداق على أربعائة درهم ثم نزل فاعترضته

امرأة من قریش فقالت أما سمعت الله يقول (وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا) فقال : اللهم عفو كل الناس أفتقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في مُصدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله فله ما أحب .

هذا وإن الشريعة لم تحدد مقدار الصداق بل تركت ذلك للناس لتفاوتهم في الغنى والفقر فكل يعطى على حسب حاله ، ولكن جاء في السنة الإرشاد إلى اليسر في ذلك وعدم التغالى فيه ، فمن ذلك ما رواه أحمد والحاكم والبيهقي عن عائشة « إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها » .

وإن التغالى في المهور الآن قد صار من أسباب قلة الزواج ، وقلة الزواج تفضى إلى كثرة الزنا والفساد ، والغبن أخيرا على النساء أكثر ، وإنك لترى هذه العادة متمكنة لدى بعض الناس ، حتى إن ولى المرأة ليمتنع عن تزويج بنته للكفء الذى لا يرجى من هو خير منه إذا كان لا يعطيه ما يراه لاثقا بكرامته ، ويزوجها لمن هو دونه دينيا وخلقا ومن لا يرجو لها سعادة عنده إذا هو أعطاه الكثير الذى يراه محققا لأغراضه . وهكذا تتحكم التقاليد والعادات حتى تفسد على الناس سعادتهم وتقوض نظم بيوتهم وهم لها منقادون بلا تفكير فى العواقب .

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢١) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ
الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٢) .

شرح المفردات

سلف أى مضى ، فاحشة أى شديد القبح ، مقتا أى ممقوتا مبغوضا عند ذوى
الطباع السليمة ، ومن ثم كانوا يسمونه نكاح المقت ، ويسمى الولد منه مقيتا ، ومقتيا
أى مبغوضا محتقرا، وساء سيلا أى بئس طريقا ذلك الطريق الذى اعتادوا سلوكه
فى الجاهلية و بئس من يسلكه ، لم يزد السير فيه إلا قبحا ، والجناح الإثم والتضييق .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن فى أوائل السورة حكم نكاح البتامة وعدد من يحل من النساء
والشرط فى ذلك ، وبين حكم استبدال زوج مكان زوج وما يجب من المعروف
فى معاشرتهم — وصل هذا ببيان ما يحرم نكاحه منهن .

الإيضاح

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) ذكر الله هذا النكاح أولا ولم يذكره
مع سائر المحرمات فى الآية التالية لأنه كان فاشيا فى الجاهلية ، وقد ذمه الله أقبح ذم
فسماه فاحشة وجعله مبغوضا أشد البغض ، أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال :
كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن
أمه أو ينكحها من شاء ، فلما مات أبو قيس بن الأسلت قام ابنه محصن فورث نكاح
امراته ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئا ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم
فذكرت ذلك له فقال ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئا فزلت (ولا تنكحوا)
الآية ، ونزلت أيضا (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) الخ . والمراد بالنكاح العقد

كما قال ابن عباس ، فقد روى ابن جرير والبيهقي عنه أنه قال : كل امرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل بها فهي حرام ، والمراد من الآباء ما يشمل الأجداد إجماعا .
(إلا ما قد سلف) أى لسن ما سلف من ذلك لا مؤاخذه عليه .
والخلاصة — أنكم تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آبؤكم إلا ما قد سلف .
ومضى فإنه مغفور عنه .

(إنه كان فاحشة ومقتنا وساء سبيلا) أى إن نكاح أزواج الآباء تمجه الأذواق السليمة وتؤيد ذلك الشريعة التى هدى الله الناس بها فهو قبيح محتقر والسالك فى طريقه مزدري عند ذوى العقول الراجحة .

قال الإمام الرازى — القبح ثلاثة أصناف : عقلى وشرعى وعادى ، وقد وصف الله النكاح بكل ذلك بقوله سبحانه (فاحشة) إشارة إلى الأول ، وقوله (مقتنا) إشارة إلى الثانى ، وقوله (وساء سبيلا) إشارة إلى الثالث .

بعد هذا بين الله أنواع المحرمات لأسباب وعلل تنافى ما فى النكاح من الصلة بين بعض البشر وبعض ، وهى عدة أقسام : القسم الأول منها ما يحرم من جهة النسب ، وهو أنواع :

(١) نكاح الأصول واليه الإشارة بقوله :
(حرمت عليكم أمهاتكم) والمراد بالأم ما يشمل الجدات أى إن الله قد حرم عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم والمراد أنه حكم الآن بهذا التحريم والمنع .

(٢) نكاح الفروع وذلك قوله :
(وبناتكم) والمراد بهن ما يشمل بنات أصلابنا أو بنات أولادنا ممن كنا سببا فى ولادتهن وأصولهن .

(٣) نكاح الحواشى القرية وذلك ما عناه سبحانه بقوله :
(وأخواتكم) سواء أكن شقيقات لكم أم كن لأم أو لأب .
(٤ و ٥) نكاح الحواشى البعيدة من جهة الأب والأم وإليهما الإشارة بقوله :

(وعماتكم وخالاتكم) والمراد بهما الإناث من جهة العمومة ومن جهة الخؤولة فيشمل أولاد الأجداد وإن علوا وأولاد الجدات وإن علون .

(٦) نكاح الحواشي البعيدة من جهة الإخوة وذلك قوله :

(وبنات الأخ وبنات الأخت) من جهة أحد الأبوين أو كليهما .

القسم الثانى ما حرم من جهة الرضاة وإليه الإشارة بقوله :

(وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاة) وقد نزل الله سبحانه

الرضاة منزلة النسب فسمى المرضعة أما للرضيع وبناتها أختا له فأعلمنا بذلك أن جهة الرضاة كجهة النسب، وقد وضحت السنة ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة «إنها لا تحل لى ، إنها ابنة أخى من الرضاة ، ويحرم من الرضاة ما يحرم بالنسب» رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وعلى ذلك جرى المسلمون جيلا بعد جيل فجعلوا زوج المرضعة أبا للرضيع تحرم عليه أصوله وفروعه ولو من غير المرضعة لأنه صاحب اللقاح الذى كان سبب اللبن الذى تغذى منه الرضيع ، وقد روى البخارى عن ابن عباس أنه سئل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما بنتا والأخرى غلاما ، أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ (قال لا ، اللقاح واحد) .

وقد غلب على الناس التساهل فى أمر الرضاة فيرضعون الولد من امرأة أو من عدة نسوة ولا يهتمون بمعرفة أولاد المرضعة وإخوتها ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ليعرفوا ما يترتب عليهم فى ذلك من الأحكام كحرمة النكاح وحقوق القرابة الجديدة التى جعلها الشارع كالنسب فكثيرا ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاة وهو لا يدري .

وظاهر الآية أن قليل الرضاة ككثيرها ويروى ذلك عن على وابن عباس والحسن والزهرى وقتادة ، وبه أخذ أبو حنيفة ومالك ، وذهب جماعة إلى أن التحريم إنما يثبت بثلاث رضعات فأكثر لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال

«لا تحرم المصّة والمصتان» وقد روى العمل به عن الإمام أحمد، وذهب جماعة آخرون إلى أن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات ويروى هذا عن عبد الله ابن مسعود وعبد الله بن الزبير وهو مذهب الشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه .

ولا يحرم الرضاع إلا فى سنه ومدته المحدودة بقوله تعالى « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيَمَ الرِّضَاعَةَ » وهو مذهب عمر وابن مسعود وابن عباس، وبه أخذ الشافعى وأحمد وصاحباً أبى حنيفة : أبو يوسف ومحمد، وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس قوله صلى الله عليه وسلم « لا رضاع إلا ما كان فى الحولين » وروى عن ابن عباس فى رواية أخرى والزهرى والحسن وقتادة أن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطم ، فإن فطم الرضيع ولو قبل السنتين امتنع تأثير رضاعه فى التحريم، وإن استمر رضاعه إلى ما بعد السنتين ولم يفطم كان رضاعه محرماً .

القسم الثالث محرمات المصاهرة التى تعرض بسبب الزواج وتحت الأنواع الآتية :

(١) (وأمهات نسائكم) ويدخل فى الأمهات الجدات ، ولا يشترط فى تحريم أم المرأة دخوله بالبنت بل يكفى مجرد العقد ، وبهذا قال جمهور الصحابة ومن بعدهم وعليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة .

(٢) (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم) الربائب جمع ربيبة ، وربيب الرجل ولد امرأته من غيره سمي ربيبا لأن الرجل يربيه ويسوسه ويؤدبه كما يؤدب ولده ، وقوله: اللاتى فى حجوركم وصف لبيان الحال الغالب فى الربيبة وهى أن تكون فى حجر زوج أمها وللإشعار بالمعنى الذى يوضح علة التحريم ويحرك عاطفة الأبوة فى الرجل وهى كونها فى حجره يحنو عليها حنوّه على بنته ، ويدخل فى التحريم كل بنات امرأة الرجل إذا كان قد دخل بها وبنات بناتها وبنات أبنائها ، لأنهن من بناتها فى عرف اللغة .

(فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) أى إن الرجل إذا عقد نكاحه على امرأة ولم يدخل بها لا يحرم عليه بناتها ، وقال الحنفية : إن من زنى بامرأة يحرم عليه أصولها وفروعها وكذلك إذا لمسها بشهوة أو قبلها أو نظر إلى ما هنالك منها بشهوة ، وكذلك أيضا إذا لمس يد أم امرأته بشهوة فإن امرأته تحرم عليه تحريم مؤبدا ولم يوافقهم على ذلك كثير من الأئمة لأنه لم يؤثر فيه خبر ولا أثر عن الصحابة فيه شيء وقد كانوا قريبي العهد بالجاهلية التي كان الزنا فاشيا فيها بينهم ، فلو كانوا فهموا لذلك مدركا من الشرع وعلموا لسألوا عنه وتوافرت الدواعي على نقل ما أفتوا به .

(٣) (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) الحلائل واحدها حليمة وهى الزوجة ، ويقال أيضا للرجل حليل إذا أنزوحين يحلان معا فى مكان واحد وفراش واحد . ويدخل فى الأبناء أبناء الصلب مباشرة أو بواسطة كابن الابن وابن البنت ، فحلائهما تحرم على الجد ، كما يدخل الابن من الرضاعة فتحرم حليته لما تقدم من قوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

القسم الرابع ما حرم بسبب عارض إذا زال يزول التحريم وهو ما ذكره سبحانه بقوله :

(وأن تجمعوا بين الأختين) أى وحرّم عليكم الجمع بين الأختين فى الاستمتاع الذى يراد به الولد ، والمذاهب الأربعة متفقة على تحريم الاستمتاع بالأختين بملك اليمين أو بالنكاح أو بالنكاح والملك كأن يكون مالكا لإحدهما ومتزوجا للأخرى فيحرم عليه أن يستمتع بهما ويجب عليه أن يحرم إحدهما على نفسه كأن يعتقد المملوكة أو يهبها ويسمها للموهوبة له .

ومثل هذا الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، لأن العلة موجودة فيه أيضا وهى إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله تعالى بوصله ، كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

والضابط لذلك أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة لو كانت إحداها ذكرا
لحرم عليه بها نكاح الأخرى .

(إلا ما قد سلف) أى لكن ما قد سلف قبل التحريم لا تؤاخذون عليه ،
وقد كانوا يجمعون بين الأختين ، أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن فيروز الديلمى
أنه أدركه الإسلام وتحتة أختان فقال له النبى صلى الله عليه وسلم طلق أيتهما شئت .
وعن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب
والجمع بين الأختين .

(إن الله كان عفورا رحيمًا) فلا يؤاخذكم بما سلف منكم فى زمن الجاهلية
إذا أنتم عملتم بشريعة الإسلام ، ومن مغفرته أن يمحو من نفوسكم آثار الأعمال السيئة
ويغفر لكم ذنوبكم إذا أنبتم إليه ، ومن رحمته أن شرع لكم من أحكام النكاح
ما فيه المصلحة لكم وتوثيق الروابط بينكم لتتراحوا وتتعاونوا على البر والتقوى ، وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بحلول من أرباض القاهرة فى شهر رمضان
سنة إحدى وستين وثلاثة وألف من الهجرة ، وله الحمد أولا وآخرا .

فهرس

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

المبحث	الصفحة
دفع شبهتين من شبهات اليهود .	٤
الإجابة عن أولى الشبهتين .	٥
الإجابة عن الشبهة الثانية .	٧
اتفاق العرب في الجاهلية والإسلام على تعظيم البيت الحرام وأمن من دخله	٨
آراء العلماء في المراد من الاستطاعة لوجوب الحج .	٩
إيقاد اليهود نار الفتنة بين الأوس والخزرج .	١١
الدين نهى عن العصبية الجنسية وأمر بالتمسك بالرابطة الدينية .	١٧
الاختلاف الذي بين البشر ضربان :	١٨
ما يجب توافره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .	٢٢
ضرب الذلة والمسكنة على اليهود .	٣٢
صفات المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب .	٣٥
ما يفعله الكافر من وجوه البر في الدنيا لا أثر له في الآخرة فلا يفيد شئاً	٤٠
شروط النهي عن اتخاذ بطانة من الكافرين .	٤٤
وقعة بدر .	٥١
وقعة أحد ، وذكر السبب في انخزال المؤمنين .	٥١
الحكمة في الإمداد بالملائكة .	٥٨
حكمة ما حصل من خذلان المؤمنين في أحد .	٥٩
ربا الجاهلية ما يسمى في عصرنا بالربا الفاحش .	٦٥

الصفحة	المبحث
٦٥	الربا نوعان .
٦٧	الحرمات فى الإسلام ضربان .
٦٩	أوصاف المتقين .
٨٣	الجناد أقسام .
٨٧	لئن مات محمد لقد مات قبله سائر الأنبياء .
٩٠	من ىرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن ىرد ثواب الآخرة نؤته منها .
٩١	للإنسان طوران عاجل وآجل .
٩٦	طاعة الكافرين توجب الخسران فى الدنيا والآخرة .
٩٧	أثر الشرك فى النفوس .
٩٩	سبب ما أصاب المسلمين فى وقعة أحد .
١٠٣	انقسام المسلمين بعد وقعة أحد إلى فريقين .
١٠٦	انخدال المؤمنين أثر طبيعى لما اجتروحه من المخالفات .
١١٣	الشورى فى الإسلام وفوائدها .
١١٥	التردد خور وضعف فى العزائم .
١١٥	وجوب التوكل على الله بعد أخذ الأهمية .
١١٦	التوكل الصحيح إنما يتم مع الأخذ بالأسباب ، وبدون ذلك يكون جهلا .
١٢١	الناس يتفاوتون فى الجزاء عند الله على حسب تفاوتهم فى الفضائل والمعرفة فى الدنيا والأعمال الصالحة .
١٢٢	صفات الرسول صلى الله عليه وسلم التى تقتضى طاعته .
١٢٦	العقوبات آثار لازمة للأعمال .
١٢٧	معاذير المناققين حين تخلفهم عن القتال .

الصفحة	المبحث
١٣١	الشهداء أحياء عند ربهم في دار الكرامة .
١٣٣	غزوة حمراء الأسد .
١٣٥	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قال « حسبى الله ونعم الوكيل » .
١٣٧	صادق الإيمان لا يكون جباناً ، وإذا عرض له أسباب الخوف قاوم ذلك
١٣٨	تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم عن مسارعة قومه إلى الكفر .
١٤١	من شأن المؤمن إذا أنسا الله أجله أن تكثر حسناته وتزداد خيراته .
١٤٢	في الشدائد كثير من القوائد .
١٤٥	الحث على بذل المال في الجهاد .
١٥٠	ليس قومك بيدع من الأمم ، ولا أنت بيدع من الرسل .
١٥٣	الابتلاء في الأموال يكون بالبذل في وجوه البر ، وفي الأنفس ببذلها في الجهاد في سبيل الله .
١٥٥	كيف يطعن اليهود في النبي صلى الله عليه وسلم وهو مذكور في كتابهم
١٥٦	تبيين الكتاب على ضربين .
١٥٨	العذاب أثر طبيعي للذنوب وهو ضربان .
١٦١	استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم من عائشة في عبادة ربه .
١٦٣	ما يقول الذَّاكرون المشفكرون في ابتهاهم إلى ربهم .
١٦٥	استجابة الدعاء قد تكون بغير ما يطلب المرء .
١٦٦	الإسلام أصلح معاملة الرجل للمرأة واعترف لها بالكرامة .
١٦٧	صفات المؤمن وجزاؤه على إحسانه .
١٧٠	فضائل مؤمنى أهل الكتاب .

الصفحة	المبحث
١٧٣	تفسير سورة النساء .
١٧٥	المبحث العلمى والتاريخى لا يؤيد أن آدم أبو البشر .
١٧٦	حقيقة النفس أو الروح .
١٨٠	العدل بين الزوجات إنما يكون فيما يدخل تحت طاقة الإنسان .
١٨١	قد تدعو الحاجة إلى تعدد الزوجات .
١٨٣	الحكمة فى تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم .
١٨٤	مال المرأة ليس بملك للرجل فلا يحل له إلا بإذنها .
١٨٦	الدين حث على الاقتصاد ومنع الإسراف والتبذير .
١٨٩	مال اليتيم ليس بمال للولى فليس له أن يأكل منه شيئاً بلا حق .
١٩١	كانوا فى الجاهلية لا يرثون النساء والأولاد الصغار .
١٩٤	أسباب الإرث فى الجاهلية .
١٩٦	الحكمة فى جعل حظ الولد كحظ الأنثيين .
١٩٦	الموانع التى تمنع ميراث الولد .
١٩٧	السرى فى تساوى الوالدين فى الميراث مع وجود الأولاد .
١٩٨	حقوق الزوجية فى الميراث مقدمة على حقوق الوالدين .
٢٠٠	حكمة جعل الزوجات الكثيرات فى الميراث كزوجة واحدة .
٢٠٠	ميراث الكلالة .
٢٠١	الضرار فى الوصية على وجوه .
٢٠٣	السرى فى التعبير بخالدين فى أهل الجنة ، وبخالدا فى أهل النار .
٢٠٣	المعذب حالان .

الصفحة	المبحث
٢٠٦	كان عقاب الزاني والزانية في بدء الإسلام الإيذاء والتأنيب .
٢٠٧	العاصي يسمى جاهلا .
٢٠٨	التوابون طبقات .
٢١٠	من لا تقبل توبته .
٢١٢	نهى المؤمنين أن يسيروا على سنة الجاهلية في هضم حقوق النساء .
٢١٣	الأمر بمعاشرة النساء بالمعروف .
٢١٤	ربما يكره الإنسان شيئا وفيه الخير الكثير .
٢١٥	نهى الزوج عن أخذ شيء من صداق المرأة إذا أراد أن يستبدل بها زوجها غيرها .
٢١٨	من يحرم الزوج بهن .